لم نرفض الانتقال مثل الآخرين ... هنا مدينة المستقبل

@ketab_n
16.9.2015

حدث في كراكوف

بيترا هولوفا

ترجمة: د. خالد البلتاجي

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

بيترا هولوفا

حدث في كراكوف

رواية تشيكية

ترجمة د. خالد البلتاجي

Twitter: @ketab_n

حدث في كراكوف

بيترا هولوفا

ترجمه: د. خالد البلتاجى

الطبعة الأولى : 2015

رقم الإيداع2014/21129

الترقيم الدولي:978-977-319-214-3

الغلاف: محمد السيد

تصحيح: فاطمة طعيمة

60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة

ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

The Ministry of Culture of the Czech Republic supported this translation.

Copyright © 2010 Petra Hůlová

Twitter: @ketab_n

بيترا هولوفا

حدث في كراكوف

رواية تشيكية

ترجمة د. خالد البلتاجي

Twitter: @ketab_n

فهرسة بطاقة

هولوفا،بيترا

حدث في كراكوف: رواية تشكية/بيترا هولوفا: ترجمة خالد البلتاجى .–

القاهرة: العربي للنشر والتوزيع 2014

تدمك 9789773192143 - ص؛ سم.

1- القصص التشيكية أ- البلتاجى: خالد (مترجم) 891,863

Twitter: @ketab_n

1

لا أتذكر شيئًا من مدينة "لوتشا"، رغم أن البعض مازال يتذكر شيئًا ما حدث هناك قبل ثلاثة أعوام. يقولون مثلا إنهم كانوا يقذفون بعضهم بأواني ممتلئة بماء مغلي، ومنهم أبي. لذلك انتشرت فوق ذراعيه سلاسل من الندب، فظل بقية حياته يرتدي أكمامًا طويلة. كل ما أعرفه عن "لوتشا" هو ما سمعته من والديّ.

كنا نسكن في أحد بيوت العمال. في بيت ذى طابق واحد، يقع في مُعَسكر "أمالكا" الذي بُنى منذ أربعين عامًا. كان المعسكر عبارة عن شارع واحد طويل من بيوت متشابهة ومتجاورة. كان بيتنا في منتصف تلك البيوت. تظهر أمي في صور من تلك الأيام نحيفة للغاية. ربما كانت مرهقة من السعي بين دار الحضانة والمتجر من ناحية، والتردد على أبي في الحانة من ناحية أخرى. ربما فاض بها الكيل من الحياة في"لوتشا"

Twitter: @ketab_n

لهذا السبب. لم تجد هناك يومًا عملًا حقيقيًا في تخصصها. فقد درست فن حياكة الملابس النسائية. لكن نساء قرية جبلية لم يكُنّ في حاجة إلى مهنة كهذه. كان مواطنو القرية يرتدون نفس الملابس. لا يملكون سوى قميص واحد، وسروالا واحدا احتياطياً يلبسونهما في اللقاءات الحزبية. كان يكفي زوجاتهم متجر وحيد للملابس الجاهزة، وبجواره منفذ لبيع الصحف، ومتجر للوازم الحدادة، وآخر للخردوات. كانت أمي أحيانًا تحيك الملابس بناء على طلب أحدهم. كانت تقول إنها ستكون في المنزل يوميّ الثلاثاء والخميس من الساعة الحادية عشرة وحتى الرابعة لتلقي الطلبات. أرادت أن تطلق اسمًا على صالونها هذا، لكن الشائعات بدأت تنتشر. عاد أبي ذات يوم من الحانة وهو يستشيط غضبًا من محاولتها الظهور كسيدة أعمال كبيرة، وطلب منها أن تتوقف على الفور. من المؤكد أن الرجال هم من دفعوه إلى ذلك. كل ما أخبرتني به أمي أنها تركت مهنة الحياكة بعد فترة من أجل أبي، وانتهى الأمر عند ذلك.

استبدل والديّ بيت "لوتشا" بشقة عادية في إحدى العمارات، ولم يظهر منهما يومًا أي ندم على ما فعلاه. انتقلا من شقة قديمة إلى شقة جديدة. رغم أن الحديقة الملحقة بالبيت كانت مكانًا جيدًا لتمشية الكلاب، إلا أنها لم تتحمل نظرات الجيران السامة، ولمزهم بأن زهور اللؤلؤ نبتت في الحديقة بدلًا من نباتات الأزاليا والجزر. فكان من الأفضل ألا نظهر كثيرًا خارج المنزل. فصارت الحديقة هي الأخرى عديمة الجدوى.

Twitter: @ketab_n

كنت أعرف أنا وشقيقتي منذ البداية أن مدينة "كراكوف" لا تعجب أحدًا. كنت أحيانًا أراها أنا أيضًا مدينة عجيبة، رغم أنها كانت في الواقع مكانًا رائعًا. لم يبق من خطط تنمية المدينة سوى نوادر يتناقلها الناس فيما بينهم، وأسماء شوارع مثل شارع المسبح، حيث كان من المفترض أن يبنوا هناك مسبحًا كبيرًا، به مكان للتجديف والتزحلق، أو منتزهًا يزرعون فيه الأشجار، ويضعون فيه مقاعد ليستريح الناس عليها. مع ذلك لم يكن هناك سوى حشائش نابتة في فجوات وسط الإسفلت. كان المواطنون كبار السن يخافون من الذهاب إلى هناك بعد غروب الشمس. لم يكملوا بناء ملعب الأطفال. تكسرت أرضية النافورات الصغيرة بين العمارات، ولم تنطلق منها المياه يومًا. وبدلًا من ملعب الأطفال المزعوم راحت الأطفال تلعب فوق ألواح اسمنتية. وانتشرت الكتل الخرسانية خلف العمارات في المكان المخصص ليكون غابة مهذبة للتنزه، وصارت تشبه صحراء قبائل هنود أمريكا. رمال مموجة مع آثار قطع أرض خضراء هنا وهناك. كان الوضع في مدينة "بوكلاد" عند البحيرة الفضية لا يختلف كثيرًا. الفرق هو أن أمواج الرمال في "كراكوف" كانت مجرد أكوام مغطاة بنباتات ملوثة صالحة للتزلج عليها. كانت "بوكلاد" عند البحيرة الفضية هو الآخر مكانًا خَطِرًا. لم يكن هناك "بيير بريك" الهندي، فقد كانوا يصورون فيلمًا عن الهنود الحمر في يوغوسلافيا. وهكذا كبرنا على نصف الحقائق.

أتذكر أنه عندما جاء عمي "ليبور" مع والدي ووالدتي لزيارتنا في "كراكوف" تشاجر مع والدي شجارًا عنيفًا، ورفض أن يذهب معه إلى البار لشرب البيرة. في الواقع أنه لم يذهب إلى أيّ مكان. جلس عند طاولة بالمطبخ، يجفف جبينه بمنديل. ثم يبلله بالماء. كان يلاطفني أنا وشقيقتي

Twitter: @ketab_n

وكأننا جروان حبيسان. كان ذلك شعورًا جديدًا علينا أن يتأسف أحد لحالنا. أن يشعر أحد بالأسف علينا. كنت أتشاجر أنا "وميلادا،" فيصرخ فينا أبي، ويطردنا خارج البيت. كان "ليبور" مهاجرًا حديثًا من العائلة.

عشنا في شقة بإحدى العمارات التي تقع في صف من خمس عمارات متجاورة، كانت عمارة من خمس طوابق. يوجد في الجهة المقابلة نفس العدد من العمارات، وبين صفي العمارات توجد منطقة إسمنتية للتنزه، كان الناس يجلسون فيها على طريقة أهل "كراكوف"، حيث يجلسون فوق أذرع المقاعد، وأقدامهم فوق المكان المفترض أن يكون مسندًا للظهر. لكنه لم يكن كذلك، فمساند الظهر في منتصف المقعد لم تكن هناك، مما جعل ظهور الناس تبرز من خلف المقعد. كنا هكذا نجلس ونحن نضع مذكرات "كليمنت جوتوالد" فوق أقدامنا. عثرت عليها بنفسي فوق أحد الأرفف في غرفة المعيشة. صفحات بالية لم يتصفحها أحد منذ دهر من الزمان. رغم أنها تستحق أكثر مما تستحقه مجلة مثل "فلاستا"، أو "استاديون" التي يفضلها أبي، ويحفظ أعدادها في مجلدات، ومن شانها أن تثير حفيظة الرفيق "جوتوالد" لم تكن مذكرات الرفيق "جوتوالد" مُجلّدة مثل أعداد مجلة "استاديون"، لكن الأمور المهمة فيها كانت أكثر بكثير من تجاعيد قفازات لاعبي الهوكي التشيك، وأكثر من نصائح عن قضاء رحلات الخريف، وعدد حقائب اليد المتشابكة في مجلة "فلاستا" مررت بإصبعي فوق السطور التي كتبها أول رئيس لنا قادم من طبقة العمال. التصقت تلك الكلمات خلف أظافري مثل رمال الصحراء، وتزاحمت في قلبي الصغير الجائع.

Twitter: @ketab_n

كانت كلمات جوفاء تجاوزها الزمن، وكان الشيوعية التي تتحدث عنها تختلف كثيرًا عما عرفته أنا من تدمير وسرقة. ليس فقط تدمير المقاعد وسرقتها، لكن تدمير منطقة الألعاب كلها، ومحطات الحافلات، وأجهزة المنازل، ومحلات الخدمة الذاتية. كانت "كراكوف" في أيام طفولتي مدينة لا تَهُمّ أحد.

كانت أمي وأبي يتحدثان عن المجتمع الجديد، ربما. الناس اليوم يقولون إن الشيوعيين في مطلع الثمانينات كانوا مجرد أوغاد، تنقصهم المبادئ. وهذا كلام فيه شيء من الحقيقة، فأبي لم يكن غبيًا. أراد أن يوفر لنا حياة كريمة.

كانت هناك مسيرة من رجال يحملون مكبرات للصوت، يجوبون قرية "لوتشا" الصغيرة على بُعْد بضعة بيوت من بيتنا الذي أقمنا به، ويدعون الناس للانضمام إليهم. استمع أبي جيدًا إلى ما يَعِدون به الفلاحين. كان ينتظر أن تقدّم نجمة العمال الخماسية الحمراء ما هو أكثر من حكايات مسلية، وأن يحصل على شيء منهم يحمله في يده إلى البيت، أو يلبسه فوق جسده. طلبوا من الراغبين أن يحضروا إلى اللجنة القومية في زيارة لا تلزم أحدًا. وعلت أصوات المكبرات، حتى تساقطت العجائز من نوافذ البيوت الريفية في "لوتشا" من شدة الفضول.

قاموا بتوزيع المرطبات في مقر اللجنة، وسرعان ما بدأت كل القرية تلتقي هناك بصورة منتظمة. استمر الوضع على ذلك الحال لبضعة أسابيع، واعتاد الناس الأمر. اعتادوا على الذهاب إلى مقر اللجنة يوم السبت قبل الظهيرة. كانوا يُعِدّون بعض المأكولات للمواطنين، ثم

Twitter: @ketab_n

يتحدثون معهم. كان الأحاديث منتشرة في كل مكان، ولم تكن القهوة ولا البيض تقدم مجانًا إلا هناك.

قال لي أبي لاحقًا إن من قام بذلك هي مجموعة من المناصرين المتحمسين. من أناس كانوا يترددون على مقر اللجنة القومية من أجل الحديث عن المجتمع الجديد. لم تثق أمي فيما كان يدور. لكني أبي كان من الذين تحمسوا للأمر بالفعل. لذلك انهالت عليه العروض. مدارس جيدة، وفرص عمل جيدة، ومستوى معيشة أفضل. كان حماسًا خالصًا ومخلصًا. كانت يتطلع إلى الإقامة في المدينة، والى دخل شهري، وشيء من هذا أصاب "ليبور" أيضًا. كان "ليبور" الذي يسب أبي في كل مناسبة من المناهضين المزعجين. كان يسخر من ذلك الحدث الكبير رغم أنه لم يكن يعلم أي شيء عنه. لم يذهب ولو مرة واحدة إلى مقر اللجنة. أعتقد أن أبي أراد أن يثبت له أنه أخطأ كثيرًا عندما رفض المشاركة في الحدث، وأن سوء الظن بالرفقاء يكون أحيانًا في موضعه، لكنها لم تكن في تلك المرة مجرد قصور في الهواء يسخر منها "ليبور" وقبل أن يبدؤوا في توزيع استمارات الالتحاق الإجبارية. كان العديد من سكان "لوتشا" يأخذون الأمر على أنه نوع من الإلهاء المقبول. شيء ما كان يحدث. لكن باستثناء ذلك لم يكن هناك شيء يستحق الذكر عندنا في "لوتشا".

لم نعرف وقتها أننا لم نكن الوحيدين المنخرطين في ذلك الأمر. كان التطوع قائمًا في نفس الوقت في العديد من المناطق التشيكية النائية. في عشرات المستعمرات في كل أنحاء تشيكوسلوفاكيا. كل من أراد أن يتحقق من ذلك الأمر كان يمكنه الاطلاع على الاجتماع السري للجنة المركزية عام

Twitter: @ketab_n

1973. كان موسومًا بختم سري للغاية. مستندات حول المدن الجديدة في غابات الجمهورية التي ظلت تحتفظ ببكارتها، وفي المروج حيث يطاردون الظباء، وطيور الهدهد، وثعابين الحشائش التشيكوسلوفاكية.

اجتمع في تلك المناسبة رفقاء من كل الدول الصديقة الموقعة على اتفاقية "وارسو"، ووقعوا بالأقلام على الاتفاقية مثل الهنود الحمر عندما يضمون معاصمهم التي تسيل منها الدماء. كان الرفيق "هوساك" هو من مثّل تشيكوسلوفاكيا وقتها. لم يحضر الرفاق وحدهم ذلك الاجتماع، يشارك فيه مهندسو الاقتصاد، وخبراء الزراعة، والأطباء. كانوا هناك بصفتهم علماء. في صالات قلعة "براج"التي دارت فيها المباحثات اجتمع الستة الكبار وبلد وحيد، تلك البلد كانت الاتحاد السوفيتي، أو كما كان يقال وقتها، اتحاد جمهورية "بورياتيا" و"قلمقيا" و "ألطاي" وباقي الشعوب المستقلة تحت الانتداب السوفيتي من موسكو. تقول الوثائق إن تلك الفكرة لم تأتِ بتوجيه من موسكو، وهو ما قد يُدهش البعض. جاءت فكرة المقرات السخية التي تحمل أسماء المدن الصديقة للدول المتحالفة في اتفاقية "وارسو" من القاع. أو كما يقال اليوم، بطريقة ديمقراطية، وكانت شبه ديمقراطية وقتها، لأن أحدا لم يسرق قيادة الاتحاد السوفيتي حتى وقت اندلاع الثورة المخملية، ولم يكن هناك أي ضغط من أحد بالتأكيد. هذا ما تشير إليه التوقيعات على تلك الوثائق، وجرة القلم القوية الخالية من أيّ رعشة. اتخذت قيادة الجمعيات العمالية وقتها في الصالة الإسبانية بمبادرة من المدن الصديقة القرار بالإجماع، وهم يشربون كؤوس المياه المعدنية، في حالة تامة من الاتزان. ربما لعب موسم الثراء الفكري دوره، وربما قالت كلمتها أيضًا حالة النشوة الشيوعية الأصلية

Twitter: @ketab_n

الثالثة والأخيرة قبل أن تأتي الموجة التاسعة في عام تسعة وثمانين. وهي الموجة التي لم يكن أحد من كبار"كراكوف" ليراهن عليها في الثمانينات ولو بخمس سنتات.

إنها الحاجة إلى انتشار سكاني جديد لصالح الشعب التشيكوسلوفاكي الذي تأثر بأكبر نسبة للمواليد منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وهكذا نشأ ما يشبه وادي السيليكون من أجل الوفاء بحاجات ملحة ظهرت. لكنه لم يكن ذلك مكانًا جديدًا للاسترخاء. فاحتياجات الناس تتغير، وأراد النظام الشيوعي أن يكون هو الآخر مَرِنًا. لكن هذه الكلمة لم تتردد كثيرًا من أجل أن تتحقق الاستجابة للواقع في تلك الفترة. حان العصر الذهبيّ للصناعات الثقيلة، والأهداف العظيمة. لكن لماذا لا يستطيع العامل غير المؤهل أن يتناول طعام الغذاء مع كبير المهندسين، أو طبيب الشركة، أو مع رئيس القطاع، ليس فقط في البوفيه المشترك، لكن على طاولة واحدة أسفل مكبرات الصوت التي تصدر منها أغاني حماسية، أو على الأقل أغاني شعبية؟ لما لا؟

كلمة وادي السيليكون تعني في لغة قبيلة الهنود الأمريكيين "هوكاما"، أي كثير من الآراء مزيد من المعرفة. لذلك كان على أهل مدينتنا "كراكوف"، والمدن التشيكية الجديدة: "دراشدياني"، و"منيسك"، و"خاركوف"، و"ديبريتشين" أن يجتمعوا على رأي واحد. عندها قد يظهر تِنّين ضخم كما نعرفه من الحكايات الخرافية التشيكية.

أصبحت المدن الجديدة آخر محاولة قبل الإفلاس الكبير. صارت تجربة تستجيب لمتطلبات العصر. انتقال المواطنين من أماكن غير مؤهلة للإنتاج،

Twitter: @ketab_n

ومن مناطق بها معدلات تلوث عالية، وضرورة توظيف جيل جديد من المهندسين المعماريين في أعمال لائقة، وأيضًا الأمنيات الغالية بعد الإنجازات المعمارية الجبارة في البلاد، وبعد البيئة المناسبة للتربية والنمو هل تحقق لإقليم "أُوسترافا – بوروبا" الوضع الاحتكاري، وهل تحقق ما يمكن اعتباره إعجازًا حديثًا؟

عندما انتظروا مولد المواطن الأخير رقم خمسة عشرة مليونًا في تشيكوسلوفاكيا في النصف الأول من عام خمسة وسبعين، ربما كانت شقيقتي "ميلادا " هي ذلك المواطن. ربما كانت بالفعل هي ذلك المواطن رغم أن شخصا آخر غيرها ظهر في التلفزيون. كانت "تنتيتكو" من مدينة "باردوبيتسا" هى ذلك المواطن. كانت تزن أقل من اثنين كيلوجرامًا. حصلت أمها على عربة أطفال ماركة "لايبرتا"، وبطاقة عضوية لمدة عام في مسبح "باردوبيتسا"، وحصلت الطفلة على خمسة كيلوجرامات من الحفاضات.

لم تحصل أمي على شيء، ولا أختي الرضيعة أيضًا، رغم أنها ولدت في نفس اليوم. لكنها ولدت في منطقة نائية عند سفح الجبل تسمى "لوتشا،" ولكي تصل إلى المدن الرئيسية قادمة من ذلك المكان السحيق ستكون ثمار الكرز في مدينة براج قد نضجت، وسقطت من على أشجارها.

لقد عشنا نجهل الكثير عن عالم تشيكوسلوفاكيا. حتى في مدينة "كراكوف" كان بعض المتغطرسين يسبون أهل الريف. كان لدينا في قرية "لوتشا" كلب يقف عند بيت صغير للكلاب، داسته إحدى السيارات قبل أيام من مغادرتنا البلدة. كانت النساء تنتف ريش الإوز وقتما تشاء. لكني لم أفعل، لا أنا ولا شقيقتي. غادرنا "لوتشا" قبل أن نصل إلى هذه

Twitter: @ketab_n

المرحلة. كانت شقيقتي قد بدأت بالكاد تمشي على قدميها، ولم يتجاوز عمري وقتها ثلاث سنوات.

لم أعرف ما الذي وضعوه فوق سرير شقيقتي في مستشفى القرية. لوحًا معدنيًا عليه عوارض بيضاء، ومُلصق عليه اسم "ميلادا كوماركوفا"، 3,25 كجم، 50 سم. من المؤكد أن تلك السيدات القبيحات لم تغنين لها أيّا من الأغاني الشعبية. لكنها لم تهاجم أحدًا منذ طفولتها. كانت تلك السيدات تنبحن في أذنها الصغير بكل ما هو سيئ. سحب كئيبة بثوها في رأس شقيقتي الصغير. هذا هو ما أعتقده الآن. ببساطة لم تجد من يأخذ بيدها. رقبة متعثرة في الحبل السريّ. ظلت دقيقة بعد ولادتها دون أن تلتقط أنفاسها. يداها وقدماها الصغيرتان تتحركان كأطراف خنفسه ملقاة على ظهرها. هكذا أتذكرها من خلال صورة علقت وسط ذكرياتي المزيّفة. كانت أصغر مني بأقل من عامين. لكنها سرعان ما كُبرت، واختفى فارق السن بيننا، وصار من الصعب التكهن به. ربما كان ذلك الحبل السريّ وما فعله برأسها هو السبب، أو تلك الدقيقة التي لم تتنفس فيها، وكانت في حاجة إليها لكي تصبح مواطنة حقيقية.

توقفت أمي عن مرافقة أبي إلى مقر اللجنة القومية أيام السبت بسبب بطنها المنتفخ، والمتاعب التي كان تسببها له. فتدبر الأمر بدونها لاحقًا. استقرّ بنا المقام في "كراكوف"، وبدأت الجوانب المضيئة تُشِعّ على تلك الباهتة، مثل زهور قبيحة فوق المفرش، تتجمل بكيس بلاستيكي، وضعت فيه لتسهل رعايتها، زهور العمر التي فسدت قبل أن تشرق شمسها.

Twitter: @ketab_n

شارك في إحدى لقاءات السبت مهندس معماري من مدينة "براج. "عرض على الحاضرين مشروع إنشاء مدرسة في "كراكوف"، ودار حضانة، ومسبح، ومتنزه، ومدرسة للفنون الشعبية، وكل الأشياء التي خططوا لها، وانتهى بها الأمر على غير ذلك، ربما على نحو مختلف عما خطط له ذلك الرفيق شخصيًا. قالوا إن الرفقاء أغروا مواطني "لوتشا" تحت التهديد بأن عليهم أن يفكروا في الأمر جيدًا، ويقرروا إن كانوا يرغبون في الوقوف حجر عثرة أمام الخطة العبقرية التي جاءت بها القيادة المركزية، وهم أناس صغار قادمون من قرية أسفل الجبل. لم يكن مطلوب منهم في الأساس أن يقرروا، بل أن يكفوا عن افتعال المشاكل، وأن يوافقوا بقوة على الخطة. بدئوا في حفر قواعد العمارات. هناك سيعيشون وانتهى الأمر. كثير منهم راح يتشنج حتى آخر لحظة. فلم يروا فيما يحدث بأنه سيكون جنة في الأرض، وأن عصفورًا في اليد خير من خمسة فوق الشجرة. كانت "لوتشا" هي العصفور المضمون.

لم يكن أبي ضمن مجموعة المتمردين التي عارضت المشروع في آخر لحظة. فكنا من أوائل الذين اختاروا المكان الذي سيعيشون فيه في "كراكوف". كانوا يتجولون بأصابعهم فوق خريطة مدينة المستقبل. لم أفعل مثلهم، وكذلك شقيقتي. كنا مازلنا صغارًا. لكن والدينا، وخصوصًا أبي، قررا نيابة عنا أين سنعيش. أراد أن يكون البيت قريبًا من دار الحضانة ومن المدرسة، فأعطونا شقة بالعمارة رقم ثمانية، شقة رقم اثنين، وكتبوا ذلك فوق الرسم الموجود على لوح الورق الذي علقوه في رواق اللجنة المركزية في "لوتشا" وكتب أبي بخط منمق عبارة تقول: خاص "بآل كوماريك"، كي يشعل الغيرة في نفوس المواطنين الذين رفضوا الخطة.

Twitter: @ketab_n

بدأ الرحيل بعد ذلك ببضعة أشهر. أخذت هياكل سيارات النقل تشق شوارع "لوتشا" واحدة تلو الأخرى، عليها لافتة تحمل اسم القطاع في الأمام وفي الخلف. علت سيارات النقل خزائن، وصناديق، ودواليب ممتلئة بالملابس، وأجهزة الراديو، والدراجات، وأطقم المائدة. إلى أن جاء المسئولون، فتركوا نصف تلك الأشياء في البيوت. كل شيء متوفر في "لوتشا" أخذ العارفون منهم يهمسون في أذن الناس، فاستمعوا لهم.

كانت الأوضاع مختلفة عما كانت في الخمسينات والستينات. فأخذ العم "ليبور" يسخر منّا بوقاحة أمام أعين سائقي عربات النقل الذين يأخذوننا إلى المستقبل، ويتكدسون في مجموعات على الطريق. انضم بعض الجيران إلى القافلة. لم يبقى في "لوتشا" سوى حفنة من الحاسدين الذين لم ينضموا إلينا، ليس عن ارتياب في المسألة نفسها، لكن عن كسل وخوف من كل ما هو جديد. فاشرأبت أعناقهم عند أعتاب بيوتهم، وأعجبتهم سخرية العم "ليبور" في الواقع أنهم لم ينفكوا يضحكون مما حدث. رحل سكان بعض المناطق في "لوتشا" التي كانت مجرد بيوت صغيرة بدون مكتب بريد أو مدرسة. لم يبق في المستعمرة سوى الكسالى، ومهاجر المستقبل؛ العم "ليبور" الذي كان دائمًا ضد النظام قلبًا وقالبًا، ودائمًا ما كان يتشاجر مع أبي ويسخر منه. رغم ذلك أخبروني أنني لوحت له بيدي بشدة وأنا أودعه عند الرحيل من "لوتشا"، وكأنني أقول له إن الفائز هو من سيضحك في النهاية...

حدث هذا أيضًا في "كراكوف". فقد سقطت "لوتشا"، ومن لم يرحل منها من تلقاء نفسه إلى المدن الجديدة، حصل على مسكن أسوأ من ذلك الذي

Twitter: @ketab_n

حصلنا عليه. سقطت "لوتشا" بالفعل. سقطت في حفر ظهرت جراء الانفجارات، وبأذرع الحفارات. سقطت تحت الأرض كما يحدث في الحكايات الخرافية. لم يبقى من القرية التي تقع أسفل الجبل سوى خطوط فوق الأرض، وبرك موحلة. كل أعوام الطفولة والصبا التي قضيتها في مدينة" كراكوف" أسمع هدير المعدات الثقيلة، وضجيج أناس قذرة، غرباء عن منطقتنا. كانوا يحملون من أسفل إلى أعلى المواد الغذائية التي تشتريها تشيكوسلوفاكيا مقابل عملة أجنبية. لم يكن في شقتنا التي اخترناها في "كراكوف" شقة رقم اثنين في العمارة رقم ثمانية سوى عيب واحد وحيد. كانت في الطابق الأرضي. شقق الطابق الأرضي ليست اختيارًا موقفًا بسبب المتلصصين في الشارع، واللصوص. لم ينتبه أبي إلى ذلك الأمر. عنّفته أمي من أول يوم أتينا فيه. وعدها أبي بأن يضع بنفسه شِباكًا على الشرفة، وكان هذا أمرًا سائدًا بين السكان وقتها. لكنه ظل يؤجل الأمر بسبب انشغاله الكبير في العمل منذ أول يوم وصلنا فيه إلى "كراكوف"، ولم يفي بما وعدها به يومًا. تراكم الصدأ على حصائر الشرفة يوما بعد يوم حتى صارت بلا جدوى. وتحولت إلى رمز لأشياء عديدة لم تكتمل في بيتنا.

بدأت المفاجآت بعدما نزلنا من سيارة النقل أمام العمارة، وحملنا كل أشياءنا إلى داخل الشقة. أولها أن "كراكوف" كانت واحدة من خمس مدن جديدة نشأت على أرض الجمهورية الاشتراكية، لكن أحدًا لم يسمح لنا بالاختيار. أيضًا لم تكن كل عمارات "كراكوف" قد اكتملت، لم يكن هناك مسبح، ولا أثر لصالة الألعاب الرياضية للشباب. كانت التدفئة أيضًا لا تعمل في دار الحضانة رغم انتهاء شهر أكتوبر، فكانت أمي تبكي من أجل شقيقتي، وطالبت بالعودة مرة أخرى إلى شقة "لوتشا" كان أبي يدافع

Twitter: @ketab_n

عن نفسه بأنه لم يكن يعلم بالأمر، فترد عليه أمي بأنه لم يكلف نفسه أصلًا بالسؤال، فيجيبها بأنه بالفعل لم يسأل عن أشياء كهذه، فترد أمي بأن هذه الأشياء هي نحن: نحن الذين يعيشون في منطقة تحت الإنشاء. أرافق "ميلادا" إلى ثلاجة يسمونها دار الحضانة، وشقيقتها إلى موقع تحت الإنشاء يسمونه مدرسة. بما كان يجيبها! كل كما قاله وقتها: لا أعرف. كنت أصنع أشكالًا من المكعبات البلاستيكية في الغرفة المجاورة، وكانت شقيقتي تجلس كالعادة تراقبني، ووالدي لا ينطق بكلمة واحدة. يقف بفم ممتلئ بمسامير لتثبيت الأرفف. وماذا أيضًا؟ هل هو المسئول الوحيد عن أن كل شيء يجب أن يكون على ما يرام؟ هل هو المسئول عما حدث في "لوتشا" يوم السبت في مقر اللجنة القومية، عندما اصطفت المقاعد على شكل دائرة وكأنهم في حصة الغناء في الحضانة، عندما انتشوا بحكايات حول ثقافة الأجهزة الكهربائية، وبكل ما ينتظرهم في "كراكوف"؟ لقد كممت أيدي الرفقاء أفواههم.

كان الأمر في "كراكوف" في النهاية مختلفًا، إلى درجة استحالة السؤال عن أشياء لم يروها حتى في أحلامهم. أقسم أن أمي نفسها لم تكن لتسأل.

لكنها كانت محقة. كانت شقتنا رقم اثنين في العمارة رقم ثمانية خاوية. في البداية ذهبت أمي إلى معرض أحد المصانع في "لوتشا" لتختار خِزانة لغرفة الاستقبال الجديدة من بين عرضين وحيدين هناك، ومطبخًا، ومقعدًا للمطبخ. التف حولها جمع من الجيران، وأخذوا يحسدونها على ما تفعله. كانوا ينهارون تمامًا عندما ترسل لهم بطاقات من "كراكوف". بطاقات عليها نافورة مياه، وممشى مطوق بأشجار "البتولا" وكأن الأمر لا يتعلق

Twitter: @ketab_n

بمدينة صناعية، بل بمنتجع صحي روسي لأمراض النساء. من البديهي أن أمي كانت ترسل تلك البطاقات وهي حزينة. كان أبي يُوقّع عليها وهو يتأوه من حجم العمل المتبقي لكي تصبح المدينة على هذا الحال.

بقي معنا خلال الأسابيع الأولى في شقتنا الجديدة كل أثاثنا القديم الذي أحضرناه معنا من "لوتشا" بالسيارة: أَسِرّة الأطفال الصغيرة القديمة، حشيه متهالكة ينام عليها والداي. لم تتسع السيارة لأكثر من ذلك. استمر تأثيث الشقة لمدة شهر. لكن ما أتذكره أن الشقة كانت مريحة للغاية. صحيح أنها كانت دون المستوى، فقد انتظرنا طويلًا كي يحضروا الأثاث الذي وعدونا به، فانفطرت مرارة أمي من الغيظ. ورضينا بأثاث قادم من بيت للمسنين قد ألغوه. أحضره الرفقاء للمتعجلين الغاضبين الثائرين في ثلاث شاحنات. كانت الستائر متهالكة، والأبواب مُتكسّرة، وجميع الخزائن تتأرجح، وتصدر أصواتًا مخيفة أثناء الليل. لم يكن في غرفتنا ما يُشير إلى أنها غرفة أطفال سوى أنها كانت صغيرة، لا تسعني مع شقيقتي. كانت عبارة عن دولاب وسريرين، أضيفت إليهما لاحقًا طاولة صغيرة لأداء الواجبات المنزلية التي كنا نقوم بها غالباً في المطبخ، أو ننقلها من زملاءنا قبل بداية الحصة مباشرة.

عندما أخبرني أبي عن المكان الذي أحضروا منه الأثاث لم يُعجبني أن أناسًا غريبة ومسنة استعملت الأثاث قبلنا، أكلَت عليه، ونامَت فوق أَسِرّته. غضبت أمي عندما علمت بما قاله والدي. صحيح، لم يكن هناك داعي لأن يخبرنا بالأمر. لكننا كنا اعتدنا على استخدام أشياء الغرباء. كنا نتوارث ملابس الأطفال بنظام دقيق متشعب ومتفق عليه ضمنًا. فكنا نحصل على

Twitter: @ketab_n

بعض الأشياء غالباً من عائلة "هروبش" التي تسكن فوقنا. كان لديهم ابنة اسمها "إيريكا" وصبي اسمه "توماش". كانا هم بدورهما يرثان عنا أشيائنا مع أسر أخرى في نفس العمارة. لكننا لم نكن نلبسها إلا في البيت، وكانت النساء يستعملنها في تنظيف أرضية الشقق كي لا تشتري خرقات للتنظيف.

كانت أمي تردد أن الحياة في "كراكوف" تشبه الحياة في "أوزباكستان"، وأن الناس هناك حاولت أن تعيش الحياة على الطريقة السوفيتية، لكنها فشلت. والحال لا يختلف كثيرًا في المدن الفاشلة المشابهة. شوارع يملأها التراب، ومُوحلة بعد كل هطول للأمطار. الناس تبدو رثة الثياب. كانت أمي تتأفف كثيرًا من منظر كهذا بصفتها تعمل في حياكة ملابس السيدات. من المؤكد أن أمي رأت صور "أوزباكستان" عند السيدة "فيدليتشكوفا" بعد أن استقر بنا الحال في "كراكوف"، وبدأت تُنْشِئ علاقات صداقة مع الجيران. فمَن غيرها قد يطلعها على صور كهذه. من المؤكد أنهم لم يطبعونها على ورق الحزب في مطابع الشيوعيين.

كان كل شيء في "كراكوف" رديئًا. الدرابزينات مُهلْهَلة، والمياه تتسرب إلى داخل العمارات، وإلى دار الحضانة التي كانت أمي تأخذ "ميلادا" إليها. في البداية كانت التدفئة، ثم الحمامات. حيث كانت الفضلات تسد الأنابيب الضيقة، والمراجيح مهشمة، وبقع داكنة مخيفة تتدلى على العمارات من أثر المياه، وأحجار الأرضيات أمام متجر بيت الخدمات تتأرجح. وفي مقدور أي شاب كبير بمساعدة أحدهم أن ينزعها من مكانها. هكذا كان الوضع، ورغم ذلك كان المكان لا يخلو من المميزات العديدة. كانت مدينة "كراكوف" مليئة بالشجيرات الملطخة بالطين، والخنايا النتنة التي كانت بمثابة أدغال برية

Twitter: @ketab_n

نلعب فيها. كانت المدينة تعج بالمآثر الأخرى مثل تلال التزلج، وحديقة حيوان بها دب روسي، وحمار بجواره غزال يقف في أحد المراعي. كانت الأُسَر تتزاحم هناك في يومي السبت والأحد. كانت الحديقة يومًا مكاننًا المفضل أنا وشقيقتي. كانت أختي تذهب لمشاهدة الحيوانات عند الأقفاص مباشرة، رغم أن ذلك كان ممنوعًا. كانت دائمًا تأخذ معها أطراف أرغفة الخبز القديم، وترمي إلى كل نوع من الحيوانات نصيبًا مماثلًا من الخبز من وراء الشِّباك. كانت تقف ف أحد جوانب الحديقة، تقطع الخبز بطريقة خرقاء، بسكين جيب أخذته من والدها، وتقسّمه على الحيوانات حسب أنواعها. لم يكن يعني لها أن الغزال أصغر بكثير من الدب الروسيّ. لم تكن شقيقتي تهتم كثيرًا بتعليمات الحديقة. حدث أن أحد الغزلان في حديقة "كراكوف" أصيب يومًا بانتفاخ في بطنه نتيجة الخبز الذي يلقيه إليه الزوار. وقتها فهمَت أن عليها أن تلتزم بتعليمات حديقة الحيوانات. فراحت تصرخ، وتوبخني لأني لم أخبرها أن الخبز يؤذيها. لكني أنا نفسي لم أعرف بهذا الأمر. لكنهم كتبوا على اللافتات أنه ممنوع تقديم الطعام للحيوانات، وأنا لا أقرأ اللافتات.

انتابها لفترة طويلة حالة من تأنيب الضمير بسبب ذلك الغزال. فربطت نفسها بإحدى الأربطة، وانتظرتني كي أحررها. فقد كانت تلعب معي على أنها حصاني، نجري هنا وهناك وفي أيدينا حبل يصلنا ببعضنا. كنت أحب كثيرًا ألعاب الهنود الأمريكيين. إنها ألعاب مليئة بالحقيقة والبطولة، لكن أختي لم تحبها كما أحببتها أنا. كنت أحفظ لعبة (قطع صغيرة من فيناتوا) عن ظهر قلب، وأردت أن نلعبها معًا. لكن شقيقتي رأت أنها لعبة غبية، رغم أنها كانت تحب أن نلعب (ريبانا)، وكنت أنا أفكّ قيودها. كانت تقوم بدور الثور الأمريكيّ الذي أطرحه أرضًا كي أقدمه لـ

Twitter: @ketab_n

"ريبانا"، لكنها كانت أحيانًا تتذمر ونحن عائدتان إلى البيت: اتركيني! لم تكن تسمح لي أن أمسكها من يدها.

كانت تظهر برك صغيرة عندما يسقط المطر في الصحراء، على أرض الشارع، في الفتحات التي ليس بها أحجار. وكان الحذاء البلاستيكي يمتلئ بالماء وأنا في طريقي إلى المدرسة. كان هناك من لا يهمه ذلك الأمر، ويذهب إلى المدرسة سيرًا فوق مجرى ماء المطر وهو يرتدي حذاءً رياضيًا. كان يفعل ذلك أولاد أرادوا أن يتفاخروا، أو كانوا مُهمِلين في الأساس. كانت أمي تنبهنا دائمًا أن نرتدي تلك الأحذية البلاستيكية وقت المطر. يبدو أن بعض أسر الأطفال لم يهتموا بهم، ولم ينبهوهم إلى أمر كهذا. حقيقة كانت هناك حالات غريبة. كان بعضهم يتردد على بيوت سوداء مدمرة في الحي الثاني بمدينة "كراكوف". وهي بيوت لم يكتمل بناؤها يومًا، وكان يقطنها الغجر. كان الظلام يسيطر على تلك البيوت طوال فترة الطفولة السعيدة التي عشناها. كان البعض يذهب إلى هناك في رحلات استكشافية رغم أن ذلك كان ممنوعًا، لكن بعض الأطفال فعل ذلك.

أما الكبار فكانوا يحدثون ضجيجًا مفعمًا بالنشاط وهم يعملون في البناء. يهمون بوجوه العمال العابسة، وأيديهم القاسية التي تحمل قوالب الطوب، وتمررها إلى شخص أخر يقف في طابور المناولة. ينظرون إلى سائقي الروافع الجالسين في الكبائن فوق أرض شوارع المستقبل. رجال يضعون خوذات واقية على رؤوسهم، ويجلسون فوق الألواح الإسمنتية الناعمة، ويتناولون شرائح الخبز مع السلاطة. بعدها بدقائق يواصلون العمل. كانوا منتشرين في كل مكان، وبأعداد كبيرة. مُقسّمين إلى

Twitter: @ketab_n

مجموعات، ولكل مجموعة قائد يظهر من وقت لآخر مع رجل ذى هيبة، يرتدي بذلة فاخرة. كان هؤلاء الكبار يأتون في سيارات سوداء، يدمدمون، ويحركون أيديهم في الهواء، ثم يأتي غيرهم ليتابع المشى الخرساني الذي ظهر على البطاقات البريدية منذ زمن، أو ليقص الشريط الأحمر عندما افتتحوا أول متجر في "كراكوف" يقدم خدمات للمواطنين. كان المتجر واحد امن الأشياء القليلة التي أكملوها. كان عازفو الموسيقى يقفون أمام المتجر، يعزفون الموسيقى، وأيضًا يوزعون النقانق على الكبار دون أي مقابل؛ يقدمون البالونات للأطفال، وغزل البنات الوردي. لكن الواقع كان مجرد فوضى، ولم ينجزوا أي شيء. ذلك ما أخبرني به أبي. حدثني أيضًا عن الهاتف الذي انتظروه طويلًا، ثم عَطُب في اليوم التالي. تساقط قرصه الذي تَطلُب منه الأرقام بعد بضعة مكالمات هاتفية وكأنه قرص مستعار لصقوه بمادة بيضاء لاصقة. أخبرتني أمي أيضًا عن الانتظار في طوابير لا تنتهي لشراء اللبن الذي كان رغم ذلك فاسدًا لأن مدة صلاحيته انتهت وهو في طريقه إلى "كراكوف". كان يوجد في المتجر كتاب للشكاوى والاقتراحات، معلق بحبل بجوار ماكينة طحن القهوة ماركة "ستاندرد"، لكنه كان بلا جدوى. فلو اشتكيت سيهجم أحدهم عليك، وتصبح في عداد المتذمرين.

كان أبي يعمل سباكًا، وغرق في العمل. كان مسئولًا مع فريقه عن بضعة عمارات. يكد في العمل من الصباح وحتى المساء. كانت مهمته كما شرحها لها الرفقاء في "لوتشا" هي الصيانة، المساعدة في أعمال التركيبات. كان فخورًا بعمله بشكل واضح، رغم أنه كان يرى أن ما تفعله الإدارة لا يتحلى بالمسئولية، حيث يأتي أحدهم، ثم يهز كتفيه على طريقة الرفقاء أو بيأس.

Twitter: @ketab_n

لقد اعترف هو نفسه بذلك. وسرعان ما انتشرت في "كراكوف" النكات عن المسئولين. لماذا لم ينفذوا الخطط في "كراكوف" كما فعلوا مع مترو الأنفاق في عاصمة تشيكوسلوفاكيا الذي سقطت في أنفاقه كنيسة كاملة بقبتها وبها أحد القساوسة، أو كما حدث مع الكلبة (لايكا) التي ماتت من العطش في سفينة الفضاء السوفيتية، وظلت تطير فوق الأرض لمده أسابيع طويلة. كانت "كراكوف" على نفس الحال المتردي. لكنها لم تكن كذلك لشخص غير متذمر، ومتواضع. كانت الخسائر في الأرواح صفرًا، والإقامة في الشقق لا بأس بها، والسرور يتدفق من وجوه الناس من وقت لآخر. فلو التقى أحدهم في الشارع صدفة بصديق قديم من أيام المدينة الجامعية يعانقه بحرارة، ويصافحه بقوة، ثم يحكي له بالطبع عن الآخرين، وأين يعيشون. كانت الهواتف غير موجودة في معظم العمارات. فلم يكن أحد يتعرف على غيره، فصارت الصداقات القديمة مهمه.

جاءت إلى هناك أسر كانت تقطن أماكن بعيدة، أبعد من قريتنا. كانوا في الغالب أناسًا قادمين من قرى صغيرة مثل قريتنا. جاوز عددها ثلاثين قرية في كل أنحاء تشيكوسلوفاكيا. كتبوا هذه المعلومات على لوحة المعلومات المركزية التي وضعتها الإدارة حتى تهدأ الفوضى، وتبدأ الإدارة الحكومية في العمل بطريقة منتظمة. كان من بينهم مواطنون لا يتحدثون لغتنا. كانوا عندما ينخرطون في الحديث يتخيل الإنسان نفسه وكأنه في بولندا، أو المجر، أو في أوكرانيا، وأحيانًا تشعر بأنك وسط الغجر. هؤلاء أيضًا أغروهم بالحضور إلى "كراكوف". اعتقدنا أنهم ربما أغروهم بالطعام المجاني. باختصار كانت غوغاء؛ خليط من البشر من مختلف الأقطار والبلاد، ومجموعة من الرفقاء الأجانب غالبيتهم من التشيك المعتدلين، وأقلية من

Twitter: @ketab_n

الغجر القذرين. كان على عمال العالم أن يتحدوا، ويجب أن يفعلوا. وهذا ما حدث في اجتماعات لجان الشركات والعمارات. جلسوا متجاورين كبشر عاديين يحتسون البيرة. كانت الحانة تعمل منذ أول يوم جئنا فيه إلى "كراكوف"، وامتلأت بالرجال منذ اليوم الأول.

لم تكن أصولهم مُهمّة، سواء جاءوا من وسط "بوهيميا"، أو من جنوب "مورافا"، أو من سلوفاكيا. كان المتذمرون الرافضون للنظام الاشتراكي يعرفون بعضهم من أول وهلة، فأتلفوا معًا. كانوا يدسون أنوفهم في أشياء لا تخصهم. يتدخلون في خصوصيات الجيران، وفي أمور مَن حولهم، وفي حياتنا. كانوا ينظرون إلينا بتعالٍ. استمر الأمر طويلًا قبل أن نعرف أنهم جاءوا إلى هنا لإعادة تأهيلنا، كان لكل منهم رئيس يعلوه مكانة. تمكنوا أيضًا من أداء عملهم بنجاح لبعض الوقت. كانت جماهير العمال تتقبلهم. وبدأت أعدادهم تتزايد تدريجيًا. كانت قبضة النظام الاشتراكي قد ضعفت، وبدلًا من تنفيذ العقوبة في مكان الجريمة فضلت جهات الأمن العام أن ترسل المتمردين إلينا، في "كراكوف"، أو "أوسترافا" الجديدة كما أطلق عليها وقتئذ ذلك الرفيق وهو يفتتح متجرًا للخدمات. صارت عندنا مصانع بدلًا من مقاطعات الفحم الأسود. مصانع لا تشبه تلك الموجودة في ألمانيا الشرقية. ليست موجودة في الواقع، لكنها ستظهر في المستقبل لو أردنا الدقة. ربما. غير أن الرفقاء كانوا خياليين، وأحيانًا لا يتحكمون فيما يقولونه. وبالطبع انتشرت حولهم النكات التي رددها الناس العاديون. انتشرت أيضًا النكات حول ثديي إحدى المعلمات في مدرستنا، رغم أنها كانت أفضل من غيرها، بل ربما كانت الأفضل في مدرستنا على الإطلاق.

Twitter: @ketab_n

كان كل شيء في "كراكوف" قائمًا على الأقوال. على الأقل هذا ما اعتقدت أنا. على الجُمَل التي تنبض مثل قلب قوي. شرير أحيانًا، لكنه قلب طيب يعرف ما هو الأصلح أكثر من غيره. المجد لكل شيء لن ننساه، وسينتصر الشعب، والقوة والعدل. كنت أصاب بالنشوة من تلك الأقوال. ومن لم يفعل يصبح مشكوكًا في أمره.

أتذكر لحظة الكشف عن قبر الجندي المجهول. جنديّ من البرونز يحمل بندقية، كنا تضع أيدينا على جزئها السفليّ. كثيرًا ما جاء أحد الأطفال ومد يده عليها. أسفل التمثال عبارة تقول: لن ننسى! كان التمثال عند بعض الطوائف الدينية بمثابة لوحة مقدسة. الاحترام والخشية. كنت أسأل نفسي كثيرًا وأنا أقف أمام ذلك البطل إن كنت فعلًا لن أنساه، فقد يحدث ذلك يومًا ما، ولو عرف أحدهم بأني نسيت لن ينتهي الأمر بدون عواقب. لكن ما هو الذي لن أنساه؟ خِفت أن أسألهم في البيت، وخشيت أن تسخر مني شقيقتي ومعها بالطبع "ستاندا فيدليتشكا".

كان "ستاندا" صبيًا صغيرًا يسكن في الطابق الذي فوقنا، وكان يذهب معنا إلى نفس المدرسة. يبدو من الوهلة الأولى مثل أي طفل، طفل صغير أشعث الشعر. حصل على استراحة طويلة في المدرسة الابتدائية لإقامة المسرح الذي كان يقوده. كان يقوم فيه بدور "يان هوس"*، ويعلق نفسه في خرطوم الدش في الحمام. حاولت المُدرِّسَة عبثًا أن توضح له أن "يان

* كاهن تشيكي، ومصلح ديني، وأستاذ جامعي (1369 – 1415) أُعْدِم حرقًا بسبب تمسكه بمبادئه وآراءه الدينية رغم اعتدالها - المترجم.

Twitter: @ketab_n

هوس" لم يفعل شيئًا كهذا. لكن "ستاندا" كان يعتبر نفسه منذ أن كان طفلًا شهيد الحرية، ولم يسمح لأحد أن يُثنيه عن قناعته تلك.

عاش طفولة سعيدة قبل أن يجبروا أبيه على المجيء إلى "كراكوف". فتشوا منزلهم، وبعثر أحدهم كل محتويات غرفته الصغيرة، بينما كان الرجال يتحدثون مع والده في حجرة الاستقبال بطريقة خشنة. حبس "ستاندا" نفسه مع والدته في غرفة التخزين وسط زجاجات تخليل الخيار. كانت تقف أمام بيتهم إحدى السيارات، يتناوب فيها رجال الأمن مراقبته أثناء الليل، وأحيانًا كانت تسير خلف أبيه وهو ذاهب إلى متجر (فتشيلا) للشراء أو إلى مكان عمله. كان "ستاندا" يتسبب في مشاكل لا تنتهي مع مُدَرِّسة الفصل، وأَعْتَقِد أنها كانت صبورة معه إلى أقصى درجة. يبدو أنه وجد لاحقًا عند "ميلادا" شيئًا يجمعهما بسبب مشاكل الطفولة المشتركة، رغم أن مشاكلنا مع النظام كانت قليلة جدًا مقارنة بهم. ربما كان الصدام الوحيد معه عندما أرادوا أن نعلق أعلامًا في نوافذ البيت، ولم نعثر عليها. كان علينا وقتها أن نذهب للمشاركة في إحدى المسيرات، ويبدو أن أبي وأمي لم يجدا نفعًا من المشاركة، فتحججوا بشيء ما. باستثناء ذلك كنا عائلة طبيعية تمامًا. لقد تأسست الجمهورية من أناس على شاكلتنا، وهو أمر لا يدعو للتفاخر. كنت أحرص أنا وميلادا على الذهاب بانتظام إلى منظمة الأطفال (يسكري)، وبعدها بقليل إلى مدرسة الطلائع. كنا منزعجين بالطبع من ذلك الأمر. من ترديد الأغاني، والذهاب حتى في وقت الحر ونحن نرتدي سترات زرقاء بأكمام طويلة تسبب العرق، وتصير رائحتها كريهة، ورائحة فستان المناسبات الأحمر الذي كنت أضعه في صندوق خاص كي يظل نظيفًا ومهندمًا.

Twitter: @ketab_n

أعتقد أن قليلًا من المشاكسة مطلوب أحيانًا. أتذكر رئيسة فريق الكشافة وهي تعلمنا الفرق بين "فطر الأمانيت الأخضر"، والفطر العادي، والفرق بين العنب الصالح للطعام، وعنب الثعلب الخبيث السام. كانت تحرص على ألا نصاب بمكروه في الغابة. أتذكر أيضًا الطيور وهي تصنع عششها. تعلمت كل ذلك أثناء الرحلات التعليمية خارج مدينة "كراكوف". رحلات إلى مستنقعات جففها الرفقاء. كانت تلك الرحلات تعجبني كثيرًا، وتعجب "ميلادا" أيضًا، رغم أنها أخبرت "ستاندا" بأنها لا تعجبها. كانت بالتأكيد تحاول السيطرة عليه كي تتميز عليه وعلى أصدقاءه. كنا نُعلق الأعلام الأمريكية بدلًا من السوفيتية، استدعوا أبي بسببها لسماع أقواله، وأبرحوه ضربًا بالهراوة. كنا أيضًا نصيح في المسيرة بشعارات ممنوعة، طردوا أمي من العمل بسببها، أو حطوا من درجتها الوظيفية، ويبدوا أن هذا ما حدث. فقد كانت أمي تؤدى عملًا تافهًا، ولم يجد أبي وظيفة تليق به.

كانت أمي تعمل في مركز تجميع النفايات، وكان أبي عامل سِباكة، لا يجمع بين وظيفتين. كانت المدرسة تضم تلامذة لأبناء صانعي الأحذية، وعاملات عائلات للأسرة، وعمال زجاج، ونجارين. كنا ذلك النوع من التلامذة التي تتبادل المحاة، والمثلثات، والمِنْقَلة فيما بينها لأن تلك الأدوات لم تكن متاحة لكل منا. قليل منا كان لديه المقدرة على الاشتراك في مدارس الفنون الشعبية. فلم تكن مجانية، على عكس مدارس الطلائع. أرادات "ميلادا" أن تتعلم البيانو، لكن أمي وجدت أنها مُكلّفة بلا طائل. كذلك رفضت أن تجد لها مُدرِّسة بيانو في المنزل. فصارت شقيقتي طفلة بائسة بدون الموسيقى الكلاسيكية. فمن ذا الذي سيعلمها المقطوعات الموسيقية

Twitter: @ketab_n

الدراسية في البيت! رغم أننا كنا نقضي وقتًا طويلًا أمام مدرسة الفنون الشعبية. نجلس هناك فوق الألواح الإسمنتية المائلة، ونتزلج فوقها في الشتاء. وعندما ينتهي تلامذة المدرسة من الرسم، أو من العزف على البيانو، أو من أحد العروض المسرحية، كانوا ينتشرون خارج المدرسة، وكان أطفال العمال في مجموعتنا يلوون أذرعهم في الظلام أمام المدرسة، أو يخطفون من أيديهم حقائب صغيرة ممتلئة بأدوات الرسم، ثم يلوون أذرعهم بعدها. ألوان مائية، وأقلام شمع، وفُرشَاه. يسرع أطفال المدرسة الفنية للبحث عنها وسط وحل الثلوج.

كنت أنا و"ميلادا" ضمن مجموعة أطفال العمال. لكن "ميلادا" كانت في كل مرة تقف بعيدًا عنا، في حالة عصبية شديدة، تتعجب مما يحدث. كانت في كل مرة تظهر الدهشة الشديدة، وكأنها لم تر ذلك مئات المرات من قبل. كانت تقف بلا حراك، ولم تنصرف. وفي المنزل توبخني على الأعمال العنيفة التي نفعلها. لكن هؤلاء التلاميذ من المدرسة الفنية لم يكونوا ضعافًا، بل كانوا غير ناضجين. كانت أقدامنا قوية مثل الأوتار من الجري، وكانت أيدينا مثل العصي. دربنا أنفسنا بأنفسنا. وكان بإمكانهم أن يفعلوا مثلنا لو أنهم لم يضطروا إلى الجلوس ساعات طويلة منكفئين على لوحات الرسم، أو النوتة الموسيقية، أو على الكتب. لم أكن يومًا واحدة من الأوائل الذين يبدؤون الضرب. أقصى ما كنت أفعله هو أن أدفع أحد هؤلاء الأطفال بجسمي، أو أدوس بقدمي على فرشات الرسم والأقلام بعد أن تسقط منهم. إنها فرشات وأقلام لأولاد مزعجين، لم أكن أتحدث معهم، ولا أختي كذلك. إنهم أطفال غريبة، وينتمون غالبًا لأسر متعجرفة. كنت أرى أنهم يستحقون ما نفعله بهم. كنا نعرف من المدرسة أن الأطفال

Twitter: @ketab_n

كلهم متساويين، وكنا نكرر هذا الكلام مثل الأغاني، لكن الإنسان في النهاية لا يفكر إلا بقلبه. كانت هذه هي طبيعة تلك الأيام. وكنا نحن، أبناء الطبقة العاملة متفاخرين قليلًا. فعندما كانوا يتحدثون عن الطبقة العاملة في المدارس على أنها قبضة الثورة الهادرة، وأصل التحولات التقدمية. كنا نحن أبناء هذه الطبقة. نحن. وليسوا هم.

وقف "ستاندا فيدليتشكا" وهو في سِنّ مبكر على الجانب الأخر من الحاجز. كان يلعب في أوقات الراحة، ويتقمص شخصية "يان هوس"، ويقرأ أثناء الحصة، أما نحن الباقون، أبناء الطبقة العاملة كنا نتشارك. كذلك فعل آباؤنا. عندما تعلق الأمر بمن مع من، وضد من، كانت الأسر تظهر في المشهد، والإنسان يثق في والديه. فكنا نثق فيما يقولانه، أو على الأقل نفكر فيه عندما يسقط في أيدينا. كنا نحافظ على هذا النظام ونحن أطفال بدون تردد. كذلك كانت تتصرف أمي وأبي. كنا نحترم آراءهم، مع من سنلعب، ومع من لن نلعب. لذلك لم نكن أنا وشقيقتي نلقي التحية على شقيقة "ستاندا"، وأمّن والدينا على ذلك الأمر. لقد كانت أسرة متعجرفة، ولا تستحق الاهتمام.

توقف "ستاندا" عن الحضور إلى المدرسة بضعة أيام بعدما سجنوا والده السيد "فيدليتشكا". وعندما ظهر في المدرسة مرة أخرى كان شاحبًا، ولم يرغب في مخاطبة أحد. وتوقف عن لعب دور "يان هوس" في أوقات الراحة. رغم أني أعتقد أن "يان هوس" لم يكن ليستسلم بهذه السهولة. أخبرته بذلك عندما بدأت أنزعج من الحالة التي وصل إليها. لكن "ستاندا" لم يتوقف.

Twitter: @ketab_n

لو أنه كان في فريقنا لاعتبرناه بطلًا. شنّ علينا حرب خنادق من على طاولته أثناء معظم الحصص الدراسية. كان يرمي المدرسات بكُرات من الورق، يطلقها من قلم في فمه، ويلقي عليهم القاذورات من على المسطرة. كان يفعل ذلك ببعض زملاءه، وأنا منهم. عندما كنا نصنع حلقة أثناء الاستراحة في دهليز المدرسة كان لا يسمح لأحد بأن يلمس يده.

ترك السجن في نفس السيد "فيدليتشكا" اثرًا كبيرًا. لم يتحدث مع أحد. كان الخروج والدخول إلى "كراكوف" في البداية بواسطة تصاريح إجبارية. وفي الوقت الذي سجنوا فيه السيد "فيدليتشكا" كانت الأوضاع قد تغيرت، واستطاع الناس السفر لزيارة أقاربهم في المدن الأخرى بكل حرية. لكن الوضع كان مختلفًا عندما يقوم أحدهم باستغلال تلك الزيارات في أنشطة معادية للدولة. وهذا ما كان "فيلدليتشكا" يفعله. كان يحمل معه الكتب الممنوعة. عثروا عليها في بيته مع مجموعة من المتذمرين، ربما كانوا يقرؤونها أو شيء من هذا القبيل. ويبدو أنهم أيضًا كانوا يصدرون مجلة غير دورية. كثيرًا ما كان "ستاندا" يأتي إلى المدرسة وهو مُتعب قبل أن يقبضوا على والده، حتى أنه كان يضع رأسه فوق الطاولة، ويستسلم للنوم. انتشرت في المدرسة شائعات تقول إن زوجة "فيدليتشكا"، السيدة "ياركا" و"ستاندا" كانوا ينسخون تلك المجلة يدويًا. ولو صح هذا الكلام، فهو في حالة "ستاندا" يعني إلحاق الأطفال في العمل، وهو أمر ممنوع في كل أنحاء العالم المتحضر كما هو معروف.

لم أحب "ستاندا" يومًا، لكن لو كان والداه أجبراه على نسخ تلك المجلة اللعينة فهو بالتأكيد يستحق السجن. كنت أرى جِراح "ستاندا" بنفسي. بقع

Twitter: @ketab_n

حمراء محتقنة بالدم على شكل دوائر. يهمهم بارتباك عندما تسأله المدرسة عن أي شيء أثناء الحصة الأولى. صحيح أن والديه كانا يدخنان دائمًا في البيت، حتى أن رائحة الدخان كانت تصل إلى نافذتنا، وأحيانًا كانت الرائحة تعبر الرواق وتدخل الشقة. وهذا أيضًا ممنوع. فهي بيئة غير صحية تستدعي تدخل الشئون الاجتماعية التي تأتي، وتأخذ الأطفال من آبائهم.

كانت موظفة الشئون الاجتماعية تأتي عندنا أيضًا، لكنها كانت دائمًا تجد الأمور على خير ما يرام.

لكنها لم تكن كذلك عند عائلة "فيدليتشكا". أعتقد أن السيدة "ياركا" قد ارتاحت كثيرًا بعدما دخل زوجها السجن. رأيتها في الممر عدة مرات وهي تبكي. كانت أيضًا تأتي لتتحدث مع أمي، لكنها لم تكرر مثل تلك الزيارات كثيرًا. لا أعتقد أنها كانت تعادي النظام بنفس درجة السيد "فيدليتشكا". ربما أنها كانت تستجيب لرغباته، وأنه كان يضغط عليها، ويكلفها ببعض الأمور. كان صوتهم يعلو أثناء تلك الزيارات والمؤامرات، فيزعجونني أنا وأختي أثناء النوم. كان أبي يذهب إليهم، ويصعد السلم، ويطرق على الباب لينبههم. كانت زوجة السيد "فيدليتشكا" بعد كل زيارة من تلك الزيارات تحمل في اليوم التالي أكياس قمامة مليئة بالزجاجات تعادل فضلات ثلاثة أيام، وتضعها في الحاوية. من المؤكد أن أمورهم المادية كانت جيدة. حَزِنّا كثيرًا على "ياركا" وعلى زوجها السجين، لكن تفسيرنا للأمر كان مختلفًا.

كان عندي تفسيري الخاص بعد أن تعاملت معها. أول مرة كانت حادثة القرنفل. حصلنا على بضعة عيدان من القرنفل أثناء حضور حلقة

Twitter: @ketab_n

دراسية بعد المدرسة. حصل عليها كل تلميذ ليقدمها لإحدى سيدات العمارة التي يسكن بها لإدخال السرور عليها بمناسبة اليوم العالمي للمرأة. وفي اليوم التالي كان على كل منا أن يتحدث عما فعله أثناء الحصة. كان وجه السيدة "ياركا فيدليتشكوفا" باردًا وصارمًا وهي تأخذ مني باقة الورد، إلى درجة لم أراها على أي سيدة أخرى في العمارة. بل على العكس، جيران غيرها كانوا كثيرًا ما يعطونني حبات الحلوى، ويثنون عليّ، لأن القصيدة التي كنت ألقيها عليهم بعدها كانت طويلة، وكنت أحفظها عن ظهر قلب قبلها بيوم.

في الواقع أن رد فعلها أزعجني وقتها. صفعت "ياركا" الباب بعد أن خرجت، وبالكاد أنهيت تلك القصيدة.

في اليوم التالي كان علينا أن نقدم تقريرًا للمدرسة عما فعلناه، وما قالت السيدات في العمارة عندما قدمنا لهم باقة زهور القرنفل. لم أتحدث عما فعلته "ياركا" رغم أنه كان أكثر ما يشغلني وقتها. غضبت من نفسي بعدها كثيرًا. لماذا لم أتحدث عما فعلته معي طالما أنه يهُمّني إلى هذا الحد؟ لكني بعدها بدأت أفكر في الطريقة التي جاء بها آل "فيدليتشكا" إلى "كراكوف"، أو بالأحرى في السبب الذي جاءوا من أجله إلى هنا. مثل هؤلاء الناس لم يأتوا طواعية لبناء مدينة اشتراكية. رحت أتخيل السيد "فيدليتشكا" مع مجموعة من الهنود حليقي الرأس وهم يُغِيرون على هنود آخرين من قبيلتي، قبيلة "هوكاما" التي تحمل لافتة عليها عبارة: "مزيد من الآراء كثير من المعرفة". أتخيل أعضاء جماعته الهنود وهم

Twitter: @ketab_n

يهاجمون قرية نائمة أثناء الليل، ويطعنون كل هندي في قبيلتي بسكين في ظهره في هدوء، وبلا رحمة.

طردوا أبي من وظيفته بعد اعتقال السيد "فيدليتشكا" بقليل. بعدها ببضعة أيام. لم يتوقف يومًا عن الحديث عن الأيام الجميلة، عن فترة استمرت لبضعة أشهر بعد قدومنا إلى "كراكوف"، بل ربما استمرت لبضعة سنوات.

كانت الشركة التي طُرِد منه والدي وأحبها كثيرًا واحدة من الشركات التي أطلقوا عليها بعد الثورة المضادة اسم "مولوخ"*. كانت عبارة عن مبنى ضخم، به قاعات متراصة، وعشرات الغرف والمخازن. أعتقد أنها كانت بالمئات. كانت أول مبنى ظهر في كراكوف، وبالتأكيد أكبر مبنى وقتها. فكان أبي سعيدًا عندما حصل على وظيفة فيها. كانت الفترة اللاحقة لوصولنا إلى "كراكوف" من أصعب الأوقات التي مرت بها أمي في حياتها. انهارت عدة مرات في الأسبوع، وأرادت العودة. لكن لم يكن هناك مكان لتعود إليه. ولن يسمح لنا الرفقاء بالعودة على أي حال. كانت بالنسبة لأبي فترة ذهبية. ليس لأن أمي شعرت أنها بحاجة إليه، ولم تشعر بذلك لاحقًا، لكن لأننا كنا من أوائل من جاءوا إلى المدينة، ولم تصل إلى الشركة كل الكوادر بعد، فكانت مكانة أبي بالشركة وقتها مرموقة للغاية. كانت أمي مُعجبة بالأمر، وكانت تستجيب لكل كلمة يقولها أبي لأنه كان الوحيد بيننا الذي يفهم ما يحدث في "كراكوف"، الوحيد الذي له علاقات، وحتى مرؤوسين. وكان لديه سلطات في إدخال أية تحسينات على

---

* إله كنعاني قديم – المترجم.

Twitter: @ketab_n

العمل. كان يرسل الشباب للعمل في مباني مختلفة لم تكتمل بعد، ويقرر في طريقة العمل. كان أبي يقول إنها شركة قريبة من شركات الاستثمار الحر بعد أن يتغيّر النظام، وأراد أن يتفاخر بخبراته. لكن الأمر لم يستمر طويلًا. فبمجرد أن أتى مزيد من الرؤساء والقياديين انتهى دوره، مع بعض كلمات الثناء. خبط على الكتف، وميدالية لم نراها يومًا. أرسلوه إلى العمل الميداني، وتولى القيادة شخص آخر. كان أيضًا أصغرهم سنًا، فلم يتمكن من الترقّي السريع، ولم يكن لينجح لو فعل. كان العمل قائم على الخدمة العامة وليس لأغراض شخصية، ولم يكن أبي قد أنهى المدرسة الإعدادية، فليس لديه متطلبات القيادة. هكذا فسروا له الأمر، لكن أمي كانت تشك بأن في الأمر شيء آخر، لكن أبي لم يعلق من هول ما حدث. نقلوه من "مولوخ"، وأرسلوه إلى المقصورة، وهو اسم أطلقوه على مكان صغير يخص السيد "شميد"، بيت صغير يبعد عن عمارتنا حوالي عشر دقائق سيرًا على الأقدام. كانوا يطلون عليه اسم المقصورة لأنه لم يكن يتسع لأكثر من ستة أشخاص يجلسون متجاورين على مقاعد متداعية، ومعهم زجاجات البيرة، وطفايات السجائر، ولا مكان لِعدّة الشُّغل.

عندما طردوا أبي من "مولوخ"، أو لِنَقُل غيّروا له مكان العمل بحجة نقص العمالة في مقصورة السيد "شميد" لم تكن الأوضاع في الشركة كما كانت من قبل. لكن رغم ذلك أعتقد أن موضوع نقله من الشركة أزعجه كثيرًا. ولو كان لديه وقتها مبادئ لاعتبرته خنزيرًا حقيرًا. يؤسفني أن أقول ذلك. حزِنت أمي أيضًا بعد نقله، وألقت الحادثة بظلالها على الأسرة بالكامل. كانت ظلال مصباح بارد قادم من دهليز تشقق طلاءه، وقاده إلى مكتب رئيسه الذي أبلغه بالأمر. لم تتأثر شقيقتي بما حدث. كانت

Twitter: @ketab_n

تتفاخر أمام "ستاندا" بأن النظام الحاكم ظلم أبي كما فعل مع والده، وصرنا متساويين فوق سفينة الاضطهاد. من المؤكد أنها قالت له شيئًا مشابها لأني رأيتها بعدما حدث تتحدث مع "ستاندا" لأول مرة، وهو الذي لم يجهد نفسه في الحديث مع أي شخص.

عندما ذهبت مع أبي إلى المقصورة أول مرة كان رائحة الطلاء الحديثة مازالت تملأ المكان. ومثل أي مكان آخر في كراكوف، تميمة كل شيء جديد، في البداية يبدو وكأنه كواليس بالية لأحد أفلام الغرب الأمريكي.

كان أبي يجلس في المقصورة باستمرار طالما لم يرسله السيد "شميد" إلى مكان ما. لم يكن لديهم ما يفعلونه وقت هطول المطر، فيجلس في المقصورة خمسة عمال ومعهم السيد "شميد". كانت أكتافهم تلامس الحوائط، وأقدامهم تتلاصق. كنا نشعر برائحة السجائر عندما يعود أبي في المساء، رغم أنه لم يكن يدخن. تعلم هناك أيضًا كل ألعاب الورق. لم يتحدث أحد في البيت عن عمل أبي. كان هذا في الماضي عندما كان يحكي لأمي عما فعله في أحد المراحيض، وماذا وضع هنا. وكل ذلك كان قبل أن نُولَد أنا وشقيقتي. لكنه لم يتحدث على أيامنا في أشياء مماثلة تعجبني. كان الوحيد في أسرتنا الذي يعرف كل شبر في "كراكوف"، وحتى الجانب الأسود للمدينة، الحي الثاني الذي يعج بالغجر. يعرف كل شبكة الصرف بالمدينة. يعرف خط سير قنوات الصرف من أي فتحة في الشارع. عندما كانت المياه تتسرب فوق الرصيف كان يعرف على الفور، حسب درجة حرارتها وقوة التيار أو مستوى الضغط ماذا حدث، وأين حدث، فيذهب على الفور لإبلاغ الجهات المختصة. كان يعرف شبكة المواسير تحت الأرض، وأيضًا تلك الشبكة التي تنتشر في

Twitter: @ketab_n

سراديب البيوت، وتصعد إلى الشقق وكأنها خراطيم فيلة مختبئة هناك. أكاد اسمعها من حجرتي الصغيرة عندما أنصت إليها بين الحوائط. هدير، وفوران، وقرقرة وكأنني أسكن في بطن الحوت.

سألت أبي ذات مرة: إلى أين تذهب كل فضلات المرحاض. أخبرني أنها تصب في مستنقعات قريبة من "كراكوف"، في مكان كنت أذهب فيه مع الطلائع في رحلات تعليمية، وأن مدينتنا تستفيد منها بشكل أساسي. من المستنقعات التي يجففها الرفقاء تمامًا. لكنهم في الحقيقة لم يجففونها كلها. لذلك انتشرت أسراب البعوض في الشوارع في ليالي الصيف، وارتفعت أصواتها عالية كلما كان الجو صحوًا. طنطنة وكأن قطارًا طويلًا يقف عن بعد، ويرفض أن يغادر المدينة. قال أبي إنها ماكينات صرف المياه تحافظ على المدينة، ماكينات تجفيف ضخمة تخدم ثلثي سكان "كراكوف" على الأقل. سألت زملائي في المدرسة عمن يعمل أبوه في هناك. لم يعرف أيهم عما أتحدث. وعندما أخبرت أبي بالأمر ارتبك، وقال إني مازالت صغيرة على هذه الأشياء رغم أن عمري وقتها كان ثلاثة عشر عامًا. كنت عندما ألقي فوطة صحية مُستعملة في مرحاض المدرسة أعرف جيدًا أن أبي سيغضب كثيرًا لو عرف، على الرغم من أن إغضابه لم يكن سهلًا. كان أبي يجلس في غرفة الاستقبال ساكنًا مثل الصخرة، وكنت أضطر أنا وشقيقتي إلى أن نصرخ في أذنه أحيانًا لمدة نصف ساعة حتى يسمعنا. يبدوا أن شقيقتي كانت لها طريقة في الصراخ أفضل مني. فلم ينهرها يومًا لأنها بدأت تتسكع خارج البيت. رأى "ميلادا" في ظلام "كراكوف" عدة مرات وهو عائد من الحانة، وهي عائدة من عند أصدقاءها. يبدو أنه كان مقتنعًا بأن هذه هي طبيعة مرحلة الطفولة. ربما. لم يفكر يومًا ما في عواقب شيء كهذا.

Twitter: @ketab_n

ماذا كانت تفعل أمي في الوقت الذي كان أبي يُصلِح فيه مواسير المياه في كل أنحاء المدينة؟ كثير من زملائي في المدرسة كانوا يعرفون. كانوا يزورونها في مكان عملها عندما يذهبون إلى المُجمّع يحملون الأوراق القديمة. كان ذلك نشاط مهم، وكان التلاميذ يحصلون على درجات مقابل ذلك النشاط. كانت أمي تأخذ منهم طرود الورق، وتضعها على ميزان ضخم به وحدة وزن مستديرة، وكانوا يحصلون منها على شهادة مختومة يسلمونها للمُدَرّسَة. كانوا كثيرا ما يبلغونني أنا وشقيقتي تحيات أمي لنا. ربما كانوا بذلك يأملون في أن تضيف أمي إلى شهادتهم نصف كيلوا آخر من الورق على سبيل المجاملة. لكن أمي كانت حازمة للغاية في عملها. لم تكن مجرد سيدة تتأثر برؤية الأطفال الصغار. ربما لهذا السبب اختارها السيد "هونيات"، الرفيق الذي كان يدير محطة تجميع الورق، ولم يظهر هناك يومًا. كان يضع عوضًا عن نفسه لافتة تقول: سأعود على الفور. كانت أمي تدير كل شيء في المحطة معظم الوقت ومعها السيد "ميلان شرامِك". لو التقيت به اليوم ورأيته كما كان وقتها، خارج البيت في الظلام أو منتزه خالي من المارة بالتأكيد سأصرخ كما كنت أفعل مع شقيقتي وقتها. كنا في طريقنا إلى رؤية أمي، ورأينا رأس كبير أشعث تنظر إلينا من خلف أسلاك قديمة، وخرقات مُجعدة في فناء أمام محطة التجميع. يبدو أنه ارتعب مثلنا تمامًا. كان وقتها موظفًا جديدًا، وكانت تلك أول مرة نذهب فيها إلى هناك. الفارق بيننا أنه كان موظفًا، ونحن فتاتان عابثتان. بدلًا من أن نضغط على الجرس فتحنا بوابة الفناء رغم وجود لافتة تقول: ممنوع الدخول لغير الأشخاص المصرح لهم، وبجوارها لافتة أخرى تقول: اضغط على الجرس! أخذ يعبث في ذقنه للحظات، ثم أمسك بيد كل واحدة

Twitter: @ketab_n

منا بكفين كبيرتين ناعمتين، وسحبنا من ياقتنا نحو أمنا. ضحكت أمي عندما رأتنا في البداية، وسرعان ما رسمت الجدية على وجهها، وشكرته على يقظته. كان السيد "شرامك" من المتذمرين، وكانت أمي عضو لجنة. فكانت حريصة في التعامل معه، وعليها أن تترك في نفسه أثرًا طيبًا.

لا أعرف سبب دهشتي عندما فهمت الأمر. ربما لأنها سيدة، وهو رجل. ورغم أنهم كانوا يحتفلون باليوم العالمي للمرأة كثيرًا، ويتلقون باقات الأزهار، إلا أنه كان من النادر أن تدير الرجالَ امرأة. وكانت أمي مديرته بشكل لا جدال فيه. كان يحمل في يده كتيبًا وهو خافض الطرف إلى درجة أزعجتني. لكن ذلك المشهد انطبع في ذاكرتي إلى الأبد. مازالت حتى اليوم أتذكر كل الأشياء المبعثرة في الفناء. أتذكر أكوام كبيرة من طبعات مجلة (أسرتنا)، ملقاة على الأرض، ومربوطة بحبل أصفر، وفوق الميزان صورة الرئيس "هوزاك". غير أن صورته كانت في كل مكان في "كراكوف" بصورة لا تخطئها العين. أتذكر أيضًا ضحكات أمي بصوتها الأجش في تلك الظهيرة. بدت لي بفضل تلك الضحكة في سِنّ أكبر بكثير مما كانت عليه في الواقع. كانت تلك هي طبيعة صوتها، وكان الرجال يعجبون به. لا أعرف إن كان السيد "شرامك" معجبًا به هو الآخر. لكنه بالتأكيد كان سعيدًا بأن لدية وظيفة لا يبذل فيها جهدًا، ويمكنه أن يجلس في أحد الأركان في الخلف بجوار خردة الحديد، ويقرأ كتابًا في ضوء المصباح.

عندما كان السيد "هونيات" يسأل أمي عنه، وكنت أحضر مثل هذه المواقف كثيرًا، كانت تتحدث عن السيد "شرامك" بطريقة إيجابية للغاية،

Twitter: @ketab_n

رغم أن أية انتقادات قد توجهها له قد تكون في صالحها كدليل على يقظتها في العمل، وكانت أمور كهذه تُؤخذ في الاعتبار في ذلك الوقت.

كان الكشف عن العناصر المندسة، ومناهضي النظام الاشتراكي من واجبات كل مواطن شريف، بغض النظر عن سِنّه ووظيفته. حتى أبي تلقّى لفت نظر من رئيسه السيد "شميد" بسبب سقطاته الأيدلوجية. كان محظوظًا أن الأمر لم يتعدى لفت النظر. عمل لبضعة أسابيع مع زميل له في تركيب شبكة مياه في العمارة رقم اثنين وعشرين. لم يكتشفوا كل تلك الفترة أن زميله هذا كان من المتذمرين. ثارت ثائرة أبي ذات مرة عندما اختفى السيفون، وجهاز الراديو، وطاقم العِدّة في الشقة التي كانوا يعملون بها. كانت مسؤوليتهم عنها مشتركة. فهشّم أبي وجه ذلك المتذمر، رغم أنه لم يكن أقوى منه، بل كان ضعيف البنية شأن كل عائلة "كوماريك". انتظر أبي ذلك البلطجي أمام الحانة. كان القميص الذي يرتديه عندما عاد المنزل ملوثًا بالدماء في منطقة البطن، فقام أبي بفركه بيده بكل رضا.

كانت أمي تقول لولا عملها في مركز تجميع الفضلات لظهرنا بين الناس بملابس كبار الحزبيين، ولما ارتدينا السراويل والأحذية التي ورثناها عن "توماش" و"ايريكا".

كان كبار أعضاء الحزب يشترون الأشياء لأولادهم بشكل غير شرعيّ، بمعنى أنهم كانوا يشترونها مُسْتَغِلّين وظائفهم. هؤلاء الأطفال كانوا التلاميذ الذين كنا ننتظرهم أمام مدرسة الفنون الشعبية كي نبعثر حقائبهم على الأرض، أو ندس لهم الثلج خلف ياقات قمصانهم.

Twitter: @ketab_n

كانت تبدد شعورها بالظلم في البحث عن تصاميم لنا. كانت تعرف بعض زوجات كبار الموظفين. تدور حولهم، وتصمم الموديل، أو ترسمه بناء على سترة صغيرة يرتديها أحد الأطفال الذين كنت ألعب معهم في ملعب الحي. سمعناهم ذات مرة يقولون إن بنات عائلة "كوماريك" يرتدون ملابس فخمة. لكن أمي كانت تقف مع الآخرين في كل الطوابير لتشتري لحمًا، أو أربطة مطاطية للملابس الرياضية، أو لشراء أحذية الموسم. لم يكن لدينا أي شيء غير شرعيّ في البيت، ولا نقود أكثر من الآخرين. كانت أمي ببساطة سيدة ماهرة. لذلك كنت أبدوا أنا وشقيقتي بمظهر جيد طالما وجدت أمي وقتًا ورغبة في حياكة شيئًا لكلينا. يخبو كل ذلك لاحقًا بعد غسيله بمسحوق الغسيل (تيكس). كانت النساء تتداول رواية أن الرفقاء يخلطون المسحوق بالدقيق كي يوفروا، فكانت الملابس تبهت بعد غسيلها مرة أو مرتين، بما فيها الملابس الحمراء الزاهية.

كانت أمي تبدأ في الحياكة أو تكمل ما بدأته قبل قدوم الشتاء. تصنع أكمام لسترات بدأتها في العام السابق، وصارت صغيرة علينا. أعتقد أنها كانت تصنع الملابس للجيران بعد أن تتأكد أن أحد لن يُشهّر بها، أو بجاراتها، ويقول أنهمن تدفعن لها على أنهما تعمل في الحياكة مثل سيدة برجوازية. كنا نرتدي قبعات قطنية ثقيلة ذات لون واحد، ودلايات بنية. كنا الوحيدين الذين يلبسون تلك القبعات. ويخطئ من يعتقد أن الدفء الذي كنا نشعر به أسفل تلك القبعات كنا نشعر به في البيت أيضًا. كانت مدفئة الشقة باردة تمامًا. كنا في كل مرة نعود فيها إلى البيت بملابس مبللة من المطر نتسلق الشرفة خوفًا من العقاب، ثم نتوجه فورًا إلى غرفتنا قبل أن يرانا أحد. لا أعرف إن كان هذا جائزًا في بيت يسوده الحب. لكن

Twitter: @ketab_n

الأطفال تخشى الضرب. وكان الضرب وقتها أمرًا شائعًا في أُسَر أخرى. كان هناك ضربًا لأسباب سياسية أيضًا.

أتذكر عندما قام "فيدليتشكا" بتوزيع خطاب معادي للنظام. حدث ذلك عدة مرات. كان يكتبه في وقت الاستراحة. وعلى غير العادة وقعت أنا وشقيقتي على ذلك الخطاب. السبب الذي دعاني للتوقيع هو مدرسة اللغة التشيكية التي كانت تزعجني. كنا نوزعه في حصتها. لم يكن من الجائز أن أقف في الفصل، وأنتقد المُدرّسة. لذلك وقعت عليه. لكنه كان مجرد خطاب نقدي للأوضاع الاجتماعية التي عانينا منها، وكان علينا أن نتجرّعها. وفي اليوم التالي تلقينا ضربات مؤلمة من والدي بعصا الطبخ.

بدأ الحس السياسي ينضج عندي مبكرًا بشكل عفويّ. بدأ الأمر برسم صورة الشفق والدبابات، صورة "لينين" وهو مُحنّط، وأنا ما زلت في روضة الأطفال. مع الوقت تبلورت الفوضى في عقلي كطفلة، وتشكلت منها آراء حول ما يحدث في العالم. أراء إيجابية. فعندما كانوا يقولون كلمة سلام، وكان عددنا حوالي ستة أو سبعة، كنا نتصورها جميعًا بنفس المفهوم. حمامة، وأطفال يلوّحون، وزهرة الليلك، وإجازة من المدرسة، وزي أطفال الطليعة، والاتحاد السوفيتي. كلها تسبح في سحابة ضبابية مُغلّفة بالقداسة. تمامًا مثل ياقة قميص تطوق الرقبة بإحكام، وممنوع أن أحررها نظرًا للحظة. لأن اللحظة تستحق أن نتحمل ونعاني من أجلها. ورغم ذلك لم يكن الأمر مقبولًا، بل مملًا. كان بعض البالغين يتبرّم مما يحدث، ورغم ذلك يقولون إن كل ما يحدث من أجل السلام، ومن أجل خير البشرية. ابتسامات من أناس لا نعرفهم، وعليّ أن أمد له يدي طفلة في فريق الطلائع، وأحيانًا أحمل فيها باقة

Twitter: @ketab_n

من زهور القرنفل، على اعتبار أني طفلة نجيبة. كنت أفعل ذلك بنفور كبير. ثم تحل لحظة أعياد الميلاد المبكرة. فذلك الرجل الغريب الذي كان رفيقًا ذو مكانة رفيعة يتحول فجأة إلى صديق لبضعة لحظات. فلم يعد ذلك السلام غريبًا وقتها، ولا بعيدًا مثل غناء قادم من مكبّرات الصوت. يبدو جميلًا، لكنه مصطنعًا. فشخصية (جريدا) من فيلم أميرة الثلج تشعر في قلبها الطيب ببعض الحزن الذي يمنعها من الابتسامة.

الأمر بسيط بالنسبة للأطفال. أتذكر عندما كنت في المدرسة في مدينة "كراكوف" جاءت الأم، زعيمة العمل الاشتراكي لزيارتنا، يرافقها جنرال حقيقي مُسِنّ. يضع النياشين على صدره. في البداية سخر منه بعض الطلبة، في مقدمتهم "فيدليتشكا"، فاهتزّ صوته. فعاقبتهم المدرسة، ولم ينبث أحدهم بكلمة واحدة بعدها. قالوا إن ذلك الرفيق قد صار بطلًا بعدما أنقذ طفلة صغيرة في مثل عمرنا، بتروا لها ساقها بسبب لَغم ألماني. أرانا ندبة في قدمه. ضم سرواله، فرأينا قدمًا رفيعًا أصابني بفزع كبير.

كان كثير من هؤلاء الأبطال يزور مدرستنا. كانت من المفترض أن يكون نظامنا التعليمي مثاليًا شأن مدينتنا. كان لكل ما يطلقون عليه لَيّ الذراع طريقة ومنهج. كانت المدرسات تحضرن دورات التأهيل بصورة منتظمة. وبفضلهن صارت عندنا منذ الصغر معرفة بالعالم، بالصراع الثوريّ الذي صار أبديًا مثل الاتحاد السوفيتي نفسه. كان الصراع الثوريّ يُصوّر على شكل قبضة مُحكَمة كبيرة لتمثال من البرونز في ميدان العمل، وقبضات منتصبة في الهواء لعمال متجمهرين، يواجهون أصحاب عمل أشرار على غلاف كتاب التاريخ، ومئات من الأعلام السوفيتية الحمراء التي

Twitter: @ketab_n

ترفرف، ولافتة مكتوب عليها: يا عمال العالم اتحدوا! في الصفحات الأولى لجريدة "رودا برافو"، وهياج قوي، وحالة من الغضب العارم قادرة على أن تحرك توربين بخاري.

كانت تلك الحشود التي يتحدثون فيها عن الصراع الثوري مملة مثل غيرها من المؤتمرات. كان يحزنني كثيرًا التناقض بين الشعارات البراقة والملل. فالإثارة كانت تعجبني، وهي من طبيعة الشباب، لكني لاحظت أكثر من مرة أنه عندما تبدأ خُطَب الرفقاء تسقط رأسي ومعها الكتاب خلف الطاولة. كانت أمي وسط الخطبة تغير فجأة محطة الراديو رغم أن عليها أن تستمع إلى الخطاب بالكامل حتى تفهم فحواه. لكن ذلك التناقض كان موجودًا. لكننا كنا نفهم بعضًا منه أنا وشقيقتي رغم صِغَر سننا.

كانت "ميلادا" تفهم بقدر سنها. فعندما سألتها ذات مرة وهي الصف الثاني إن كانت تعرف شكل قيصر "روسيا"، كانت تسحب صورة الجد (مراز) وتقول بأن لونه أحمر لأنه صار شيوعيًا بعد أن كان شخصًا شِريرًا. كنت أن أعرف أنه مجرد كلام فارغ. أحيانًا كانت الأمور تختلط علينا تمامًا، ويصعب فهمها، وإيجاد نظامًا لها في عقولنا. لم يساعدنا أحد في فهمها، لا في المدرسة ولافي البيت. كانت الحقائق تتدفق علينا من كل حدب وصوب، إضافة إلى الحياة اليومية في "كراكوف" التي ينقصها الكثير لتكون حياة نموذجية. فأسقط في أيدينا. تناقض بين الأفعال والأقوال مازال ماثلًا أمامي حتى الآن بفضل النظام الذي كان سائدًا وأنا طفلة. كانوا دائمًا يجدون تفسيرًا لما هو قائم. فالقصور ما هو إلا مسألة وقت لأننا نتجه نحو مجتمع غير طبقيّ، وما يحدث هو مخاض عسير،

Twitter: @ketab_n

لذلك السبب كانت هناك طوابير للحصول على البضائع، لذلك السبب كانت المباني الجديدة في "كراكوف" مُهدمة. ببساطة كانوا يجدون تفسيرًا لكل شيء. لكني لم أفهم لماذا كانت أمي ترفع عينيها نحو السقف بينما كان الرفيق "هوزاك" يتحدث في التلفزيون، رغم أنها كانت ترأس السيد "شرامك"، وتعرف أنه قد مزّق صورة "هوزاك"، وأنه من المتذمرين، ويجب أن تنتبه جيدًا كي لا يقوم بأعمال تجسس، أو أي عمل تخريبيّ. أردت أن أُنبّه إلى أمي في تلك اللحظات إلى ما تفعله، لكني لم أفعل. ظننت أن كلامي لن يغير شيئًا في الأمر. وبدلًا من أن تنتبه إلى الخطأ الذي ترتكبه كانت ستوبخني، وكان ذلك أكثر ما يزعجني في الأمر. لماذا؟ لا أعرف.

كانت شقيقتي تسبني بأفظع الشتائم عندما أقول لها إن والدتنا أحيانًا تتصرف بطريقة مغايرة قليلًا للفكر الشيوعي، وتضربني بقبعة فريق الطلائع. لا أدري، ربما كانت تعتقد أن أفراد الأسرة ليس عليهم أن يهتموا بما يفعله بعضهم. ربما لأنها لم تنشأ في نفس الظروف التي نشأت فيها أنا، بل ترعرعت في عصر الديمقراطية الفردية التي تبدو جميلة، لكن طعمها سيئ مثل حبة تفاح بلاستيكية في واجهة عرض متجر الفاكهة الخضروات. في عصر صارت فيه روح التضامن مدعاة للسخرية والتطاول من قبل العازفين المنفردين في النظام الرأسمالي اللاهث. لم تكن أي منا تفهم الأخرى جيدًا، رغم أن كل منا نشأ في نفس الأسرة، وصرنا لاحقًا مثل شجيرة، هبّت عليها كتلة ثلجية، فحملت كل منا في اتجاه مغاير. عجزت تمامًا عن إيجاد لغة مشتركة مع "ميلادا" عندما قاربَت الرابعة عشر، وكنت تقريبًا في الخامسة عشر من عمري. لم يكن ذلك ناتجًا عن حادثة واحدة، بل عن تيار ماء بارد يتدفق بهدوء. كان كل ذلك يحدث بدون كلمات مباشرة. عدت ذات يوم إلى

Twitter: @ketab_n

البيت في شهر يناير وأنا ابكي لأن "ميلادا" لم ترغب في أن تذهب معي. كادت الدموع تتجمد فوق وجهي وسط الهواء البارد، وظلت بشرتي خشنة لفترة طويلة. كان لدينا وقتها الكثير لنفعله سويًا، أكثر من أيّ وقت مضى. لو أخبرنا والدنا أن المعطف الذي يرتديه السيد "شرامك" قد حاكته له أمي لاندلع شجار عنيف بينهما. كانت شقيقتي عندما نفتح الموضوع بيننا تحدق بعينيها في سقف الغرفة، تمامًا مثلما كانت تفعل أمي من قبل، عندما كانت تُغير المحطة أثناء خطاب "هوزاك"، وتبحث عن أغنية. ثم تغادر الغرفة سريعًا. لم تتصرف أيّ منهما على الطريقة الاشتراكية.

أحيانًا كنت أشعر أني وحيدة بينهم في قناعاتي، فتغالبني الدموع. كيف لي أنا الفتاة الصغيرة أن أكون مسئولة عن العالم، وأحمل هموم الكرة الأرضية على أكتافي مثل الثور الجالس أمام "little Bighornem". لا يمكن أن أتخلى عن القضية. لابد من مواصلة الصراع حتى آخر لحظة. لكن ماذا كنت أفعل وشقيقتي لا تستجيب لما أقوله لها؟ لم أكن أنتظر أن تتصرف بناء على رؤيتي للأشياء، لكني أردت على الأقل أن تسمعني، ثم تفعل الأمور على طريقتها. لكنها غالبًا لم تكن تتركني أكمل كلامي، رغم أني كنت أستمع إلى ما تقوله ونحن في المدرسة الابتدائية، أستمع إليها وهي تتحدث بحماس رغم أنه كان كله هراء. دعتني ذات مرة أثناء ساعة التدريس المشتركة أن نحفر فوق الطاولة بالبَرْجل نجمة حمراء. فأخذت البرجل على الفور، وبدأت أحفر في الطاولة. كان عليّ أن أقنع المُدرّسة أن حفر النجمة الحمراء في الطاولة يختلف عن حفر عبارة: "فيدليتشكا" غبي، وهو ما كنا نفعله مرة كل شهر على الأقل. كان كل من يتضامن معنا يحفر خطًا بالبرجل أسفل العبارة. كنت أتوسل إليها أن تعيد إلينا سجل

Twitter: @ketab_n

الطالب، وأعدها بأننا لن نكرر ذلك. أما شقيقتي فكانت تُضفر شعرها وقتها، وتنتظر أن ينتهي الموضوع. وعندما كنت أتمكن من إقناع المدرسة لم تكن ترد بأي كلمة شكر.

لا أتذكر على وجه التحديد متى انشطرت تلك الكتلة الثلجية إلى قسمين. لم ألاحظ حالة التحفظ التي كانت عليها شقيقتي إلا عندما بدأت تخرج بدوني، وأنا أجلس في غرفتنا الصغيرة أبكي حتى يغشاني النوم. كانت تقاطعني وأنا أتكلم، وتناديني قائلة "تشاو"، ثم تنصرف. فأبقى وحدي وسط الحي، ثم أجرّ قدمي عائدة إلى البيت رغمًا عني.

بالطبع يجب أن يبدأ الإنسان في البحث عن الخطأ في نفسه أولًا. أنا لا أتذكر سوى سقطات خالية من أية أفعال سيئة مقصودة. كان الفارق بيننا، وهو حوالي عامين، ليس بقليل، فدفعتها ذات مرة من فوق الدراجة لأنني كنت أرى أنها ركبت الدراجة لمدة طويلة، وكانت دراجة مشتركة بيني وبينها. أو سحبتها مرة أخرى من يدها، وأجبرتها على أن نعلب لعبة الهنود الأمريكيين رغم أنها كانت تبكي وترفض. أيضًا أخذت منها عدة مرات حبات حلوى حتى بعد أن كنت أنظف أسناني، وكانت تحب مَصّها قبل النوم. ومرة أخرى أجبرتها على أن تغير سروالها الداخلي لأنها ظلت ترتديه على مدى أسبوع كامل، وهو أمر يمتن له كل شخص عادل. ببساطة كانت أفعال من باب الإشراف عليها، وليست لمضايقتها. ألم أكن أكبر منها سنًا؟ نعم كنت كذلك. كنت أيضًا أغلق باب الشرفة من الداخل حتى لا تستطيع الدخول عندما كانت تعود من جولاتها في وقت متأخر من الليل، وأجبرها على أن تلقي الأحجار الصغيرة على نافذة غرفتنا كي أفتح

Twitter: @ketab_n

لها. فلو علم والديّ بتسكعها أثناء الليل لنالت عقابًا شديدًا. لكنني كنت أستغرق كثيرًا في النوم، وكانت كعادتها تنسى أن تأخذ معها مفتاح الشقة، فتظل جالسة أمام العمارة طوال الليل، ملفوفة في سترتها، رغم أنه كان في شهر نوفمبر. وكانت تذهب إلى المدرسة مباشرة من أمام البيت، ثم تنام بعدها في السرير لمدة ثلاث أسابيع نتيجة التهاب في الرئة.

ليتها راجعت على الأقل نفسها وهي جالسة أمام باب العمارة! كل ما في الأمر أن رأسها كانت تتدلى هنا وهناك، مثل إنسان أصيب بالضجر وهو يستمع إلى خطبة أثناء أحد الاجتماعات. ربما فكّرت، الله أعلم. كل ما أعرفه أننا بعدها بقليل توقفنا عن التواصل معًا.

كنت أتردد على أمي كثيرًا في مركز جمع المخلفات. كان "شرامك" ينعتني بالمراقب على سبيل المزاح لأنني كنت غالبًا أطلب من أمي أن تُريني كم المخلفات التي تلقته وصنّفته خلال اليوم. وعندما كان يقلّ عن النسبة التي حددها "هونيات" في اليوم، كنت أسجل ملاحظاتي كرفيقة. كانت أمي ترد عليّ بحجج مختلفة. كنت أسمي ذلك: لَفْت نَظَر. أحيانًا كنت أذهب عندها بعد انتهاء الوردية لأرافقها إلى المنزل. كنت أفعل ذلك من باب الاحتياط كي لا تتأخر هناك أكثر من اللازم وهي تحيك لـ "شرامك" سترة من ستراته. كانت ترد عليّ بوقاحة وكأنها لم تكن سعيدة من وجودي هناك. من وجود ابنتها التي تمر بمرحلة حساسة وهي في الثالثة عشر أو الرابعة عشر من عمرها. وكأن موضوع كهذا لا يعني لها شيئًا. كنت أجرّها من هناك أحيانًا، أجرّها بمعنى الكلمة عندما أذهب إلى هناك. فقد كانت دائمًا تسوق لي الحجج، وأنا أجهش بالبكاء من الغضب. كنت في الواقع خائفة على أسرتنا، وتأكدت

Twitter: @ketab_n

مخاوفي تمامًا في وقت لاحق. لكنها كانت تعتقد أني أبكي لأني ربما رسبت من جديد في امتحان اللغة التشيكية، أو أن أحدهم في المدرسة عاقبني لأنني أرتدي أنا و"ميلادا" ملابس أنيقة. لكنها كانت تنتفض غضبًا لو علمت أن أحد يتنمر لنا في المدرسة لأنها حاكت لنا ملابس بناء على تفصيلات رأتها، وغير متاحة في المتجر.

كانوا أحيانًا يتآمروا ضدي أنا وأختي في المدرسة لأننا كنا نرتدي ملابس أنيقة. كان المتآمرون من جماعة البروليتاريين التي كنت أذهب معهم لنثني أذرع تلاميذ مدرسة الفنون الشعبية.

- انتبه. هل جُنِنْت؟!

كانت السرعة لها الغلبة. كان ذلك الصبي سريعًا عندما خطف مني ومن "ميلادا" المِنْقَلة ونحن نصل طرفي الخط، واختفت معه المحاة التي كانت تتطاير بين أيادي التلاميذ الماهرة في الفصل. لم يبقى أمامنا فوق الطاولة سوى الكراسات والأقلام التي كسّرها ذلك الصبي قبل أن يهرب.

إنه الفاعل. شرحت ما حدث للمدرسة، وأشرت إليه وهو جالس أمامي منتصب القامة. لكن المعلمات لم تكن ترحبن بعمل التحقيقات.

كانوا يسرقن منا أيضًا ملابس التدريب. عثرت عليها اليوم صدفة وهي مكومة خلف الدواليب بجوار جهاز التدفئة! إنها الحقيقة! أنا لا أكذب. كانت شقيقتي تهزّ رأسها للتأكيد.

Twitter: @ketab_n

لقد سمعت المدرسات تلك القصص مرارًا، وكانت تحدث كل يوم. كان من العبث أن تقول لهم إنك لا تمضغ اللبان في المدرسة، وأن شخص آخر قد لصق اللبان تحت المقعد، تمامًا عندما تدّعي أنك لم تحفر فوق الطاولة عبارة: "منياكوفا" حيوانه! إنها مدرسة اللغة التشيكية. كنا نقسم بأغلظ الأيْمان وقتها، لكن أحدًا لم يكن يصدقنا.

عندما استمر إزعاجهم لنا لبضعة أسابيع دون توقف حدث شيء غير مسبوق. كنا في طريقنا إلى مطعم المدرسة، نمشي في صفين، فالتفت إلى الخلف، فرأيته ينظر إليّ وهو يقف خلف "ميلادا". لم تكن نظرة عابرة. كان "فيدليتشكا". يتطلع إليّ وهو يبتسم. أعجبني الأمر للحظات لأني كنت أعتقد أن "ستاندا فيدليتشكا" الذي يعيش في كوكب آخر من التذمر والتجاهل لا يعرف اسمي. لكني بدأت أشعر ببوادر مؤامرة تلوح في الأفق.

لم يكن يعنيني أن أتضامن مع عدويّ. تذكرت على الفور شيئًا حدث قبل أن أتأكد من أن أمي لا تقوم بدورها كمراقبة على "شرامك" ببضعة أيام. كانت عناصر المتمردين تتدفق عليها من أنحاء المنطقة. فقد رأيت "ستاندا فيدليتشكا" وهو يخرج من الباب الخلفي من مركز تجميع المخلفات، و"ميلان شرامك" يشير له بيده نحو الطريق. ربما كان الأمر ليمر دون أن ألاحظ شيئًا، لأن المتمرد الصغير يحمل أيضًا المخلفات، وربما كان الباب الأمامي مغلقًا. لكن "فيدليتشكا" كان وحده، ولم يكن وقتها قد تعلم المشي. كان مازال صغيرًا، ولا تليق به نظره الكراهية التي ظهرت عليه عندما رآني قادمة من الاتجاه المقابل، وأسير خلف أمي. كانت نظرة أصابتني بالصدمة. كان دائمًا لا ينظر إلى الناس، بل من خلالهم، من

Twitter: @ketab_n

خلال المدرسة والمديرة أيضًا. لم يكن يرى سوى مجموعة "كوزاتشكا" ومَنْ والاها. كانوا دائمًا يتداولون شيئًا ما، ويتبادلون المكاتبات، ويسعون في طرقات المدرسة وغيرها مثل حيوانات وحيدة الأرجل غير عابئين بغيرهم. وفجأة وكأنه أراد أن يطعنني بنظرة من عينية وكأنها حربة. ذلك الإرهابي الصغير، ابن "فيدليتشكا" الكبير الذي أراد أن يقضي على قرية الهنود التي أمتلكها، ويدعمه "ستاندا" في ذلك. مرت بضعة أيام على نظرة التضامن التي رمقني بها "فيدليتشكا" في دهليز المدرسة وكأنه مجرم ينظر إلى مجرم آخر. رأيت بعدها شقيقتي وهي تقف أمام الحمامات مع "فيدليتشكا" و"كوزاتشك" وآخرين. كان الصبية يلتقون في ركن هناك تنبعث منه رائحة نتنة. كان مشهدًا مقرفًا بالنسبة لي. كنت عندما أمرّ بهم يلتفت إليّ هؤلاء الصبية الثلاثة ومعهم شقيقتي، وكأنهم يومئون لي بِوُدّ، لكني لم أستجب لهم، لم أتوقف عندهم، وواصلت السير. أردت أن أسأل شقيقتي عن الأمر في اليوم السابق لكن النعاس ثني رأسي قبل أن تعود إلى البيت. وحدث نفس الشيء في اليوم التالي. ونسيت الأمر بعدها. وعندما تذكرته لم أرى طائلًا من السؤال. عما أسألها؟ أسألها لماذا كانت تقف مع الصبية المتذمرين؟ كنت أعرف ردودها عندما لا ترغب في الإجابة. تهز رأسها، وتقهقه بلا معنى. كنت أفسر تصرفها على نحو إيجابي، وأتظاهر بأن لامبالاتها لا تزعجني، فأنا الكبيرة. يمكنني ألا أهتم بأمرها. فلم تكن لديّ رغبة في أن أظل آمرها طوال اليوم بأن تفعل هذا وذاك. لم أرغب في أن أراها تحرق أعصابي. وعندما يفيض بي الكيل، أُخرِج ما بداخلي، وأنخرط بعدها في البكاء.

Twitter: @ketab_n

من الطبيعي ألا أتحمل المضايقات في المدرسة من "فيدليتشكا"، وأتحملها من شقيقتي. لكن الواقع كان عكس ذلك تمامًا. ظهر هذا جليًا في حكاية القلم عندما تجمعت كل الفصول في حصة مشتركة. سرق أحدهم القلم مني من جديد، أخذه من فوق الطاولة. لم أهتم بالأمر، فقد اعتدت عليه. بلطجة كغيرها من أعمال البلطجة التي مارسوها معي. لكن ما أزعجني هو تخلي شقيقتي عني.

كانت المدرسة تتجول بين الطاولات، وكان كل تلميذ يمسك قلمه في يده كي تراه. لم يكن معي قلمي لأن أحد لصوص الفصل قد سرقه مني. اقتربت المدرسة من طاولتي، واشتعل وجهي من الحرارة. شعرت بالدم يسري في وجهي، ويتقدم إلى أعلى حتى وصل إلى جذوع شعري. ما العمل؟

ثم حدث ما حدث. تحركت "ميلادا" بمقعدها في هدوء بعيدًا عني، وأنا في أصعب لحظات القلق. ابتعدت عني كثيرًا، وأخذت تحملق في السُّبورة رغم أنها خالية من أية معلومات. لكنها أرادت أن يرى الجميع خاصة "فيدليتشكا" عدم اكتراثها بما يحدث. وبّختني المدرسة، وظلت يداي ترتعشان طوال الحصة. وعندما مددت يدي لأعطي "ميلادا" قلم الرسم سقط القلم من يدي عدة مرات، وكأنني شخص غريب عنها، غريب. غريب.

كان قد مرّ زمن طويل وقتها على الأيام التي كنا نلعب فيها لعبة الهنود الحُمْر، حيث ألعب دور "نشو تس"، وكانت تعلب هي دور حصاني الوفيّ. الأيام التي كنا فيها فتاتين متناغمتين. بدأت "ميلادا" ترافق "ستاندا" وجماعته. فصعقها تيار نهر شيطانيّ، وحملها إلى بلاد غريبة. هناك من يرغب مثلي في التوافق مع الآخرين، ويتمكن من التفاعل معهم، وهناك من

Twitter: @ketab_n

يتعالى على الناس، ويبني بطولته على هذا الأساس. وكانوا هم كذلك. فرفعت معول الحرب، فتوقف "ستاندا فيدليتشكا" بعدها عن النظر إلى كصديقة له.

حذّرت أمي عدة مرات من أن تلك التنورات الأنيقة، والسترات التي تحيكها لنا بناء على موديلات من مجلة (بوردا) تسبب لنا مشاكل في المدرسة. كنت أحيانًا أشعر بالانزعاج وأنا أرتديها. على سبيل المثال كانت زميلتي وأفضل أصدقائي فيما بعد "أنديلا لوميروفا" لا تملك سوى سترتين وتنورة واحدة وحيدة، وسروال واحد. في الأسابيع الأولى من الأعمال النشطة في "كراكوف"، وقت أن كانت أعمال البناء في كل مكان سقطت على أبيها كتلة خراسانية مُنْفَلتة، ففقد ذراعيه حتى مرفقيه. عاش والدها بعدها من معاش الإعاقة، ومن مرتب أمها التي كانت تعمل مساعدة طباخة في دور الحضانة. وكانوا أيضًا يساعدون أبويهما من ذلك المبلغ. فلم يكن غريبًا أن أنديلا كانت تأكل ما يتبقى من طعام الآخرين في الفصل، وكانت كل ملابسها ممزقة وبالية. أعطيتها ذات مرة سترة صفراء محبوكة كانت لي. كنت أشعر بما تعانيه عندما كانت تغلق عينيها، لكن المجتمع الاشتراكي لم يكن يرغب في أن يشعر أحد بما تشعر به.

لم يكن لدى شقيقتي ذلك الحس الاجتماعي. لم تتحرك يومًا لمساعدة المحتاجين، ولم يكن تعنيها قضية العدالة الاجتماعية.

قد يقولون على ما حدث اليوم بأن "ميلادا"، كانت على العكس مني شخصًا، لا تهتم إلا بأمورها الخاصة، شأنها شأن كل مجموعة المتمردين الصغيرة في الفصل، وفي مقدمتهم "فيدليتشكا". لذلك وجَدَت مكانًا لها بينهم. وكانت "أنديلا" من المغضوب عليهم بينهم فقط لأن أبوها كان

Twitter: @ketab_n

لاعب جمباز متحمّس، رغم إعاقته. كانت أمها تعمل في أوقات الفراغ مديرة للطلائع، كذلك كانت جدتها وجدها من الشيوعيين العجائز. ببساطة كانوا غارقين في الشيوعية حتى أذنهم، كما وصفهم "ستاندا". لهذا السبب لم تكن جوارب "أنديلا" المزقة تعني لهم شيئًا. عندما كنا نضع زينة حفلة أعياد الميلاد كانت تحضر بدلًا من النجوم الفضية نجومًا حمراء. وماذا في ذلك؟ لم تكن غبية على الإطلاق. كانت تحفظ أشعار "جورج فولكر"* عن ظهر قلب، وليس فقط قصيدة "عيون الوقّاد" التي كنا ندرسها كلنا بصورة إجبارية. كانت قلوبنا تنتفض وهي تلقي علينا في الفصل قصائده. كان "فيدليتشكا" يجلس مع شِلّته في مؤخرة الفصل طوال الوقت. يضحكون، ويسخرون من "أنديلا"، ويصفونها بأنها مجنونة. انضمت إليهم شقيقتي، وأخذت تردد كل ما يقولونه. كانت قدراتها العقلية أقل مني ومن "أنديلا" بكثير. كان النظام الاشتراكيّ يسيطر على أفكارنا، في حين كانت تعتقد هي وشلتها، الصبية الثلاث، أن كل الناس، كل الشعب التشيكوسلوفاكي لا قيمة له، باستثناء كبار المتذمرين بالطبع. كانوا يخافونهم رغم أنهم مجرد متطفلين، ليس فقط من المفهوم الاشتراكي. كانوا مواطنين بدون وظيفة دائمة. عالة على غيرهم، وكسالى، ومصاصي دماء، يتبعون نظام حياة سيئ، ويرثون أولادهم كل ما هو عديم القيمة.

ما زلت أتذكر هؤلاء المتذمرين الكبار منذ أن كنت صغيرة. كنت أراهم في منطقة الملاعب. ملابسهم مختلفة، سوداء، وفضفاضة، ذقونهم طويلة

---

* شاعر، وصحفي، وكاتب دراما تشيكي. أحد مؤسسين الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي عام 1921 – المترجم.

Twitter: @ketab_n

ومتسخة. كانوا دائمًا يقفون وحدهم أو في جماعات متلاصقين، ويتجنبون الاختلاط بنا. كانوا يصيحون وهم في ذلك الجمع، وأحيانًا يتحدثون بهدوء مريب وهم يقفون عند حائط الملعب. ربما كانوا يتعاطون المخدرات، لكنهم بالتأكيد كانوا يشربون البيرة، ويدخنون السجائر بشراهة.

لم يكن لهم تقريبًا أثر وقت أن وصلنا إلى "كراكوف". لكنهم بدئوا في الظهور خلال الأعوام الأربع التالية. بدأت النشاط المعماري يخبو، وساءت معه سمعة "كراكوف"، وما تبقى من "تشيكوسلوفاكيا". صار من الصعب تجنيد مؤيدين. بدأت أعداد المهاجرين إلى المدينة في الانخفاض. رفض الناس أي دعوة إجبارية على النزوح، وتحررت قبضة النظام الاشتراكي. توقفوا عن تهجير الحشود بالقوة، على خلاف الخطط الهندسية التي وضعت من قبل. دفعت الحاجة إلى الأيدي العاملة إلى توظيف العناصر الهدامة، واستقدام أنواع سيئة منها إلى "كراكوف"، فقط كي يبعدونهم عن المناطق التي يعيشون بها. كانت لمدينة "كراكوف" وضع خاص، وقد فسّر ذلك بعض الرفقاء على أنها مستودع لحثالة البشر، رغم أنها كانت من المفترض أن تكون عكس ذلك تمامًا. حدثني أبي عن ذلك عدة مرات. كان يقول كلما استقدموا شخصًا جديدًا لينضم إلى مجموعة المهندسين إن جودة الأفراد القادمين إلى المدينة في تدني مستمر. وكان السيد "شميد" يرفض توظيفه، ويقول إنه عنصر هدام، سيُفسد المجموعة. كانوا يضعون العناصر الإجرامية، والمتذمرين في سلّة واحدة. غير أن العناصر الإجرامية لم تكن سوى أناس يعيشون حياة غير منظمة، يدمنون شرب الخمر، جلساتهم مفعمة برائحة نتنة، وأسنانهم متساقطة. في حين كان لدى المتذمرون قناعات تخصهم، كانوا فخورين بما يفعلونه. يرفضون مد أيديهم للمصافحة، ويسخرون علنًا من الآخرين.

Twitter: @ketab_n

سخروا من أسرتنا عندما ذهبنا في عام ثمانية وثمانين، نقف في الصفوف الأولى من مسيرة الأول من مايو مُثقلين بالرايات. لكن المجرمون لا يجرؤون على السخرية. وقتها احمرّ وجه أمي خجلًا، بينما التفت أبي إليهم، ونهرهم ببعض الكلمات. كانوا شبابًا مراهقين، بالكاد نبتت شواربهم، فاعتقدوا أنهم يعرفون كل خبايا الأمور، ويرون أن الاشتراك في المسيرة خطأ، وأن الجيل القديم لا يعرف شيئًا طالما لم يتفق معهم في الرأي، رغم أنهم لا يعرفون شيئًا عن أمي ولا عن والدي. ربما كنا نحمل الرايات فقط من باب التفاخر، رغم أن الأمر لم يكن كذلك. فأنا مؤمنة بالفكرة، وسأظل أدافع عنها رغم أن الأمر اليوم صار غير مقبول، ولم يعد الناس ينصتون إلى مثل هذه الأفكار. كانوا يقولون لي وأنا طفلة إن الطبقة العاملة هي قاطرة التقدم، واليوم يقولون إن المتذمرين في الثمانينات كانوا على حق. كانوا مواطنين صالحين، ونحن لسنا كذلك. انتهى الأمر. لكن مَن هؤلاء الشباب يعرف والديّ؟ يعرف أبي وأمي اللذان واظبا على الذهاب إلى عملهما حتى في أوقات المرض، كي لا يتعرض أحد بسببهما لمشكلة. أنا معهم، أدعم أبي بصفة خاصة. أنا معه حتى إن سخرتم مني. لقد آمنت دائمًا بالفكر الاشتراكي، على عكس شقيقتي رغم أني كنت مستعدة أن أتعايش معها. لكن شقيقتي وشلة "فيدليتشكا" كانوا يؤمنون بالمثل القائل: من ليس معنا فهو علينا، وبالتالي عليّ أنا شخصيًا. ورغم أن هذه المقولة أطلقها "لينين" فقد رفض المتذمرون كل ما هو سوفيتيّ. كيف تعرف أني ضدك. إنه افتراء، مثله مثل الافتراءات والأشياء الأخرى الكثيرة التي وصموا بها المتذمرين، وكل ما حدث في الثمانينات. أريد أن أصحح الأمور بصفتي شاهد عيان.

Twitter: @ketab_n

لم تكن شلّة "فيلدليتشكا" تعترف بأحد من مواطني تشيكوسلوفاكيا إلا بالمتذمرين أمثالهم. ثلاثة صبية، أيديهم وأرجلهم الصغيرة تشبه العصي، ويبدون في الأحذية الجلدية الكبيرة ذات الرقبة العالية التي تصل إلى منتصف سيقانهم وكأنهم شباب كبار. ربما نجحوا في ذلك قليلًا. فقد كان بعض التلامذة في الفصل يخافونهم، لكنها لم تكن سوى وقاحة أسفرت عن خوف. فلم تكن لديهم القوة المطلوبة طالما كانوا قابعين فوق الكتب. وبسبب تلك الكتب لاحق "ستاندا" "ميلان شرامك" أيضًا، تمامًا كما فعل معي عندما رمقني بنظرة شريرة.

عندما قابلته وقتها وأنا في طريقي إلى لقاء أمي في العمل، رشق سهام عينيه فيّ مثل الخنجر، لخوف في نفسه. خوف من أن أخبر أحدهم، وينكشف أمره بسببي، رغم أني لم أكن وقتها أعرف شيئًا عن قسم المقاتلين الأطفال الذي أسسه "شرامك".

كنت أستقي معلوماتي من شقيقتي. كان ذلك في لحظات ضعفها وهي تظنّ أني ربما أنضم إليهم في النهاية. كانت تحدثني عن وسائل المتذمرين في عمل انقلاب ثوري. وكيف يأخذ أحدهم حقيبة بلاستيكية في مكان محدد من شخص غريب لا يعرف عنه إلا أنه يرتدي نظارة سوداء، وقبعة. تمامًا كما تقول التعليمات. يمُر الشخصان ببعضهما على مهل. لا يتوقف أي منهما أثناء تسليم الرسالة، ولا ينبس بكلمة. أرادت أن تجرب معي هذه الطريقة ونحن نلعب لعبة الصحراء. أقفز من مخبئي الجليدي إلى مخبأها، مخبأ المتذمرين. لكن هل هكذا يكون الوفاء لقناعاتي الخاصة؟ لن يحدث حتى لو عذبوني في النار. كانت أساليب الهنود الحُمر هي كل ما

Twitter: @ketab_n

أعجبني في الأمر. تسليم نسخ المطبوعات بطريقة سرية، ونظرات تآمريه. رغم ذلك لم يكن للنساء دورًا كبيرًا في عالم المتذمرين، مثلما يحدث في قصص الهنود. حسب ما قالته "ميلادا"، وما علّمَها إياه "ستاندا" كان دور النساء الرئيسي يقتصر على نسخ تلك المطبوعات السريّة، والتخلص من آثار جلسات التآمر في الشقق. كانت النساء أيضًا تتكفل بمتابعة أسر المتذمرين حيث لم يكن لدى غالبيتهم وقت لمتابعتها. كان هذا من طبيعة الأمور. نَعيق، وسُكْر مبالغ فيهما، مؤامرات، وجمعيات ثقافية سرّية، وسِجال عاصف. أما مرافقة الأطفال في حلقات الدرس، وتنظيف أنوفهم، ومؤخراتهم، فلم يكن لديهم وقت له.

ربما كان العمل بقطاع أمن الدولة لا يخلو هو الآخر من إثارة. لكن الإنسان لا يتخذ قراراته بناء على عنصر الإثارة. فمن المثير أيضًا أن تسرق حقيبة مشتريات من سيدة عجوز، لكن هذا سلوك لا يليق بالأشخاص المحترمة.

في الوقت الذي كانت شقيقتي ترافق فيه شِلّة "فيدليتشكا"، وتدريجيًا أخذت ترافق "فيدليتشكا" نفسه، كنت أمارس هوايات تليق بمن هم في سني. أجمع الطوابع، والملصقات من على أغطية اللبان وعلب الجبن المطبوخ، ننظم لقاءات لتبادل المقتنيات بعد المدرسة. كنت سعيدة بذلك. ولا يهمني إن كان أحدهم يعتبرها أمور طفولية. فهي أفضل من أن أعلن عن بلوغي سن الرشد من خلال سيجارة، أو كلام قبيح، أو شرب الكحول كما كانت تعتقد شقيقتي. فضلًا عن أني أحب سنوات الطفولة، ولا يزعجني أن أظل أتذكرها طيلة حياتي. قلب متوهج وثقة بأشخاص طيبين.

Twitter: @ketab_n

عندما أعلنوا في خريف عام ثمانية وثمانين عن جمع طعام للخنازير البرية في حديقة حيوان "كراكوف" كنت في الفصل أول من استجاب للدعوة. أحضرت منه أكثر من ثلاثين كيلوجرامًا إلى المدرسة، وأنا أرتدي حذاء والدي الأخضر الذي يلبسه عند التزحلق. وفي المساء أُصبت بألم في ظهري مثل العجائز. قبل النوم دلكته لي أمي بالمرهم. ورغم أنه كان ألم من أجل سعادة المجتمع فقد قالت لي إن المبالغة في الأمر تفسده. واضطررت للبقاء في السرير لبضعة أيام، زدتها بيومين آخرين من باب الاحتياط. أعتقد أن أمي اضطرتني إلى البقاء في السرير طويلًا من أجل نفسها أيضًا. يبدو أنها أرادات أن تنعم ببعض الهدوء في العمل بدون ملاحقتي لها. وبينما كنت مستلقية في السرير أقرأ كتاب "الكلب الراعي كازان" للأديب "كيور وود" كانوا يخططون لثورة ضد النظام فيمركز جمع المخلفات.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

2

أخذ فريق "شرامك" من المناضلين الأطفال يلتقي مرتان في الأسبوع في فناء مركز جمع المخلفات. كانوا يُشبهون شباب الطليعة، لكن أغانيهم وأشعارهم كانت مختلفة. لم يكن لديهم زي مُوَحّد. عرفت بذلك صدفة. كانت أمي تمنعني من الذهاب عندها في العمل. أخبرتني أن هناك قرار جديد يمنع وجود الأطفال القُصّر في مكان العمل. فلم يبقى أمامي سوى التجسس عليهم. رأيت ذات يوم من خلال فتحة في بوابة المجمع "ميلادا" تجلس فوق صناديق ورقية ومعها حوالي عشرة شباب يجلسون على شكل دائرة. كانت شقيقتي تقرأ شيئًا ما بصوت عالٍ. فهمت على الفور ما يحدث. إنها المطبوعات الممنوعة. شعرت بالعار وكأن سكين اخترق جسدي. كان معها "شرامك"، يجلس ويستمع مع الآخرين فوق الصناديق كشخص بالغ يتواصل مع الصغار. لقد ورّط شقيقتي وأمي معه. كانت "ميلادا" تقول إنه رجل ماهر، وأنها بدأت تقرأ هذا اللّغو بسببه وبسبب

Twitter: @ketab_n

"ستاندا". ربما توقعت أنها سوف تتبادل الحقائب البلاستيكية المتلئة بالأشياء الممنوعة سرًا عند إحدى النواصي مع رجل يرتدي قبعة سوداء. لكن ما كانت تفعله لم يكن مغامرة على الإطلاق. كانت تجلس وتقرأ ما أعطاه لها "ستاندا"، ثم تعيده إليه مرة أخرى. كانت تقرأ تلك الأشياء في المنتزه بشكل أساسي، أو في البيت تحت الغطاء لتدمر عينيها، لكني لم أنهرها يومًا على تفعله. ولو عرف والدي بالأمر لقطّعها إربًا.

صاح أبي عندما عدت يومًا من المدرسة: رعاع! اللعنة عليهم جميعًا! كاد قلبي يخرج من صدري من الخوف، لكن لحسن الحظ لم يكن لشقيقتي علاقة بالأمر. ظهرت في عمارتنا من جديد لافتات أخرى حقيرة، ودمّر أحدهم المقاعد في المنتزه.

هَمَج! لا يُقدّرون أيّ شيء!

كان والدي يُردد تلك العبارات أحيانًا والدمع يترقرق في عينيه. كتابات على حوائط المصعد، وتهشيم لزجاج محطة الحافلات العامة. تدمير مُمنهج للممتلكات في "كراكوف". لم يكن والدي يعتبر كل من يرتدون ملابس رثة سوى حفنة من المجرمين، يجب التخلص منهم.

حتى "فيدليتشكا" كان أحيانًا يبدو كبلطجي حقيقي. لكن شقيقتي كانت ترى في ذلك نوعًا مختلفًا من البلطجة، لأنه قائم على فكرة. كنت أجيبها بأن حمامة السلام لديها أيضًا فكرة، فكرة أجمل بكثير، وليس من الصواب أن يشوهها أحد. جاءت إليّ بعد بضعة أيام، وقالت إن السلام في العالم الاشتراكي ليس سلامًا، بل مجرد أكاذيب وتَنَمّر. وعندما أجبتها بأن

Twitter: @ketab_n

البلطجة هي أن يضع "ستاندا" قدمه أمام "أنديلا" في طابور الغذاء عن عمد كي تسقط على الأرض والطبق في يدها. كان واضحًا أنها تتدبر الأمر. لم تكن شقيقتي غبية، بل مُنْقَادة. أخذا تحدّق فيّ بعد أن سمعت ما قلته. أنا واثقة من أن كلماتي قد لعبت برأسها، لكنها تورّطت فيما تفعله. لم أكن أرغب على الإطلاق في أن أُوذي مشاعرها. كل ما أردته هو ألا تندفع كالعمياء وراء كل ما يقوله "ستاندا".

توقفت أمي عن حياكة الملابس الأنيقة لنا بناء على طلبنا. كنت أقول لنفسي إننا لو انخرطنا وسط الطلبة من جديد ربما تتعافى "ميلادا" من جنونها الشديد بالمتذمرين. لكن شيئًا من هذا لم يحدث. بل على العكس، ساءت الأمور أكثر فأكثر. كانت شقيقتي مُولعة بـ "ستاندا". كان كل ما يفعله أمرًا مقدسًا بالنسبة لها. وحتى لو كان من هُواة جمع الفطر، أو لاعب شطرنج، أو عدّاء في رياضة سباق الحواجز كانت ستُغرم به. إنها من طبيعة المرحلة العمرية. كنت قد قاربت الخامسة عشر، ولم تبلغ "ميلادا" الرابعة عشر بعد. وبدأ كل طالب وطالبة في البحث عن صديق أو صديقة. أخذت سواعد طلبة الصفوف الأعلى في مدرستنا تشتد، وصدور الفتيات تنتفخ.

كانت "إيريكا هروبشوفا" تسكن في الطابق العلوي فوقنا، وكنا نرِثى لملابسها أنا وشقيقتي. بدأت ترافق شابًا من المدرسة الفنية. وكانت "أنديلا لوميروفا" التي ترتدي جوارب بالية ترافق شابًا أكبر منها سِنًّا، التحق بالجبهة لاحقًا. أو ربما هجرها، لأنها أشارت لي ذات مرة من بعيد إلى مكان الجبهة، وهي لا تعرف مكانها على وجه التحديد.

Twitter: @ketab_n

رأيت شقيقتي مع "فيدليتشكا" بنفسي وعن قرب ونحن في الصف الثامن.

كنت عائدة ذات مرة مساءً من عند "أنديلا"، وفي طريقي إلى البيت رأيتهما يجلسان فوق سور النافورة، عند حافة حوض النافورة الفارغ، ويلقون فيه بأعقاب السجائر. كان الحوض ممتلئًا بكرات، وبأشكال سوداء. كانت شقيقتي تجلس بجواره، متلاصقين تمامًا. التحم جسداهما فصنعا ظلًا واحدًا كبيرًا أسفل المصباح. لم أرى أكثر من ذلك. فلم أجد في نفسي رغبة في النظر إليهما. لكن يكفيني ما رأيته. عندما تختفي المسافة بين فخدي شاب وشابة أثناء الجلوس، ويطوق كتفيها بذراعه فلا حديث عندها عن الصداقة. رغم أن شقيقتي كان تؤكد دائمًا أنهما مجرد أصدقاء... أصدقاء. "ستاندا" صديقي. طبعًا، أكيد!

لم يكن أبي على علم بأي شيء مما يحدث منذ البداية. أبي، صخرة غرفة الاستقبال الذي يعود أحيانًا مثلها في وقت متأخر من الليل، ويدخل البيت من الشرفة. لم يكن يعرف شيئًا. أو ربما عرف، والتزم الصمت؟ هل أن أمر أمي لم يكن يعنيه؟ أعتقد أن هذا غير وارد على الإطلاق، رغم أن آخر إجازة قضيناها معًا في ألمانيا الشرقية عند بحر البلطيق كانت كارثية.

إجازة خارج البلاد كنا نحلم بها. ننظر بذهول من خلف نافذة الحافلة لنكتشف أن "كراكوف" ليست كل العالم، وأن هناك من يعيش في مدن أخرى. كنت أعرف هذا الأمر، لكني لم أتخيله في الواقع. ذهبنا مرة من قبل إلى "بولندا". لكني لا أتذكر من تلك الرحلة إلا حساء اللبن السيئ الذي قدموه لنا في الفندق، ونقانق الدقيق. قال أبي وقتها أنهم يمرون بأزمة،

Twitter: @ketab_n

لذلك لم تكن هناك بضائع تقريبًا في كل المتاجر. تأكدت بعدها أن "كراكوف" جنة، رغم أنها مدينة عجيبة. لم تكن ألمانيا الشرقية تعاني من أية أزمات. اشترت لي أمي من هناك حذاءً بدون رقبة، مزين بكرات الكرز، لا وجود له في متجر بيت الخدمات في "كراكوف". اشتريت أيضًا من ألمانيا الشرقية مُشغّل شرائط كاسيت، وكان هو الشيء الوحيد الجيد الذي حصلت عليه في الرحلة، فضلًا عن السباحة هناك.

لم يحادث أحد والديّ الآخر طوال الرحلة تقريبًا، وكذلك فعلت معي شقيقتي. كان أبي يذهب في كل صباح لشراء عدد اليوم السابق من جريد "رودي برافو" من أمام الفندق. كان الرفقاء يوزعونها على عجل في الدول الصديقة. يقضي ساعة يقرأ فيها الجريدة، وشقيقتي تضع السماعات فوق أذنيها، وتكتب رسائل يومية لـ "ستاندا" من على الشاطئ. كان الفضول يقتلني، لأعرف عما تكتب له طوال الوقت ونحن لم تبرح مكاننا، ولا شيء يحدث على الإطلاق. وبمجرد أن اقتربت منها غطت الورقة بيدها، وتجهّمت في وجهي مُحذّرة. ربما كانت أمي الوحيدة التي استمتعت بالإقامة. أعلنَت أنها لن تحسب أي شيء بالكرون التشيكوسلوفاكية، وراحت من وقت لآخر تشرب القهوة تحت شمسية عن الشاطئ، أو تتناول كأسًا من الآيس كريم، رغم أن الأسعار كانت أعلى بكثير مقارنة بـ "كراكوف".

اقتربت نهاية الرحلة، وتلقت شقيقتي رسالة في الفندق من "ستاندا". وكانت المفاجأة. قبضوا على والده من جديد، ويقال إن "أشياءً ستحدث". قرأت تلك الجملة بنفسي. أما باقي الخطاب فقد خبأته "ميلادا" بكفيها.

Twitter: @ketab_n

لم يكن أمامي سوى التكهن بمعنى الجملة. ظهر القلق على وجه أمي، رغم أنهما لم تنطق بكلمة واحدة.

ماذا يفعل النظام الاشتراكي يا شقيقتي من جهة نظرك عندما يحاول "فيدليتشكا" بكل ما يفعله أن يدنّسه؟ كلنا نعرف أن أموره ليست على ما يرام.

وجّهْت الكلام لشقيقتي بعد أن انتهت من نفخ حشيّة صغيرة. أسقط في يدها تمامًا. ثم سألتني إن كنت أعني فعلًا ما أقوله. أومأت لها، فلكزتني، وانصرفت على الفور إلى الماء.

رغم كذلك كنت أحسدها ولو قليلًا على علاقتها مع "ستاندا"، رغم أنه متكبّر. لكني لم أكن لأعترف بشيء كهذا ولا حتى لصديقتي "أنديلا" التي كنت أستأمنها على كل شيء. كنت أحسدهما على أنه لديهما شيئًا يخصهم. رباط مثل رباط الهنود ببعضهم، ولا أكترث بالأساس الذي قامت عليه صداقتهم.

علق أبي على موضوع القبض على "إيميل فيدليتشكا" قائلًا: يستاهل! ثم واصل قراءة جريدة "رودي برافو". بدا لي أنه ابتسم راضيًا وهو يقولها. فكّرت وقتها إن كان أبي يعمل رقيبًا عليه. ألا يمكن أن يكون طرده من الشركة التي كان يعمل بها بسبب تهاونه في أداء مهامه كرقيب، وأنهم قبضوا على "فيدليتشكا" وقتها لذلك السبب. من المؤكد أن مراقبة وتخويف الآخرين ليس من طبيعة أبي. وكان "فيدليتشكا" في الوقت نفسه جارنا، وأبي كان يهمه أمره أكثر من غيره. لكنه لم يتخيل مطلقًا أن

Twitter: @ketab_n

تكون بين ابنه و"ميلادا" علاقة ما. كلما قاله عن أن شقيقتي تكتب خطابات هو أن شباب هذه الأيام يفعل أشياء غريبة، ورجال البريد يقضون حياتهم حتى الموت في تلبية رغباتهم.

الواقع أن أبي لم يضمر يومًا شرًا لأحد. عدة مرات خيب الرفقاء ظن أبي، لكنه لم يعترض على أيّ انتقادات بنّاءه وجهوها له. كان نفسه يقول إنه يعود إلى البيت في وقت متأخر بسبب أنه يلتقي مع زملاءه في العمل لشرب البيرة، وأيضًا ينتقدون إدارة الشركة والحزب بطريقة بنّاءة. وقتها قالت شقيقتي عن أبي عدة مرات إنه ليس غبيًا. انتبهت إلى أنني لم أسمع منها منذ فترة طويلة كلمة ثناء على أحد من أسرتنا إلا عليه.

ازدادت أعداد المتذمرين الشباب أمثالها في "كراكوف" مع الوقت، خاصة كلما اقترب عام تسعة ثمانون. وكأنهم كانوا يشعرون باقتراب اللحظة التي سيصبحون فيها في قمة النجاح.

حصل أبي على تلك الإجازة الأخيرة كمكافأة من الشركة بعد عشرة أعوام من العمل في مهنة السباكة في شركة (انستاف) في كراكوف. أصلح خلالها ثلاثة آلاف وأربعمائة وسبع خمسون مرحاضًا، وألفين وستمائة وأربعة وخمسين حوضًا مسدودًا، وثلاث وعشرين كيلومترًا من الأنابيب المختلفة. فاستحق أن يستسلم لنوم عميق في الحافلة طوال الطريق من مدينة "روينا" في ألمانيا الشرقية إلى أن وصلنا إلى "كراكوف". لكن لم يكن من اللائق أن تضع شقيقتي قبعة سخيفة على رأسها مثل البلهاء وهي نائمة. صنعتها من صفحات جريدة "رودي برافو". هي نفسها قالت إنها التقت بأبي عدة مرات في شرفة البيت، ولم يوجه لها يومًا أية

Twitter: @ketab_n

كلمة غضب أو تعنيف. ربما استفزها الأمر حسب معرفتي بها، واستفزّ أمي أيضًا. كان والدي رجلًا طيبًا. كان المتذمرون ينظرون بتعالٍ إلى أمثال أبي، إلى الناس الطيبة التي تَجِدّ في عملها، ولا يتدخلون في شئون غيرهم. دَعَهُم يعملون، ويجتهدون كيفما شاءوا! اليوم يطلقون عليهم الأغلبية الصامتة. هكذا ينعتون غالبية مواطني جمهورية تشيكوسلوفاكيا الاشتراكية الذين حملوا البلاد على أكتافهم. حتى "فيدليتشكا" و"شرامك" كانوا يذهبون إلى المرحاض، ويشترون الخبز من المتجر. لكن أحدهم لم يفكر يومًا أن يثني على من صنع هذه الأشياء. كانوا يعتبرون الخدمات في "كراكوف" أمرًا بديهيًا. يستدفئون بأجهزة التدفئة الاشتراكية، ويرتدون ملابس الاشتراكيين، ويشربون بيرة الشيوعيين. يستمتعون بكل هذا. لكنهم في نفس يعدون خططًا انقلابية ضد مواطني بلدهم البسطاء.

استسلمت شقيقتي لكسل دائم بعدما عندنا من الإجازة. مرّ ذلك طبيعيًا، فالدراسة لم نبدأ بعد، وكنا في شهر سبتمبر. بدأ كل من أبي وأمي يعاملوننا وقتها على أننا كِبار. أعتقد أنهم بدئوا قبل الأوان. فلم يعد أحد يراقب تصرفات شقيقتي. كان والدينا يقضيان يومهما بالكامل في العمل. فلم يعرف أحد غيري أن "ميلادا" لا تعود إلى البيت إلا في المساء. كان "فيدليتشكا" مقبوضًا عليه، وكانت شقيقتي ترافق "ستاندا" في كل خطوة. عندما بلغ "ستاندا" سن الخامسة عشر بدأ يتصرف بين أقرانه المتذمرين على أنه شاب كبير، واعتبر نفسه بطلًا بفضل ما حدث لأبيه. أطلق شعره، وقصّره من على جانبيّ وجهه. كانت لديه مهارة الحديث والخطابة وسط جمع من أفراد جماعته الذين يكبرونه سنًا. كانوا جميعًا

Twitter: @ketab_n

يلتقون في ذلك الوقت عند "شرامك" في فناء مجمع الفضلات، صباحًا ومساءًا، ومعهم شقيقتي أيضًا.

كانت أمي بلا شك تقدم للرفقاء معلومات عن "شرامك" بصورة منتظمة بصفتها مُخْبِر. لقد وعدت جهاز أمن الدولة بذلك كي تنام في هدوء. كي أجد أنا وشقيقتي الطريق إلى المدرسة ممهدًا أمامنا، رغم أننا لسنا من عشاق الدراسة. كان الإبلاغ عن العناصر الهدامة رغم ذلك مسئولية كل مواطن. لم يكن الأمر يستحق أن تجلس أمي كثيرًا مع رجل أمن الدولة في المكتب، ليصب لها شايًا، ويقدم لها معه بالتأكيد بعض الحلوى. لم يكن يستحق أن يفعل "شرامك" ما يفعله. أن يتحكم في أمي، ويطلب منها أن تقف في كشك بجوار مجمع المخلفات لتصنع له قهوة، وهو الكشك الذي دفع الرفقاء لها ثمنه. كانت على أي حال تخبره بما قالوه لها رجال أمن الدولة. فكانت ميزة كبيرة له أن يكون لديه مخبر خاص. فكانت عنده معلومات بالطبع، ويعرف ما يعرفه عنه الرفقاء.

فكّرت أن أذهب إلى مكتب أمن الدولة، وأخبرهم أن أمي تعمل في الحقيقة مخبرًا لصالح "شرامك"، وأن الاستماع إلى ما تقوله لا طائل منه. لكني لم أذهب. رغم أن الماركسية المادية التي أؤمن بها قد تعاقبني على تصرفي هذا. لكني لن أفعل حتى لو اعتقد أحدهم أني عضوًا غبيًا في حركة الشباب الاشتراكي التشيكي، وحتى لو اعتبروني كذلك بعد أن ينجح الانقلاب، وتصبح الآراء التي أؤمن بها هي آراء الأقلية، رغم أن الناس هي نفس الناس. لن أذهب إلى مكتب أمن الدولة لكي أبلغ عن أمي. لن أفعل. ليس هذا فقط. "شرامك"، ذلك العنصر الهدام سيكون رفيقًا بي بفضل

Twitter: @ketab_n

انفتاحي على الناس، وفهمي لطبائعهم رغم غرابتها. حاول أكثر من مرة شاب بلحية، يصغر أمي بكثير، شاب لطيف اسمه "هورينا" من اتحاد "أصدقاء الوادي الأخضر" أن يقنعني بأن أنضم إلى المتذمرين أثناء وجودي في مجمع النفايات، كي يكون لديّ أصدقاء حقيقيون. لم يخجل من نفسه وهو يقول لي ذلك! وقفت أمي بعيدًا، وأنا أخجل منها ومنه. كان "شرامك" يفسد الشباب، وكانت أمي على علم بذلك. لماذا لم تخبرني بالأمر؟ كنت أتردد عليها في المجمع لمتابعة عملها، رغم أنها كانت تمنعني دائمًا من الدخول بحجة تلك التعليمات المفبركة. لكني كنت أتابع ما يحدث في الداخل من خلف النافذة. لم تكن التعليمات تسري على فريق الأطفال المناضلين، لأنهم كما قالت كانوا يجتمعون بعد أوقات العمل في المجمّع. هُراء! لم يكن يعنيني سوى أمي، وأبي بشكل أساسيّ. لكنها غبية لو اعتقدت هي و"ميلان شرامك"، قائد فريق الأطفال المناضلين المغفل، أني لا أراهما من خلف النوافذ، وهما يمارسان الجنس عدة مرات في الأسبوع أثناء أوقات العمل، نعم، يمارسان الجنس.

شكرًا، لكني سأعود إلى البيت! أجبتها عندما دعتني أمي على غير العادة للدخول، وعرض عليّ "شرامك" أن أشارك في اجتماعهم، في الوقت الذي راحت عشر أو خمس عشر زوجًا من العيون لأطفال متذمرين في مثل سني ترشقني بسهامها، وتصرخ فيّ: داعرة! انصرفي! كم أحزنني ذلك! ربما شاركتهم شقيقتي. ربما شهّرت بي أمامهم. عندما فكرّت في ذلك ملأت عينيّ غشاوة من الخزي، فلم أرى طريق العودة إلى البيت.

Twitter: @ketab_n

يقال إنه عصيان مدني. توقفت أختي عند حمل أكياس فضلات الطعام، وتنظيف رواق البيت. قالت إنها كلها أعمال تافهة. لكن الأشياء الهامة هي التي تحدث في المنتزه الصغير، أسفل تمثال رائد الفضاء "ريمكا". كانت مجموعة المتذمرين الشباب يجتمعون هناك بعد مغيب الشمس، يتحدثون ببذاءة، ويدخنون سيجارًا رخيصًا.

لم تستطع شقيقتي أن تفسر لي يومًا علاقة ما يفعلونه بالكفاح من أجل الحرية والديمقراطية، وإنهاء الحكم الديكتاتوري. كنت أحيانًا أسمع أصوات ضحكات فتيات المتذمرين الجالسين في المنتزه الصغير قادمة من نافذة حجرتنا الصغيرة. أعتقد أني تعرفت على صوت "ميلادا" بينهم وهي تقهقه. ضحكات مدويّة، أرادت أن تستعرض نفسها بقوة أمام "ستاندا".

كانت أمي تعمل لصالح النظام وضده. فقد كانت بالتأكيد تعرف بأمر طلائع المتذمرين الممنوعة، لكنها لم تبلغ عنهم في أمن الدولة بالتأكيد، وإلا لتصدوا لرفقاء "شرامك" منذ البداية. صارت أمورهم معروفة للجميع في "كراكوف". ثارت العاصفة في أرجاء تشيكوسلوفاكيا وقتها، وخاصة في العاصمة. كانوا يعرضون أحداثها في التلفزيون. شاركت فيها بالتأكيد الملايين التي تدفقت إلى شوارع "براج"، مدينة المائة بُرج، وتزاحمت في أقدم مدن أوروبا. حاول الرفقاء المتحصنون تنظيمهم في أشكال متسقة، واستدعاء روح العاملين كي تعود إليهم بالسكينة والهدوء التي كانت سائدة قبل بضعة أيام. لكن الأمور وقتها قد اختلفت، وعمّت الفوضى في كل المدن التشيكية، وكأنهم في مباراة لكرة القدم. الناس لا ترى ولا تسمع، بل يصرخون بأعلى صوتهم، مرددين الهتافات، ولم يكن هناك ما يُوقفهم.

Twitter: @ketab_n

عندما اندلعت الثورة في تشيكوسلوفاكيا ضد النظام الاشتراكي فتح أحد أفراد أمن الدولة بوابة مَجْمَع النفايات، وقبضت مجموعة من خمسة رفقاء يحملون سلاحًا على كل طلائع المتذمرين وفي مقدمتهم "شرامك" الذي كان يُعِدّ منشورات تدعو لمظاهرات تطالب باستقالة "ستانيك"، رئيس اللجنة الوطنية في "كراكوف"، واستقالة الحكومة التشيكوسلوفاكية. حدث ذلك في الثامن عشر من نوفمبر عام تسعة وثمانين. حشدوهم جميعًا على الفور في سيارات، وأرسلوهم إلى مكتب أمن الدولة. أطلقوا سراح المراهقين المتذمرين في مساء نفس اليوم، وقضي "شرامك" أسبوعًا كاملًا في سجن حقيقيّ. على الأقل شعرت شقيقتي بالحماس في أوقات البهجة الثورية. كان "ميلان" يتلقى الطعام من خلال نافذة صغيرة مكسوة بصفائح معدنية. يصفعونها بقوة بعد أن يلقون إليه بالطبق. كان يقضي حاجته في دلو، وكان معه في نفس الزنزانة رجل، تشاجر مع أخيه وأحدث به إصابات بالغة.

من الواضح أن أحدهم قد أبلغ عن لقاءات طلائع المتذمرين، لأن الرفقاء ذهبوا إلى هناك بناء على معلومات مؤكدة. كانت أمي و"شرامك" هما الشخصان البالغان الوحيدان اللذان يعرفان بأمر اللقاءات. ولم يكن أحد يحمل مفتاح المجمع سوى "هونيات" الذي يظهر هناك إلا نادرًا. لكن أفراد أمكن الدولة جاءوا، وفتحوا البوابة من الخارج بكل سهولة.

أتذكر أن أمي عندما علمت من شقيقتي التي كانت من أوائل من أطلقوا سراحهم بما حدث لـ "شرامك" امتقع وجهها. كانت تتجول

Twitter: @ketab_n

بالشقة مثل الميت الحيّ، ومثلها فعل أبي، راح يتردد بين المطبخ وغرفة الاستقبال وهو يردد، ويقول: شيء جنوني!

كان من المتوقع أن يتوقف شخص مثلي عن مراقبة ما يحدث في مجمع النفايات طالما كان "ميلان" سجينًا، وحصل فريق الأطفال المناضلين على ما يستحقونه. ما الذي سأجده وأمي تجوب الشقة، وتبكي في العمل. لو أنها تفعل ما تفعل لأنها أبلغت عن "شرامك"، فهذا أمر جيد. لكنني لم أفهم. توقفت الدراسة في المدرسة تقريبًا، ولم يعد أحد من المدرسين يتابع حضور التلامذة. وعاودت أنا مراقبة ما يحدث في المُجمّع من خلف النوافذ مثل عضو ناشط في قبيلة "هوكاما" الهندية، لا يكل ولا يهدأ. رغم ذلك رأيت أشياءً من خلف النافذة. رأيت أمي التي كفّت عن البكاء بعد يومين، وانشغلت في ترتيب المكان بهمة لم تحدث من قبل. راحت تصنف خردة معدنية قديمة، ومخلفات ورق مقوّى، وصناديق مليئة بكتب متهالكة، وزجاجات. رتبتها كل حسب نوعه. نظّفت الأرضية، ثم أخذت تحيك شيئًا ما من قماش ملوّن، وتصنع أشكال قلوب كبيرة، وزهور ضخمة، وتلصقها على الحائط. كانت تقوم بكل ذلك وهي جالسة في أحد الأركان، فلم أراها جيدًا. انصرَفت مسرعة لأني وعدت "أنديلا" أن أمرّ عليها. لكنني في اليوم التالي وجدت ستائر معلقة فوق نوافذ المجمع تشبه ستائر غرف المعيشة. فانتهت بذلك أعمال التجسس التي أمارسها.

لم يظهر على أمي أي تغيير وهي في البيت. لكنني أقسم أنها في تلك الأيام استعادت صوابها. كانت تضمني إليها ونحن في غرفة الاستقبال، وتحتضنني طويلًا حتى كدت أختنق. أردت أن أقول لها: لماذا لا تحتضنين

Twitter: @ketab_n

أبي بهذه الطريقة. لكنني أدركت الأمر على الفور. لقد كنت مجرد دمية تحتضنها بدلًا من "شرامك". شعرت بعدها بالغثيان، مثلما يشعر الهنود في عرض البحر وهم فوق السفينة في طريقهم إلى أوروبا قادمين من "العالم الجديد"، فقط كي يقدمون عرضًا في السيرك. هكذا كان حالهم أيضًا. لا شيء يمُرّ لحسن الحظ دون عقاب. وستتضح الأمور لاحقًا.

أفرجوا عن "شرامك"، لكنه لم يعد إلى المُجمع، لذلك ذهبت الزينة التي أعدتها أمي لاستقباله سُدىً. يبدوا أن السجن ساعده كثيرًا، فخلال بضعة أيام أصبح "ميلان" أحد زعماء الثورة المضادة في "كراكوف". تغيّر المجتمع تمامًا في الأشهر التالية، من نوفمبر عام تسعة وثمانين وحتى ربيع عام تسعين. فجأة دخل من كان بالخارج، وخرج من كان بالداخل، طالما لم يتمتع بالذكاء والمرونة. إنه مصطلح انتشر في التسعينات، وكان رائجًا بين الناس وقتها. منهم "هونيات" وغيره الكثير والكثير من الرفقاء الأوفياء للشيوعية، هؤلاء كلهم تأقلموا مع الوضع الجديد تمامًا.

استغرق الأمر وقتًا حتى تأقلم الناس مع الأوضاع الجديدة. راحت غالبية الجيران تنتظر في ترقب حتى تتضح الصورة تمامًا. كان من السهل أن يفهم أي شخص أنه لا جدوى من الدفاع عن النظام. كان هناك من يحاول أن يشارك في اللقاءات، أو يحضر الاجتماع، ويقف بعيدًا منزويًا. وظهر من بينهم من كان لديه الجرأة على أن يردد الهتافات هنا وهناك، لكن بعد بضعة أيام يبدأ فيحمل الشعارات الملونة. أو في أسوأ الأحوال يتقوقع على نفسه وهو يقف وسط الحشد بجوار مساعد الأمين العام للحزب الذي يتطلّع حوله باستنكار كي يدفع عن نفسه الشعور بالخزي. لم يكن سعيدًا بالطبع. كان

Twitter: @ketab_n

خريف عام تسع وثمانين وقت الخطط الكبرى، وقت اللعب بالأعصاب. وانهارت فيه أعصاب ضعاف البنية.

كان المتذمرون بالطبع هم المنتصرون. وبعد السابع عشر من نوفمبر حين انطلقت المظاهرات المليونية ضد النظام الاشتراكي في مدينة "براج"، اندلعت بعدها بأيام مظاهرات في "كراكوف"، يومًا بعد يوم عند النصب التذكاري لرائد الفضاء "ريمكا"، ثم اتسعت ووصلت إلى ميدان الثورة الكبير، وأخذت تتزايد كل يوم. بدأت ببضعة متذمرين متحمسين، من عشرة أو خمس عشر شخصًا، وبعدها بأيام انضمت شقيقتي مع مجموعة "ستاندا فيلديتشكا"، لحقهم بعدها "شرامك" بعدما أطلقوا صراحه، وسرعان ما التف حولهم الآخرون. عمال من مصنع "انستاف"، ومدرسين، وبضعة أطباء وحيدون في المدينة، وبائعات من متجر بيت الخدمات، والسيدة التي تعمل في منفذ بيع الجرائد، وكانت تضع باستمرار لافتة عليها عبارة: سأعود على الفور، كما كان يفعل السيد "هونيات". انضم للمظاهرات أيضًا أشخاص بملابس متسخة. شاركوا في المظاهرة وسط مجموعات كبيرة، وعمال من عند المجففات العملاقة التي كان يعمل فيها، كما حكي لي أبي، ثلث سكان "كراكوف" كي يحافظون على الحياة في المدينة. بدأ المتذمرون الشجعان المظاهرة، وسرعان ما انضم إليهم الباقون.

كانت المظاهرة في مدينة "براج" عبارة طلبة يحملون المفاتيح، ويهزّونها لتصدر صليلًا. عندنا في "كراكوف" كانت عائلة "فيدليتشكا" في الصدارة؛ "ياركا فيدليتشكوفا"، والده "ستاندا"، وكنا جميعًا متورطين في الأمر، كل أسرتنا.

Twitter: @ketab_n

دقت "ياركا" جرس الباب ليلة السابع عشر من نوفمبر عام تسعة وثمانين. في البداية رفضت أمي أن تفتح لها الباب. كان الساعة قد تجاوزت منتصف الليل. فصاحت فيها أمي من خلف الباب: ألا يمكن أن تنتظري حتى الصباح؟ لكن شقيقتي زعقت فيها كالمجنونة، وطالبتها بأن تفتح لها الباب فورًا. لم تفتح الباب إلا بعد أن سمعت أنينها، فنظرت من العين السحرية فرأت إحدى عيني ياركا مُخضَبة بالدماء تمامًا، وفوق عينيها المنتفختين وعلى وجها ندبة دامية من أثر لطمة حِزام ما. مرت بأمي وكأنها لا تراها، ثم اندفعت نحو شقيقتي في غرفة الاستقبال واحتضنتها بقوة. راحت "ياركا" تنشج وهي تهمس في أذن "ميلادا"، بينما انصرفت أمي إلى الحمّام لتحضر مطهرًا وضمادات. بعدها بنصف ساعة انصرفت "ياركا" مع أبي في سيارة استعارها من أسرة "هروبش"، وذهبا إلى المستشفى لخياطة الجرح. حجزوها في المستشفى لمدة يومين. ذهبت شقيقتي لزيارتها هناك أربعة مرات على الأقل، يرافقها في كل مرة شلة مختلفة، طلبت زيارة "ياركا". تولى "ستاندا"، الوحيد من عائلة "فيدليتشكا" الذي كان حُرًا وقتها، العمل على نشر الفوضى، والبلبلة في كل مكان. كان من الضروري إذكاء حالة الهياج التي نتجت عن تعرض "ياركا" للضرب قبل أن تبلغ حالة الحماس القادمة من "براج" أوجها. إنها زوجة رجل متذمر شهير، كان وقتها مازال سجينًا. فلم يتطلب ذلك وقتًا طويلًا.

كانت مشاهد المظاهرات من جميع المدن الكبرى في جمهورية "تشيكوسلوفاكيا" الاشتراكية تملأ شاشات التلفزيون. تلقت المدن شرارة الثورة المضادة واحدة بعد الأخرى مثل نزلة البرد، وصار المزاج العام يزداد حماسًا. توقف الناس عن الذهاب إلى العمل، واستعد الأذكياء منهم

Twitter: @ketab_n

الذين استغلوا الأجواء بمهارة لتصفية حساباتهم مع رؤسائهم. كان يكفي أن يجعل من نفسه في الوقت المناسب واحدًا من الثوريين، ومن رئيسه مواليًا للحزب الشيوعي أكثر مما هو في الواقع. دارت الدائرة. لم يتوصلوا يومًا لمن تعرض لـ"ياركا" بالضرب. استمرت التحقيقات وقتها طويلًا، لكنها قامت بدورها التاريخيّ على أكمل وجه، فسرعان ما بدأت الثلوج في كراكوف تذوب. هكذا كان الوضع. كان من الضروري أن يحدث شيء يحرك الموقف، فقد حان كما يقولون "وقت القطاف". حان وقت "التغيير" لأن النظام قد تعفّن. وهو ما كان يقوله كل من رأى في ذلك مصلحة له. كل من تحسنت أمورهم جراء التغيير.

كان المتذمرون في طليعة من توجهوا نحو ميدان رائد الفضاء، يرددون شعارات معادية للرئيس "ستانيك"، ويتهمونه بأنه من دبّر الاعتداء على "ياركا". يجب أن أعترف بأنهم كانوا بالتأكيد أناس على قدر كبير من الجرأة. لكن ما الفائدة من جرأتهم. عندما أقول عبارة ثورة مضادة فهذا يبدوا وكأنني ممن يطلقون عليهم الجيل القديم. ماشي. لكن عندما أقول إنه كان تدمير لكل شيء، وحتى الجيد منه، فسيكون وصفًا دقيقًا. سأتحدث بصراحة. لم يكن سوى انتزاع الحرية من طفل ألقوه مع الشيوعية في وعاء واحد. هذا ما أراه واضحًا وجليًا عندما أعود بذاكرتي عشرين عامًا إلى الوراء. ربما كان وقت التغيير قد حان حينئذ، لكن ما حدث لم يكن التغيير المطلوب بالتأكيد. فالتاريخ يجب أن يتجه نحو غد أفضل، لكن ذلك الغد الأفضل لم يأتي بعد الثورة، أو كان غدًا لا يستحقّ ما حدث. ضاعت المساواة، وتحولت الحياة إلى صراع على المال. تبخّر وقت الفراغ مثل البخار من القدور. وسترون ما فعلوه أيضًا بالناس في "كراكوف". تحوّل المتذمرون إلى مواطنين مستهترين. كلّف

Twitter: @ketab_n

ذلك شقيقتي أغلى ما لديها. من السهل أن تصبح قائدًا بعد المعركة. أصبح كل يوم جاء بعد أيام الفوران الأولى في سبتمبر بمثابة مجهول قادم. صار الجميع يتوقع أن يظهر جيش أخضر من خلف أحد الأركان فجأة، ويبدأ فيسحق المتظاهرين. ظهر في الأسبوع الأول بعض رجال الأمن، طوقوا الميدان، وصوبوا بنادقهم نحو المتظاهرين ليخيفوهم. كان واضحًا أنه ليس لديهم أوامر بالتدخل، وهو ما فهمه الانقلابيون سريعًا. مرت بضعة أيام ولم يلتفت أحد إليهم. أخذ رجال الأمن يتراهنون على مَن مِن هؤلاء الشباب سيطلق صفارة البداية. كان الجميع يعتبر ذلك بطولة كبيرة: أن يدمّر زجاج لوحة الإعلانات الحزبية الموجودة أمام المتجر بحجر في يده، وأن يسخر من أحد الرفقاء، وأن يهين شبابًا في التاسعة عشر من عمرهم يرتدون الزيّ الرسمي. أخبرتني "أنديلا" أن صديقها كان واحدًا من هؤلاء الشباب الذين ذهبوا إلى الجبهة منذ عام. كان يضع خوذة على رأسه، فخفت أن أتقدم منه. لكن هؤلاء الشباب المصفحون اختفوا بعد عدة أيام، وتزايدت وتيرة الهياج العام يومًا بعد يوم. أخذ الرفقاء، الكوادر الكبيرة في الدولة، يسيرون وسط الناس وهم يرفعون ياقاتهم حتى بلغت آذانهم، مطأطئين رؤوسهم، يحاولون فهم معني الشعارات المكتوبة فوق لافتات الانقلابيين عند ناصية متجر بيت الخدمات. يتظاهرون بأنهم مرّوا هناك صدفة. لكن الأمر كان واضحًا. رأيت هناك بنفسي "هونيات" مع "شميد" و"ستانيك". لكن لو أراد الإنسان أن يصحح ما يحدث، فعليه أن يستبدل سياسة الترقب بحماس ثوري حقيقيّ. حمل "هونيات" العلم ثلاثي الألوان. كان أول من تقدم وسط الرفقاء، وراح يحرك العلم بالقرب من المنصة كي يثبت للمتذمرين الذين يلقون الخطب فوقها أنه واحد منهم. حتى أنه قام بإصلاح ميكروفونًا قد عطب، في الوقت الذي كان

Twitter: @ketab_n

زملاؤه ينتظرون رفقاء قادمين من مدينة "منيسك"، إحدى مدن "تشيكوسلوفاكيا" الجديدة. وهو اسم الغائط في لغة "روسيا البيضاء".

كانوا الرفقاء ينتظرون من مدن تشيكوسلوفاكيا الجديدة أن تقدم أكثر مما قدمت أثناء أحداث نوفمبر. توقعوا أن تكون تلك التجمعات السكانية التي حظيت بوضع خاص أنها ستكون قلعة المقاومة ضد الانقلاب. لكن بسبب المتذمرين الذين ابتُلوا بهم كي يحافظوا على النظام في البلاد لم تختلف المدن الجديدة مثل "كراكوف"، و"دراجدياني"، و"منيسك"، و"خاركوف"، ولا حتى "دبراتسين" في شيء عن "براج" أو "براتسلافا". بل على العكس. كان المتذمرون في المدن الجديدة منذ بداية الثورة المضادة على تواصل لصيق فيما بينهم. ظهر ذلك عندما شق قادة الثورة المضادة في مدينة "منيسك" طريقهم وسط الحشود، وتوجهوا نحو المنصة، فصاح "هونيات" من خلال الميكروفون قائلًا: نرحب بالأصدقاء من جنوب "مورافيا" في روسيا البيضاء! فاهتزّ ميدان الثورة من التصفيق الحاد. كان ذلك هو العرض الأول لـ"هونيات" في حلته الجديدة، ونجح فيه بامتياز. وبعدها سارت باقي أموره سهلة للغاية. فخلال ثلاثة أعوام أسس شركة لتصنيع الطوب من مخلفات البلاستيك، فحقق أرباح طائلة، وسمعة طيبة لدى فرع شركة "برونتوساور". وكانت التقنية التي يتبناها هونيات متطورة.

ظهرت في "كراكوف" وظائف مختلفة بعد الثورة. لكن قليلون هم من يعرفون لماذا قامت الثورة المضادة وكيف. اعتقد الناس للحظات أنها كانت مجرد تدريب وقائي. تحريض لا يجب أن نتوقف عنده، خطأ سيتم تجاوزه سريعًا، وسيعود كل شيء كما كان بعد أن ينفض الرفقاء عن

Twitter: @ketab_n

أنفسهم الغبار هناك في قمة السلطة. لم يظن أحد أنها نهاية حتمية لنظام اشتراكي ظلوا يبنوا فيه على مدى أربعين عامًا، ونهاية مجد متقلب لمدينة "كراكوف". لم يعتقد ذلك أي من جيراننا، ولا حتى أبي وأمي.

لو كان عندنا من يؤمن بالقوى العليا فسيكون أبي وأمي و"فيدليتشكا" أول من يسجد لها شاكرًا. دقت "ياركا" باب عائلة "هروبش" وعائلة "ماسال" قبل أن تأتي إلينا. لكننا كنا أول من وجدوه في العمارة، أو من ليس لديهم مانع في استقبال كبار المتذمرين وتقديم العون له. قمنا بوضع ضمادة على يد أول سيدة من أبناء الثورة المضادة في "كراكوف"، وغسل وجهها المدرج بالدماء. صارا من وقتها في أمان نسبيّ. أمكنهم أن يلزموا البيت كي لا يتجمدوا في الاجتماعات بجوار كل زملاءهم وجيرانهم الذين كانوا هلعين متحفظين كما كانوا دائمًا. كل منهم يتجسس على الآخر.

انتهى ذلك العصر بلا رجعة. تغيّرت قواعد اللعبة. سجد أبي وأمي لله حمدًا على أنهم كانا من المحظوظين. ولأن المكاسب السياسية، وصفوة الأعمال لا تؤثر في الأفراد بل في الأُسر صرنا تحت مظلة آمنة، انفرجت بكل تواضع فوق أسرتنا، فلم تسقط علينا أمطار الثورة المضادة. بل انضمت إلينا. كانت واحدة من بنات عائلة "كوماريك" التي أبلغت أمها عن "شرامك" عندما بدئوا يغيرون على طلائع المتذمرين، لكنها أخبرته بتعاونها مع أمن الدولة، وغضت الطرف عن أنشطته المعادية للنظام منذ البداية. كان "ميلان شرامك" يتلاعب بالنظام كما يتراءى له وهو تحت أعين المراقبة زوجة "كوماريك". لكن أحد لم يعرف شيئًا عن السترة التي حاكتها له أمي كي لا يشعر بالبرد وهو يقرأ الكتب الممنوعة تحت المصباح في أحد أركان مجمع النفايات.

Twitter: @ketab_n

إنها ابنة عملية لأمن الدولة التي لا تستطيع أن تؤذي دجاجة. هذا ما قالوه عني. قالوا أيضًا إني من أسرة ساعدت المتذمرة زوجة "فيدليتشكا" وقت الحاجة، تمامًا كما يساعد الجار جاره. قالوا أيضًا شيئًا آخر. إنها شقيقة "ميلادا" التي كانت ترافق "فيلديتشكا" الصغير وقتها، وكان هذا شرف كبير تناقله الجميع، لم يكن أحد ليرى "ميلادا" لولا وجودها بجوار "ستاندا" في ذلك الوقت.

جعل السجن لمدة ثلاث مرات من "فيدليتشكا" الأب المتذمر رقم واحد في "كراكوف". لم يكن أحد يهتم إن كان قد قضى بداية الثورة المضادة نائمًا أو هائجًا في سجون النظام، ولم يظهر فوق المنصة في ميدان الثورة إلا في بداية ديسمبر. تقدم النجم "شرامك" للجميع الحاضرين السيد "فيدليتشكا" النحيف بذقنه البيضاء النابتة. فبدأ التصفيق الحاد من عند الأشاوس، ثم امتد إلى جميع الرفقاء، وراحوا يصيحون: "فيدليتشكا"! إلى القصر! رغم أن بعضهم لم يكن يعرف من هو "فيدليتشكا". ومن كان يعرفه منهم، لم يعرف أكثر مما كان يُكتب عنه في جريدة "كراكوف" المسائية على أنه عدو النظام الاشتراكي، أو من أقاويل المواطنين العاديين أن الأصوات القادمة من شقة عائلة "فيدليتشكا" تجاوزت الحدود المسموح بها.

ألقى "فيدليتشكا" خطابًا يقرأه من ورقة. قال ما كان يكرره في كل مرة، مثل قيادة جديدة للشركات، وحرية الرأي، وانتخابات شاملة، وحياة كريمة لأهل "كراكوف"، لأن "كراكوف" كانت تتهاوى – شيء طبيعي. فلنفكّر سويًا، ولنتكاتف جميعًا بغض النظر عن آراءنا الحزبية. تحدث "إميل فيدليتشكا" كقائد عمالي قديم وصالح. كان مصطلح الثورة

Twitter: @ketab_n

المضادة مازالت مصطلحًا اشتراكيًا، لذلك أعجبني الكثير من تلك الخطب. بعدها بأعوام اختفت عبارات مثل "نتكاتف جميعًا"، و "ثِمار العمل الجاد"، أو "تحقيق الأهداف المرجوة". اندثرت تلك العبارات رغم أنها كانت كلمات ذات فحوى جيد، تستنفر همم الناس، وتوجههم إلى عَمَل جماعيّ. لكنها اختفت إلى الأبد بعد بضعة أعوام من الثورة المضادة. بعد الانتخابات الحرة استعاد الناس ممتلكاتهم التي كانت تحت التأميم، وحدث تبديد للشركات الكبيرة. أوروبا. كانت هي العمل الجماعي الأخير.

بدأ "فيدليتشكا" الأب يظهر بشكل منتظم في كل الاجتماعات. كان هو و"شرامك" يتصدرون تلك الاجتماعات. وأصبح "ستاندا فيدليتشكا" قائدًا شابًا. من المؤكد أنه تناقش مع أبيه حول تداعي العمارات السكنية في "كراكوف" التي كانت المصاعد تتساقط فيها في كل لحظة. انتشر الفساد والسرقة على نطاق واسع، تمامًا كما كان يحدث بين الغجر، رغم أن الغجر كانوا يعيشون في الحي الثاني بـ"كراكوف"، ولم يسمع أحد شيئًا عنهم في الفترة العاصفة التي تلت الثورة المضادة. ماذا حدث معهم ومع شباب المدينة في الوقت الذي كان كل شيء فيه مباحًا؟ ماذا حدث؟

ظهر اتحاد عربات الأطفال. كانت أعمارنا تتراوح بين الرابعة عشر والسابعة عشر. ذهبت أنا وشقيقتي و"فيدليتشكا" الابن إلى مدرسة لتعليم إصلاح السيارات. يمكن القول إنها كانت آخر محاولة مني. أغنية البجعة قبل أن أنسحب من ذلك المجتمع نهائيًا، وأبدأ في حمايته، وخاصة حماية شقيقتي.

اتخذت خلية عربات الأطفال الشباب اسمها من المكان الذي كنا نجتمع فيه. في مكان تجمُّع عربات الأطفال بالعمارة الحادية عشر، في المدخل

Twitter: @ketab_n

الثالث من جهة اليمين. كانت أماكن عربات الأطفال المكان الذي اختاره العهد الجديد لممارسة أنشطته التجارية. غرف صغيرة في الطابق الأرضي من العمارة، تبعثرت فيها المخلفات بجوار عربات الأطفال على مدى سنوات. كان قرار منح تلك الغرفة لأحدهم يأتي بناء على رأي اتحاد مستأجري العمارة. لم يكن هناك داع للذهاب إلى مكاتب حكومية، والإلحاح عليهم. كان يكفي الاتفاق الودّي مع سكان البيت. تحوّلت تلك الغرفة منذ البداية إلى متجر تديره عائلة "ماسال" التي تقيم في الطابق الرابع. فصار المكان مأهولًا، وإلا لاستولى "ستاندا" على غرفة الصغار تلك. فلم يكن أحد في البيت يجرؤ على الوقوف في وجه رغباته. كان كل جيراننا، باستثناء عائلة "فيدليتشكا"، متفقين في كل شيء في تلك الفترة المبكرة من الثورة المضادة. مرت تلك الفترة سريعًا، لكن مع نهاية عام تسعة ثمانين وبداية عام تسعين أصبح ذائع الصيت، وصار "فيدليتشكا" يمتلك حق الفيتو. لكن عائلة "ماسال" كانت أسرع منه في العمارة التي تقيم بها، فاضطر إلى البحث في مكان آخر.

حصلت أنا على مفتاح غرفة عربات الأطفال في العمارة رقم إحدى عشر. كانت العمارة تعج بموظفين على المعاش، وسيدات كانت تعمل في سكرتارية الحزب الشيوعيّ. لم يكن أحدهم يجرؤ على الإعلان عن ذلك صراحة، لكنهم كانوا يتحفظون في التعامل مع "فيدليتشكا" الابن والأب أيضًا. ولم يكونوا كذلك معي. كانت ملابسي مختلفة. وعندما كنت أتحث في مجلس العمارة على حاجة الشباب إلى التعليم الجماعي، وقضاء وقتًا أكثر فائدة من الجلوس عند تمثال رائد الفضاء "ريميكا" كانوا يعتبرون ذلك مبادرة حقيقية من طليعة شابّة ناضجة. لذلك كان سكان تلك

Twitter: @ketab_n

العمارة التي تضم سكان من النظام القديم يحترمونني. كما أني وعدتهم بأن أحافظ على الهدوء من الساعة العاشرة مساءً، ولن أسمح للشباب أن يشتروا شيئًا ممنوعًا عليهم.

الغريب أني سعيت من تلقاء نفسي للحصول غرفة مماثلة لتكون نادي لشلّة "فيدليتشكا". أنا أيضًا لا أفهم حتى اليوم لماذا فعلت ذلك. ربما هي بقايا سذاجة. ربما اعتقدت أن الشباب من كل الأطياف -كما كان يُقال - سوف يذهبون هناك، وأن كل منهم سوف يحضر معه بضعة كتب، ويضعها في مكتبة مشتركة، وسوف أستمع إلى الأغاني من مُشغِّل الشرائط. وأننا سوف ننظم حفلات السمر والاحتفالات. كنت أرغب في ذلك أنا أيضًا رغم أني فتاة انطوائية، لم أتباسط يومًا مع أصدقائي. لم أرغب في التنازل عن مطالبي. هذا كل ما في الأمر. لذلك طردوني من غرفة عربات الأطفال. طردني أناس في عمري، ومن نفس بيئة طبقة العمال.

لم تكن ثقة الشيوعيين العجائز تعني شيئًا لاتحاد غرف الأطفال. عندما أخبرت "ستاندا" أني لعلى عهدي لأن الشباب في غرفة الأطفال يشربون كل ما هو ممنوع عنهم، وهناك من يقضي ليلته بالغرفة، ويُخلّف وراءه فوق سلم العمارة أعقاب السجائر. بحلق فيّ وكأنه لم يسمعني جيّدًا، ثم انفجر في الضحك، واستمر يضحك طويلًا. انصرفت من هناك وهو مازال يضحك، وكانت هذه آخر مرة أذهب فيها إلى هناك، أختي أيضًا كانت تضحك معه. لم تكن ضحكاتها عالية، بل مجرد ضحكة خافتة تضامنًا معه. لم تدافع عني رغم أننا من أسرة واحدة.

Twitter: @ketab_n

ما أدهشني هو أنها رغم ذلك اعتذرت لي في البيت، رغم أنها أضافت على الفور بأنني من عالم مختلف عن عالمهم، ولا مكان لي بينهم. تحدثت على طريقة الناصحين، وكأنها تتفهم موقفي. لكن رأيها لم يكن يعنيني في شيء. قالت إنني لا أفهم شيئًا، وإنني لا أفرق بين طفلة صغيرة تحمل راية في أحد العروض، وبين عجوز ترتدي خُفًا من اللباد، ولا أفهم شيئًا في أمور الشباب. ماذا تعني، لا أعرف. الشباب. طظ! حَبّ الشّباب. لم يظهر على وجهي. قالت "ميلادا": فتاة متكلفة، ساخطة!

انظري إلى نفسك! وأشارت نحوي بإصبعها، فتعثّرت أنفاسي فجأة. هوّني عل نفسكِ قليلًا! ألا تستطيعي ذلك؟ خرجت أنفاسي المحتبسة وكأنها بخار من مدخنة مصنع. لماذا لا يمكنكِ أن تتحدثي مع الناس بطريقة عادية؟ مجرد كلام، وتكفين عن إلقاء المواعظ.

- ماذا تقصدين بمجرد كلام؟

- إنهم لا يفهمونك، أنتِ لا تتركينهم وشأنهم.

أرادت شقيقتي أن تقول بأنني لا أخاف من أن أجاهر الناس برأيي. هذه حقيقة. فعندما يؤكدون جميعًا شيئًا خاطئًا أتقدم أنا. أنهض، وألقي خطابًا حول الموضوع الذي يتحدثون فيه. حول أضرار المخدرات مثلًا. عندما كانت مجموعة غرف الأطفال تنحرف عن الطريق، أظهرت وسطهم لأضع الأمور عند نصابها قدر الإمكان. إلى متى سأظل هكذا؟ إلى الأبد، إلى أن يطردوني من البيت. لكن ما لا يقتُلك يُقويك!

Twitter: @ketab_n

أعلن "إيميل فيدليتشكا" في أحد اللقاءات أن الشر لا يحارب بشر مثله. كان وقتها يتحدث عن الرفقاء الفاسدين، لكن الجملة أعجبتني بصفة عامة. كنت أتحفظّ على ما يحدث في اتحاد غرف الأطفال، ولم أخبر أحدًا بما كان يحدث هناك. كنت أحتاج لمن يشرح لي معنى المسطح المائل، لكن التراجع أمام الشرّ لا يختلف في ضرره عن ارتكابه، هذا ما كنت مقتنعة به منذ البداية. لقد تراجع النظام الاشتراكي أمام الشر بخطوات كبيرة، وأصابته سرعة إيقاع الحياة بالدوران.

تنحىّ الرفقاء عن قيادة البلاد، وأُحيلوا إلى المعاش المبكر، وأطقت أيادي المتذمرين الذين كانوا يزحفون من كل اتجاه مثل الفئران. وبدأ كل منهم، تمامًا كما كان يحدث من قبل، يُلقي خطبًا عصماء، وصارت حكايات الأنشطة المعادية للنظام مثيرة للضحك. راح كل واحد منهم يُقسم بأنه كان يمارسها في الخفاء، وكان من الأفضل أن يظل يخفيها عن جيرانه لسنوات طويلة. وأنه عندما التزم في العمل معهم، فلأنه كان يسخر منهم في غيابهم.

ذهب آل "هروبش" إلى لجنة الحي ليشكو من وجود جهاز تصنت في بيتهم، فقد كانوا في مكتب الحي يستمعون إلى ما يقوله الناس في بيوتهم. قالت السيدة "هروبشوفا" إنهم من حسن الحظ لم يقولوا شيئًا في حق غيرهم. لم تكن قد أدركت التغيرات التي حدثت، فخسرت ما حققته من بطولة ذلك الصباح. رغم ذلك كان موقفًا ينم عن مقاومة، رغم أن جهاز التصنت ذلك لم يكن ليسمع سوى الراديو، وشجار في العائلة بسبب الأموال، ويستمع إلى صوت "توماش هروبش" وهو يتدرّب على آلة البوق.

Twitter: @ketab_n

استدعوا أيضًا السيد "ماسال"، وأخبروه أن لديه صهر في المهجر، ولن يحصل على تصريح بالسفر إلى "يوغوسلافيا" في إجازة رغم أنه تلقى وعدًا بالسفر من قبل، فاشترت الأسرة كلها ملابس جديدة للبحر. وهنا تذكرت أمي "لوبور" الذي سخر منا عندما تركنا مدينة "لوتشا"، وقالت إنه كان يرسل لنا أيام الشيوعيّة طرودًا بها ملابس، وإننا كنا نرسل إليه سرًا في المقابل مسحوق زلابية البطاطس. وهذا ما حدث بالفعل. وحتى بدون ذلك فأبي وأمي كانوا يحبونه.

بمجرد أن أمسك المتذمرون بزمام الأمور في أيديهم، وقبضوا عليه بقوة، ظهرت تصفية الحسابات على الفور، وأخذ الناس يتخيّرون مكانهم في النظام الجديد بحماس، ويثبتون فيه أقدامهم بصلابة. فمن يرفض السعادة وهي تُقدّم له خاصة دون أية متاعب تعكر صفوها. لقد فرضها عليهم المتذمرون مع بعض التوبيخ. أخبروهم أن الشعب لم يتحلّى بالجرأة الكافية في زمن الاشتراكيين، فأفسدوا على المواطنين سعادتهم بعروض الفاكهة الاستوائية الوفيرة، ورحلات التسوق إلى "النمسا"، والحصول على سيارة "سكودا" دون الانتظار في قائمة طويلة.

صناديق مزركشة تحتوي على أحذية "أديداس" الأصليّة، بأربطة زاهية الألوان، وعلب أقلام بها خمسون قلمًا مزينًا بأشجار النخيل المكسيكية، وسيارات "فيراري"، وسُترات بأغطية للرأس، وكوكاكولا، ومعاطف شتوية من الريش، وسراويل ضيقة لامعة. تدفقت كل تلك البضائع إلينا بالأطنان بمجرد أن فُتِحَت الحدود، ووصلت إلى متجر بيت الخدمات في "كراكوف". كانت تكفيني أنا وشقيقتي مقابض الكؤوس

Twitter: @ketab_n

عندما كنا أطفال لنلعب بها. باستثناء الملابس التي حاكتها لنا أمي لبعض الوقت، وطرود عمي "لوبور" التي كانت تصلنا أحيانًا. كنا نلبس مثل جميع سكان "كراكوف" ملابس زرقاء باهتة. جاءت الرأسمالية، وتحول السباق من أجل استكمال الخطط إلى صراع على السيارات المستعملة القادمة من الدول الغربية، وتراجعت إلى الوراء سيارة "لاترا" التي كانت تنتج في "كراكوف"، وتراجع معها سريعًا دور مراكز صيانة السيارات في السوق التشيكوسلوفاكي. وعجز ماراتون التحول الاقتصادي عن الوفاء بكل احتياجات مدينتنا المتزايدة. لكن أحد لم يهتم بالأمر. كان لكل دولة صديقة من دول حلف "وارسو" مشاكلها الخاصة، وخبت رغبة الوفود الأجنبية في المجيء إلينا كما كانت تفعل من قبل. بل اختفى في الواقع حلف "وراسو". ولم يكن هناك سبيل لأن تأتي إلينا وفودًا من "أمريكا" أو من "فرنسا"، وتقطع تلك المسافة على طرق سيئة لتصل إلى غابات "كراكوف" النائية. ولو جاءت فلن تجد ما يستحق المشاهدة. صحيح أن بيت الخدمات كان متخمًا بالسلع الملونة القادمة من الخارج، وتراكمت حتى وتصل إلى سقف المتجر.

ذات يوم عادت أمي إلى البيت وهي تحمل سراويل "جينز" اشترتها لي ولأختي، وكانت مبللة تمامًا. حصلت عليها بتخفيض خمسين في المائة.

Twitter: @ketab_n

3

شبّه أبي ذات مرّة ما حدث بالغثيان بعد الإسراف في تناول الكحول، ورده أيضًا الناس العاديون. تستيقظ في الصباح فجأة، وتنظر من النافذة، فتجد أن كل شيء قد انتهى. وعندما تتحدث اليوم مع أناس عاديين تجد أن نصفهم يود لو أن كل شيء يعود كما كان. يعود فوق آلة الزمن على الفور إلى سنوات الثمانينات، ويستبدل "الميكروويف" الذي يعمل بالـ" الريموت كونترول" وحقيبة المشتريات من متجر "أَلبرت" ولو بعام واحد من إيقاع العمل الوديع الهادئ، وبقضاء إجازة نهاية الأسبوع في البيت، والأمان الاجتماعي. لم يكن تنفيذ الخطط الاشتراكية يتطلب كل هذه الهرولة، وكان هناك وقت لممارسة الهوايات المختلفة.

أخاطر بسمعتي لو قلت هذا صراحة بأني أدعم شخصًا يرتدي معطف بلغاري حقير. أصحاب المعاشات يزعجون صاحب رأس المال، وصار

Twitter: @ketab_n

التقدم في السن مُذِلّ في هذه الأيام. كان أبي يقول ذلك رغم أنه كان شابًا نوعًا ما. لم يتأقلم مع النظام الجديد.

لم يصدق أبي فكرة المستقبل الباهر في "تشيكوسلوفاكيا" الديمقراطية التي كان يروج لها المتذمرون، ورغم ذلك أعجبه الأمر في الأسابيع الأولى. وأعجب أيضًا كبار الحزبيين. فالأدرينالين مشترك لدى كل البشر، ونزل كالمطر في وقت الثورة المضادة، واستمر يهطل بعدها بقليل، ولعقه الناس مثل كلاب عطشى قبل أن ينطلقوا من جديد ليقرؤو لوحات الإعلانات التي وضعتها الشركات فوق الأعمدة، وصارت متخمة بالأوراق على عدة طبقات. تدفق الحماس في موجات متلاحقة، وحلت شعارات جديدة بدلًا من القديمة، شعارات حول الانتخابات الحرة. أخذت صور مرشحي "المنتدى الوطني" تطل علينا من نوافذ العرض، ومن الإذاعة والتلفزيون. من كل مكان. صفعات فوق الماء، تبعتها دوامة تسحر البشر، وتترك لكل منهم أن يفسر الأمر كما يريد.

مثلما تقف ملتصقًا بالنافذة تتابع العاصفة، لأنك لا تحب الماء وتخاف من البرق، لكنك عاجز أن تفعل شيئًا. عاجز على أن تبتعد عن النافذة لتتخلص من هذا العذاب.

كانت أمي لا تبرح مكانها طوال المساء أمام التلفزيون كي لا يفوتها مشاهدة "شرامك" عندما يظهر فيه.

Twitter: @ketab_n

تصدر "ميلان شرامك" قائمة المرشحين في "كراكوف"، ومدينة "دراجديان"، و"منيسك"، و"دبراتسين"، و"خاركوفا"، وجميع المدن التشيكوسلوفاكية الجديدة التي اتحدت معًا في بداية عصر الرأسمالية.

وجهٌ ملتحي لأحد رجال الثورة المضادة الذي كان يعمل في مجمع النفايات يلاحق الناس من على الملصقات في جميع المدن الجديدة، وخاصة في "كراكوف". كانت أمي تنجو بأعجوبة من الارتطام بالأعمدة وهي تمر بصورة "شرامك" مُعلّقة فوق صندوق محطة الحافلات. لكن بعد بضعة أسابيع أضافوا إلى الصورة أقراطًا، ونمشًا وبثورًا، وفقئوا له عينيه.

تأخر مرتب أبي لمدة ثلاثة أشهر وقتها، وكانت أمي بدون عمل تقريبًا. نمت النباتات في فناء مجمع النباتات الذي كان يومًا ما مركزًا مهمًا للرفقاء. كانت أمي تحرص على ألا يسرقوا منه الماكينات، وأخذت تنتظر اليوم الذي يبيعون فيه المركز للقطاع الخاص.

لكننا لم نصل إلى درجة من الفقر كتلك التي وصلت إليها "أنديلا لوميروفا" التي كانت ترتدي جوارب ممزقة وهي ذاهبة إلى مركز التأهيل، فقد ألغوا دار الحضانة، فخسرت السيدة "لوميروفا" عملها. صارت أمي خبيرة في المساومة على الأسعار. كان شراء الملابس الفيتنامية بمثابة دواء لقلبها الذي حطمه لها "شرامك". كانت أمي تشتري لنا الملابس بجنون. رزم من ثلاث أو خمس قطع من السراويل الداخلية، والجوارب القصيرة والطويلة مقابل ثلاثين أو أربعين كرون. وأيضًا حقائب يد مصنوعة من الألياف الصناعية، وتيشرتات لوالدي، وسترات لي ولشقيقتي بحمالات رقيقة على الكتفين.

Twitter: @ketab_n

لو كانت الهواتف المحمولة موجودة وقتها من المؤكد أنها كانت ستتصل بي وبشقيقتي يومًا بعد يوم لتسأل عن لون الجوارب التي نفضلها، وعن ملابس النوم التي اشترتها في أعياد الميلاد الماضية إن كانت قد صَغُرت علينا، لأن في يدها الآن بيجامات رائعة بمقابل بخس.

لم يكن كل ذلك سوى مناورات للتغطية على المشكلة الحقيقية. "شرامك" هو من جعلها تتحول إلى ماكينة للكلام. لم يكن هناك سوى هواتف تزن خمسة كيلوجرامات، يحملونها معهم وكأنها حقيبة سفر، ورغم ذلك لم تتاح إلا بعد بضعة سنوات. لم يكن يمتلكها سوى بعض المدراء في مدينة "براج". لذلك كانت أمي تتصل بـ"شرامك" من تليفون العمل لتسأله متى سيكون لديه الوقت ليأتي إلى "كراكوف" من أجل حملته الانتخابية، ولتعرف منه انطباعاته عن العاصمة. صار لـ"شرامك" مكتبًا في العاصمة، وآخر في "كراكوف"، ومدينة "درجداني" التي كانت مركزًا للمرشحين من كل المدن الجديدة، وكان مكتبه هناك مشتركًا مع مرشحين آخرين.

حاول أن يلعب دور المرشح المحبوب، فسافر بالقطار إلى معظم المدن. كانت سيارته قديمة، ولم يكن لديه سائق. كان ببساطة رجلًا شريفًا. ربما ذلك ما اعتقد الناس. فكلما كان يظهر أحد الرفقاء الأثرياء كانوا يرون فيما ينفقه على نفسه من أموال دافعي الضرائب عملًا غير أخلاقيّ، كأن يتحرّك أحدهم مثلًا في سيارة فاخرة. كان "شرامك" يستغل هذه النقطة في تلك الملصقات كما رأتها أمي. هذا ما يطلقون عليه اليوم كلمة شعبوية رغم البراءة التي بدت في عينيه وقتها. كذلك كنت أقرأ النشوة في عينيها وهي تنظر إليه.

Twitter: @ketab_n

في النهاية لم تنتهي العلاقة بين أمي و"ميلان" بثورة مضادة، رغم أنها قد تكون هي من أبلغ عن فريق المناضلين الأطفال. ولولا وجود "شرامك" في السجن في الأسبوع الأول من شهر نوفمبر لما علا نجمه سريعاً في العهد الجديد بتلك السرعة.

لم تكن أمي تتصل به من مكان العمل فقط. سمعتها عدة مرات بعد عودتي من مركز التعليم من خلف باب غرفة الاستقبال وهي تهمس في الهاتف، وتضع كفها على فمها. كانت عندما تخرج بعدها من الحجرة يكون وجهها متورّدًا، وتصفف شعرها بيدها. تلك كانت إيماءتها الشهيرة عندما تشعر بالقلق.

ورغم ذلك كان "شرامك" من نوع الرجال البليدة، سيئة المظهر. أتذكر أنه عندما كان يعمل مع أمي كانت شعيرات المكرونة في الحساء تبقى أحيانًا عالقة في ذقنه، وكان سرواله دائمًا مبلّلًا، حتى ذلك السروال الذي يرتديه بعد العمل.

كان بقاءه لفترة طويلة في العمل بمجمع النفايات بفضل مساندة أمي له بكل تأكيد. كان أحيانًا لا يجهد نفسه برفع رأسه عندما يأتي أحد الزبائن. كانت أمي التي تكبره بأكثر من عشر سنوات، بدلًا من تعنفه على أنه يقرأ الكتب ويتركها تزن الأوراق، تقول له: ستدمر عينيكَ بهذه الطريقة. أتذكر أن أحدهم أحضر يومًا خردة ما إلى المجمع، فأخذت أمي تهرول حول الميزان، وتسحب ألواح الألمونيوم من هنا وهناك. لم يخرج "شرامك" من مخبأة عند أحد الأركان إلا بعد أن انتهت تمامًا من كل شيء. لم يفعل سوى أن هزّ رأسه معتذرًا. أكثر من مرة كان على وشك أن يطردوه من العمل. لكن أمي كانت

Twitter: @ketab_n

دائمًا تتدخل في الأمر في اللحظة الأخيرة قبل أن يُبلغ عنه السيد "هونيات". لقد حاربت من أجل ذلك المتذمر بكل قواها.

ببساطة لم يتقنع "شرامك" بالعمل في ظل النظام الاشتراكي. لكنه نهض بعد الثورة المضادة، وصار في كل مكان، يتحدث عن الأوضاع في البلاد. أخذ ينشر مقالات في كل الجرائد، ومن المؤكد أن علاقاته لعبت دورًا كبيرًا في ذلك. فقد كان المتذمرون يمررون الأعمال بينهم، كانوا فريقًا واحدًا.

كان أبي على العكس من ذلك تمامًا، لم يتصل بأيّ من رفقاء الكابينة إن أراد جني بعض الأموال. كانت الكابينة التابعة لشركة "انستاف" لديها ما يكفيها. غرق القائد الرفيق "شميد" في قضايا إهدار بضعة كيلومترات من أنابيب الصرف. كان الناس العاديون يسرقون في زمن الشيوعية بقدر حاجاتهم. يسرقون بضعة ألواح من الأخشاب الحكومية لعمل أرضيّة جديدة في بيتهم الريفيّ، أو بضعة قطع من محل الحلوى ليضعوها على الطاولة يوم الأحد. أكثر ما كان يفعله أحدهم هو أن يسرق بين الحين والآخر عامودًا خشبيًا ليصنع منه صندوقًا للبريد، يضعه عند بوابة البيت. لكن صار حجم السرقات في العهد الجديد كبيرًا. اختفت حظائر المصانع بالكامل في حسابات بنكية في جزر نائية، وشاحنات من مواد البناء، ومخازن ساعات اليد، والحلي، وأنصاف أحياء كاملة. لم يسلم "هونيات" من تهمة إهدار المال العام، وكان وقتها مازال رجل أعمال مبتدئ في إعادة تدوير المواد البلاستيكية. غار منه أحدهم، فتذكر الأيام الخوالي، وأخرج ما في جعبته ضده في ربيع عام تسعين. أدعى أنه رآه في بداية الثمانينات مع شخص ما يجرّان أثناء الليل أغطية الشوارع المصنوعة من الصلب، ويتجهان بها نحو مخزن مجمع النفايات. لم

Twitter: @ketab_n

يظهر "شرامك" على أنه شريك في الجريمة، فقد كان لدى المتذمرين حق الامتياز في النزاهة، ولم تكن أمي لتقدر على حمل الأغطية. فالتصقت التهمة بـ"هونيات". ادّعى "شرامك" أنه خاف من الإبلاغ عما حدث، لأن "هونيات" كان من الكوادر الكبيرة في الحزب، وفي إمكانه أن يمحوه من الوجود في ظل النظام القديم. انتهى الأمر على هذا النحو: اعترف "هونيات" بأن شقيق عميل الشرطة قام بأشياء بشعة في مصنع "لاترا"، وابتزّ جنسيًا زوجة أحد المتذمرين الذي كان سجينًا مع "فيدليتشكا" وقتها. كانت إقامة علاقة تحت تهديد طرد الأطفال من المدرسة أهم من جرّ أغطية البلاعات الزهر أثناء الليل إلى المجمع، حتى ولو كان ذلك مخالفًا للقانون، فتبخّرت التهمة، وضاعت القضية. هكذا كانت العادة وقتها.

حضر "ستانيك" في التسعينات إلى "كراكوف" متحمّسًا لحضور جلسة لـ "المنتدى الوطني"، وقال إن البرد في العمارات شديد مع قدوم فصل الشتاء كل عام لأنها ينقصها طبقة عازلة. بدءوا على الفور يتحرّون الشخص الذي أشرف على البناء وقتها، ووضع الملايين مقابل تلك الطبقة في جيبه. توصلوا في النهاية إلى شخص يُدْعى "إيميل فوسا"، انتشر اسمه من بعدها في كراكوف في قول أخذ الناس يرددونه بينهم: فوسا فوسا... البرد عندنا من الكوسة! كان محظوظًا لأنه لم يسكن في المدينة، وإلا لرجمه الأطفال بالحجارة بمجرد أن يظهر أمام بيته. أطفال مدينة "كراكوف" الذين أصيبوا بالتهاب مُزمن في الأنف جراء البرد الذي عانوا منه منذ الولادة.

Twitter: @ketab_n

أشاعوا أن "فوسا" كان مسئولًا عن العديد من حالات النصب الأخرى في كل أنحاء الجمهورية. ولكن قبل أن يمثُل أمام المحكمة في منتصف التسعينات قلب الطاولة على من اتهموه، وتحول إلى مناضل ياباني مغبون.

كان هناك الكثير من تلك القضايا تظهر يوميًا. سرقات بسيطة لا يبلغ عنها أحد، حيث لا طائل من البلاغ. كانت الشرطة مثلها مثل شركات القطاع العام، بلا فائدة تُذكر وقتها. لا أحد يرُد على الهاتف، وفي كل مرة يكتبون محضرًا مطولًا، وانتهى الأمر، رغم أنهم قالوا إن لديهم قيادة جديدة. كانت الأخبار تتحدث كما كانت تتحدث من قبل عن كثير من التجاوزات، لكن أحد لم يُحقّق فيها. ذهب أبي ذات مرة إلى هناك ليُبلغ عن غجري سرق منه دراجته. كل ما حصل عليه منهم هو التوبيخ لأنه قال كلمة غجريّ، وكان يجب أن يقول رومانيّ. لذلك كان صحيحًا أن المواطنين لم يظهروا أي احترام للشرطة بعد الثورة المضادة. لكنه لم يكن صوابًا أن يفعل كل شخص ما يراه. قالوا إنها المرحلة الانتقالية. المهم أننا نعم بالحريّة. فخرست الألسن بذلك الهراء.

صحيح أن العدل يتحقق أحيانًا، وأخطاء الماضي يتم التكفير عنها، أو دفع تعويض ماديّ كما كان يُقال. فبدأ الناس يطلبون بتعويض عن كل شيء. عن العمل في المحاجر، وعن أصولهم البرجوازية التي سلبت منهم في الماضي، عن الحبس في سجون الشيوعيين، وعن الأرقام في معسكرات الاعتقال التي كتبوها بالقلم على معاصمهم.

اعتذر الرجل الذي لم يؤمن اللوح الإسمنتي جيدًا فسقط على والد "أنديلا"، وقضى على كلتا يديه. اعتذر للسيد "لومير" شخصيًا بعد عام

Twitter: @ketab_n

تسعين، وأيضًا حصل السيد "لومير" من الدولة على تعويض ماديّ بقيمة اثني عشر ألف، وعلى زيادة دائمة في معاشه قدرها خمسمائة كرون. لم يكن هذا ليحدث إبان الشيوعية. قالتها "أنديلا"، ثم سقطت دموعها من التأثُّر وهي تقف عندنا أمام مركز التدريب، متكئة على درابزين السلم عندما اتصلوا بها وأبلغوها بالخبر. وقالت وهي تنشج: من قبل لم يكن الإنسان يتوقع تحقيق أي عدالة، والحمد لله أن الشيوعية قد انتهت. وضعت يدي على "أنديلا" ألاطفها. كان أبوها يستحق الأموال، وهي أيضًا بالطبع.

لأول مرة في حياتي أرى كل شيء يتغير للأسبوع الثاني على التوالي، كل شيء جديد تمامًا. من الإبرة وحتى الصاروخ. لكن لا يمكن أن أنسى أنهم في نفس الوقت أغلقوا دار السينما الوحيدة في "كراكوف"، وفي "لاترا" حيث كان كل الناس تقريبًا تعمل فيها ألغوا ورش التجميع واحدة بعد الأخرى. وبدأ الناس يشترون من سوق الفيتناميين بدلا من بيت الخدمات.

"هونزا" و"فاندا"، لا يتذكر أحد أسمائهم الفيتنامية، وأسماء زوجتيهما، وكذلك بالنسبة لجميع الفيتناميين في مدينة "كراكوف"، كانا من أوائل من قدموا إلى "كراكوف"، ونمت تجارتهم سريعًا. نمت يومًا بعد يوم في أرض أمام بيت الخدمات مدينة صغيرة من الخيام تشبه السوق. فصار الميدان الإسمنتي الصغير مكانًا للعب كرة القدم يومًا، وساحة يجرب فيها الرضع أولى خطواتهم، ويومًا آخر يتحول إلى سوق يشبه أسواق "هانوي"، يثرثر فيه الباعة الفيتناميون، منحرفو العيون، ويدعوننا من خلف طاولاتهم الصغيرة لشراء بضائعهم. انتشروا في كل مكان، وفي كل لحظة يقول أحد الجيران إن أسرة فيتنامية جديدة قد انتقلت إلى عمارتهم. كان الجميع يشتري

Twitter: @ketab_n

من الفيتناميين منذ اليوم الأول وبكميات كبيرة. وكذب كل من قال إنه لا يشتري منهم. كان يشتري عندهم نفس الشيء بنصف ثمنه. فمن الطبيعي ألا تشتري إلا منهم. كانت التيشيرتات والأقمصة تتهادى فوق الشماعات، أو ترفرف فوق أعمدة عالية بكميات كبيرة. وعندما كانت الرياح تهب وهي تحمل رمال الصحراء كان الباعة يلقون الأغطية البلاستيكية بسرعة فوق أعمدة التعليق، ثم يختفون في مكان ما لبضعة دقائق، يعودون بعدها من جديد لمواصلة البيع.

يُقال إن عماراتنا كانت السبب في تلك العواصف الرملية. فلم يكن هناك ما يقف في وجه الرياح وسط شوارع مستقيمة، وسط مجموعات العمارات، خططها مهندسون شيوعيون. فصارت الرياح تهب من الصحراء على تلال "أوزباكستان". التشبيه المفضل لأمي عندما كانت تصف "كراكوف". كانت فيتنام شهيرة. تذكرت الأسواق الفيتنامية، وكيف تزايدت عندما رأيت صور الفتيات الفيتناميات الصغيرات ذوات العيون المائلة الصغيرة، والشعر المستقيم اللامع. كم تمنيت أن أسأل البائع عن السبب الذي جعلهم يتركون وطنهم لنسائهم، ولا يبنون فيه جنة للمستهلكين طالما أن الأمر يعجبهم، ويسعون فيه من الصباح حتى المساء. يجلسون بلا ملل فوق المقاعد، أو يبحثون في الصناديق لمدة نصف ساعة عن مقاس حذائك بكل هدوء. نحن المواطنون التشيكوسلوفاك، أو بالأحرى التشيك-سلوفاكيا كانت قد انفصلت وقتها -لا نملك هذا الجَلَد، ولا حتى القدرة على التنقل من مكان إلى آخر. فقد مرت بضعة أعوام قبل مجيء الفيتناميين، لم يأتي خلالها مواطن واحد طلبًا للإقامة. وفجأة جاء سيل من ذوي العيون المائلة. ربما كانت طلباتهم للحياة بسيطة، وكانت المدينة التي هجرها غيرهم مكانًا مناسبًا لهم. ما أعنيه أنني

Twitter: @ketab_n

تعاطفت معهم، وأنهم لم يجدوا في وطنهم ما يدعوهم للبقاء فيه. دارت في رأسي كل تلك الأفكار وأنا أبحث في السوق عن خف. وبدلًا من الفيتناميين الذين يرتدون أطقمًا رياضية تخيلت أناسًا حفاة، يرتدون قبعات من القش، ويتحركون فوق مراكب وسط حقول الأرز وليس وسط جبال ملابس ماركة "أديداس" المزيفة. ينامون في أكواخ من الطين. لم أفهم كيف وصلوا إلى هنا. كيف جاءوا؟ هل جاءوا في قوافل الخيل؟ من المؤكد أن كل تلك البضائع لم يحملوها معهم في الحافلة، ولا يمكن أن تسعها طرقات القطارات الضيقة. ومن أخبرهم عن مدينتنا؟ فلا يوجد منعطف من الطريق الرئيسيّ يحمل اسم المدينة. اختفت اللوحة الكبيرة التي كانت موجودة في السابق، وعليها كلمة "كراكوف"، المجد للعمل. كانت مازالت موجودة حتى عام تسعة ثمانين. حيث كان هناك تمثال برونزي لأحد العاملين، يقف ويسط حديقة صغيرة، وتلُفّه شُجيرات مُزهِرة. اختفى كل هذا.

ربما كان شعورهم الغريزيّ بأننا في حاجة إليهم هو ما أتى بهم لي هنا. إضافة إلى رغبة ما في رد الجميل. فقد ساعدهم الشعب التشيكوسلوفاكي في الحرب ضد الامبريالية، وجميل كهذا لا يمكن نكرانه. لم يتطلب الأمر مني أكثر من أن أغلق عينيّ لأرى أنهم جميعًا هنود. قبيلة تعاطفت معها، رغم أن سكان "كراكوف" كانوا يكرهونهم.

كانت زوجة السيد "ماسال" تتردد على الفيتناميين للشراء وهي ترتدي قفازات في يديها. وكانت دائمًا ترتديها وهي تعبث في صناديق البضائع الرخيصة. كانت تخاف من أن تصاب بمرض فيتناميّ. لكنها كانت تبيع

Twitter: @ketab_n

الحساء الفوري الفيتناميّ، والأطعمة المحفوظة، وعلب العصائر في متجرها الليليّ بالعمارة بسعر أغلى. لم تخجل مما تفعله.

كانت أمي تغسل كل الملابس التي تشتريها من السوق فورًا. كانت تفعل نفس الشيء أحيانًا مع الملابس التي تشتريها من مكان آخر. كان والدي مختلفين عن الباقين، لا يعاني أي منهما بأحكام مسبقة عن الآخرين.

لم يكن ممكنًا تجاهل الفتيات الفيتناميات اللواتي تتحركن حول المتاجر الصغيرة وهن ترتدين دائمًا بلوزات مُنشّاة. عناية شديدة بالنظافة ورثاها عن والديهم. لا يمكن أن تقارنهم بالغجر عن الإطلاق.

أكاد أجزم أن "ميلادا" لم تكن تعرف شيئًا عن قدوم الفيتناميين لوقت طويل. نادرًا ما كانت تظهر عندنا في البيت، تقضي أمسياتها في حجرة عربات الأطفال، في نادي المتذمرين أو عند آل "فيدليتشكا". أحبت "ياركا فيدليتشكوفا" كثيرًا. سمعْت أنها كانت تساعدها في أعمال المطبخ، وتقوم بأشياء لم تفعلها مع أمي. كانت أيضًا تختفي مع "ستاندا" في غرفته الصغيْرة التي وضع على بابها جمجمة، وعليها علامة "إكس" التحذيرية. لم يكن يستطيع أحد الدخول بدون إذن. ولي أن أتخيل ما يفعلانه هناك. كانت تقول إنه يعزف لها على الجيتار، ويقرآن الكتب معًا. كل هذا الوقت؟ كانت التربية في أسرة "فيدليتشكا" مُتحررة. لكن "ياركا" أكدت لأمي أنها تسيطر على الأمر.

لم تكن تنقص أمي الأعباء. بعد أن أغلقوا مبنى مجمع النفايات بدأت تعمل في مصنع السيد "هونيات" الصغير، أول مصنع قطاع خاص في

Twitter: @ketab_n

"كراكوف". لم تعمل في قسم الإنتاج. كان لدي "هونيات" متخصصون في ذلك الأمر. لكنها كانت تجلس في مقصورة عند مدخل المصنع، ترفع الشادوف للعربات التي تأتي للوقوف في مرفأ خاص بسيارات الشركة، وكانت أيضًا تسجل بيانات الزائرين. تشككت أنا وأبي في تلك الوظيفة في البداية. فكم شخص سيزور مصنعًا صغيرًا مثله في اليوم؟ كما أن "هونيات" كان تاجرًا حُرًّا، يدفع لأمي في وظيفتها الدائمة ثمانية آلاف كرون شهريًا. كانت أمي تعمل هناك كل يوم من الثامنة وحتى الخامسة مساءً. تشارك براتبها في مصاريف البيت، فتقبلنا الأمر دون جدال. كان عندها في تلك المقصورة ثلاجة صغيرة، وتلفزيون، وخزانة تضع فيها أشياءها. أخذت تُزيّن المكان مثل فتاة تُجمّل غرفتها في مدينة جامعية. لماذا؟ السبب واضح! كانت تلتقي هناك بـ"شرامك". في الواقع أنها كانت مقصورة للمداعبة بشكل أساسي، ومن وقت لآخر تدفع لأحدهم من خلف النافذة قلمًا ودفترًا لتسجيل الزيارة: في أعلى الصفحة يكتب الاسم واللقب، تاريخ الزيارة، الساعة، تاريخ وساعة الانصراف، والغرض من الزيارة. كانت تضع خطًا بالمسطرة فتنتهي بذلك وردية العمل. فتتفرغ لحل الكلمات المتقاطعة، ومشاهدة تلفزيون صغير أبيض وأسود، ومتابعة كاميرا عند صالة الدخول، ورفع الشادوف، وانتظار ميلان.

ما زلت لا أفهم حتى اليوم طبيعة العلاقة التي كانت بينهما. كانت شقيقتي تقول إن أمي مجرد ماكينة للمضاجعة. أنا أعرف، لكني لا أفهم أن تأتي سيارة، فترفع له أمي الشادوف مثل غيره، وبدلًا من أن يغادر الرجل السيارة، ويدخل إلى المصنع، يذهب إلى المقصورة التي تجلس فيها

Twitter: @ketab_n

أمي، ثم ينصرف منها بعد نصف ساعة وقميصه مبعثرًا خارج سرواله، وشعره منكوشًا.

هذا ما رآه أبي وهو جالس عند حافة الطريق أمام المصنع في سيارة استأجرها، ويرتدي نظارة سوداء. في البداية كان يعتقد أن ما كان يسمعه عنهما مجرد افتراءات. أُصيب أبي بخيبة الأمل من المدينة الاشتراكية. وأصبح مكروب النفس. كان أكثر ما تحمس له في حياته هو الانتقال إلى مدينة "كراكوف". وكان أسوأ ما فعله في حياته أيضًا. كان مُوفق في عمله في البداية في "كراكوف". كان عمره وقتها ثماني وعشرون عامًا. لكن بعد انتقاله إلى العمل في مقصورة السيد "شميد" صار لا يملك من أمره شيئًا. وطردوه من المقصورة قبل يوم من رؤيته للسيد "شرامك" يدخل إلى الكُشك الذي تجلس فيه أمي. كانت الشيوعية قد بدأت تتفسخ قبل ذلك بثلاثة أعوام، فساءت أحواله.

عندما سألها في المساء لم تنفي ما حدث. أخبرته بأن السيد "شرامك" كان يترك عندها أوراق تخص السيد "هونيات". أية أوراق؟ لم تعرف عنها شيئًا. كان يضعها في غلاف مغلق. كل هذا الوقت؟ نعم، لأن "شرامك" كان يكتب ملحوظات يرفقها بالمظروف.

- وأين كنت أنت؟

لم يقل لها إنه كان يراقبها مثل ابنتها التي كانت تترد عليها في مكان عملها لتتجسس عليها. لم يخبرها أنه كان يفعل ما كان يفعله الرفقاء أيام زمان وهم يجلسون في سيارة أمام منزل عائلة "فيدليتشكا". في الواقع أنها

Twitter: @ketab_n

لم تكن تمتلك الجرأة الكافية لتسأله: أين كنت. توارت تلك الأمور تحت سجادة البيت. صفع أبي الباب، وانتهى الأمر. لكن ظللت البيت سحابة سوداء من الصمت. استأجر أبي تلك السيارة عدة مرات بعدها كي يتحقق من الأمر، كما كان يدّعي. ثم بدأ يركبها وهو ذاهب إلى الحانة. ارتكب عدة الحوادث وهو عائد بها إلى البيت مخمورًا.

كان البعض أحيانًا يخاطب أمي بالسيدة الشابة. كن مجرد بائعات في المتاجر، يحصلن على رواتبهن في العهد الجديد بناء على يبيعونه. لذلك كانوا يكذبون ويتملقون. فأمي كانت من الجيل القديم. كانت تشتري لنا أشياءنا، وظلت لبضعة سنوات بعد الثورة المضادة تشتري لنا ملابس شيوعية، رغم أنها كانت قادرة على أن تحيك لنا أفضل منها. ليس غريبًا أن "شرامك" كان يخجل منها، فتركها في "كراكوف". في المدينة التي كان كثير من أهل مدينة "براج" يشكون في وجودها طوال فترة عمله السياسي، ويشكون في وجود مجموعة المدن الجديدة، في المشروع الذي لم يتحقق. كانوا يتساءلون: هل يعيش هناك أحد بالفعل؟

بعد طرده من العمل اشتغل أبي في وظيفة مُمَرّض. كان يقضي وقته في مستشفيات "كراكوف". كان العمل في التمريض من أولى فرص العمل التي توفرت. أشخاص بأغطية رأس بيضاء يستقلون السيارات، ويتجهون نحو مناطق "بوهيميا" الغنية، بينما ساد الهدوء والكآبة على الاتجاه القادم من هناك نحو "كراكوف" بعد الثورة المضادة مباشرة. كونك من مدينة "كراكوف" كان يعني أنك قادم من الجبال أو الأودية تمتد خلف سلسلة جبال "تشوكوتكا". ربما. وصمة عار. التصقت تلك

Twitter: @ketab_n

الوصمة بسكان "كراكوف" طيلة النصف الأول من التسعينات. كان هناك كثير ممن حلوا مكان المرضات. لكن النقص الكبير في أعداد الأطباء. فامتدت فترات الانتظار لعام أو أكثر. انتظر خلالها كثير ممن أرادوا أن يذهبوا إلى الطبيب، فانتقلوا في النهاية مع أُسرهم إلى "بوهيميا".

جاء بعض الفيتناميون إلى مكتب العمل بناء على دعوة عامة للتوظيف في مستشفى المدينة. كانوا بائعين قادمين من أكشاك البيع، لكن كان بينهم أطباء حقيقيون، يحملون شهادات من "هانوي". لكن من يعلم مدى صحة الأوراق المدموغة التي أحضروها، فلم يرغب أحد في الذهاب إليهم لكي يعالجهم أبناء الخيزران الذين لا يفهمونهم.

لكن أبي التحق بهم. قبلها ببضعة أيام جلس في البيت يفكر في الأمر. كنا نشاهد في التلفزيون نشرة الأخبار العامة التي لم تكن تعنينا في شيء. أخذ أبي يتجول بين المحطات هنا وهناك، يرى نفسه في زي التمريض الأبيض وهو في منتصف العمر، وعبثًا يبحث عن عمل آخر، عمل أفضل. وفي النهاية اتخذ قراره وذهب. لم يكن غطاء الرأس يناسبه، لكن الزي الأبيض، والخف البلاستيكيّ والجوارب البيضاء كانت تناسبه.

كانت شقيقتي الوحيدة التي هنأته على الوظيفة. كانت بالنسبة لي وظيفة مثل غيرها من الوظائف. أزعج أمي أن العائد المادي منها لم يكن مناسبًا. كانت شقيقتي هي الوحيدة تحدثت عن قيمة الوظيفة، وأنها سوف تتردد على أبي في المستشفى، وأنه بعد أن يتعلم هو نفسه سوف يساعدها في تقديم الإسعافات الأولية. أتذكر عندما كنا نتدرب على تلك الإسعافات في الصف السابع في إطار التدريبات الدفاعية كانت تدّعي

Twitter: @ketab_n

المرض كي تتجنب الزحف في الصحراء وهي ترتدي غطاء قدم بلاستيكيّ وتنظيف قناع الغاز. مخطئ من يعتقد أنها سوف تذهب بالفعل لزيارة أبي في المستشفى. لم يكن حماس شقيقتي سوى موجات في عرض البحر، هبّت لسبب مختلف تمامًا. لم نكن نلتقي إلا في المدرسة الفنية. أُلغيت العديد من الحصص، ولم يتبقى منها سوى حصص التدريب العملي. وكانت حسب ما أكده لنا المدرسون أهم ما في الأمر. فقد أخبرونا أنه في العهد الجديد لن تكون هناك فرصة إلا لمن يعمل بيديه، وليس للببغاوات المُنظّرين كما كان يحدث من قبل. المهم أننا كنا نقدم عملًا مفيدًا في مدرسة "لاترا"، عملًا يدويّا بدون أجر. كنا نقضي ساعات ندهن السيارات، ونفكّ شاسيهات السيارات عند خط الإنتاج إلى قطع صغيرة، ونُصلح مواسير العادم. كنا نعمل على خط الإنتاج، وفي ورشة الإصلاح كي نتعلم كل شيء، كما قال لنا المدرسون. اجتهدت أنا وشقيقتي في العمل أكثر من أبي وأمي. وهذا ما دفع أبي أكثر من مرة إلى أن يتبرم من أننا لا نعمل بأجر، ولا نساعد في مصاريف البيت.

كنت أحب العمل في مدرسة "لاترا". لا يختلف فهم قطع السيارات وأسباب الأعطال عن عمل الطبيب في شيء. لن يرى الإنسان العادي في حياته كل تلك القوة الكامنة في السيارة إلا تحت غطاء محركها. كذلك يتطلب تجميع السيارة، قطعة مع قطعة أخرى، حرصًا وتركيزًا وعناية. وهي خصال كنت أتمتع بها، على النقيض من أختي.

كثيرًا ما كنت أخشى من أن تقطع يدها أثناء العمل مثل السيد "لومير". فلم تكن تركز كثيرًا في عملها، ولم تكن تعليمات العمل تعني لها شيئًا.

Twitter: @ketab_n

مثل ممنوع التدخين في الورشة، وضرورة ارتداء معطف واقي، والالتزام بتعليمات التشغيل. صحيح أن بعضها كانت تبدو عبثية، على سبيل المثال: اغسل يدك قبل العمل وبعده. لماذا قبل العمل؟ كي لا تنتقل الميكروبات إلى الشحوم؟ هكذا كانت تتبرم شقيقتي وهي خارج مركز التدريب، ثم تتوجه مباشرة نحو الماكينات. أرها بعد بضعة ساعات وهي تطلي سيارة بالدهان خرجت من خط الإنتاج منذ زمن. أراها تقف وترش الحائط والمكبس بالدهان الذي قد يطال أحد زملاءها من العاملين.

أصرخ فيها: ماذا تفعلين؟ لكن "ميلادا" لا تبرح مكانها، تتسمر في مكانها كالعامود وهي تمسط ببندقية الرش، توجهها نحو الصالة الضخمة وكأنها تلميذ في مدرسة أمريكية جاء ليعاقب زملاءه وهو يحمل بندقية في يده. كان الطلاء يطال شعرها، ويسيل فوق جسدها، ثم يتساقط فوق أرضية الصالة.

لم تغتسل إلا في نهاية وردية العمل. وجدتها تجلس بعد الوردية على أرض غرفة الحمامات تنظر أمامها بعينين جاحظتين.

- هل أنتِ طبيعية؟

كان جسدها ينتفض من البرد وهي تجلس فوق بلاط الأرض الباهت، وشعرها المبلل يغطي عينيها.

- طبيعية أكثر منكِ بالتأكيد!

Twitter: @ketab_n

كانت خيوط البرق المرتبكة الصادرة من عينيها تقرعها. وكأنها عجزت عن أن تجد سببًا واضحًا لحنقها، سببًا تغضب من أجله على أحدهم.

- إلى متى ستبقين هنا؟ متى ستنصرفين؟

لم يخطر على بالي أي لوم أوجهه لنفسي أو لغيري. فوقفت معها على الأقل لخمسة دقائق أخرى. لو كان هناك من يستحق اللوم فهو أنا بالتأكيد. كانت الفتيات تغتسلن من حولها وتهمهمن. صدور مبللة ومؤخرات، فطأطأت رأسي.

وسألتها إن كانت غاضبة من نفسها لسبب ما. فكل منا عُرضة لأن ينحرف عن طريقه. وهذا أمر وارد.

- من نفسي؟

- ممن إذن؟

إنه السؤال الذي لم تكن شقيقتي قادرة على الإجابة عليه يومًا ما. من أن أحدهم لم يدللها يومًا ما. وهلل دللني أحدهم يومًا؟

طردوا شلتها بعد ذلك بوقت قليل من غرفة عربات الأطفال. فقد اشتكى منهم كل سكان العمارة. كانوا يريدون أن يصبح في العمارة متجر ليلي، أو متجر للملابس المستعملة مثل كل العمارات الأخرى، أو نادي للشباب الطيب، وليس لشلة ماجنة.

Twitter: @ketab_n

أخذوا بعدها يتسكعون في أرجاء الحي، يركلون الأحجار بأقدامهم، ويرشون الحوائط بالألوان التي كانت شقيقتي تسرقها من العمل. يكتبون عبارات لا أفهمها: حليقو الرأس قادمون! وغيرها من العبارات. أخذوا يعتبرون أنفسهم فنانين. وضعت "ميلادا" في أذنيها صفًا من الأقراط، فصارت مشوهتين متدليتين. وصار "ستاندا" هزيلًا أكثر من ذي قبل. عندما خاطبته وسألته عن سبب ارتداءه سترة بالية، اجتزّ كميها بدون سبب واضح كان يلوي وجهه، ويتجشأ هواء نتنًا في وجهي.

أعتقد أن الإنسان عليه أن يرتدي ملابسه بعناية كي يرى الآخرون أنه يحترمهم، وكي تبقى ملابسه في حالة جيدة لفترة ما. وتكون فضفاضة عندما تجلس المرأة كي لا تعتصر أعضاءها من تحتها.

ليس لكِ أعضاء على أي حال! نهرتني شقيقتي عندما علّقت على سروالها الداخلي الضيق، وعلى تنورتها التي بالكاد تغلقها. انتبهت إلى شيء. إلى أنني اعتدت على أن أكون رفيقة شيوعية، لا مُعلِّمة تلقي المحاضرات عن جمال بلادنا، اعتدت على أن أكون امرأة سليطة اللسان. اعتدت على أن تنعتني شلتها هكذا. لكن لماذا؟ لأني لا أحب ارتداء التنورات، ولا أرى أري عيبًا في العمل في ورشة إصلاح السيارات؟ أعطيت غالبية البلوزات التي كانت أمي تشتريها من الفيتناميين لـ"أنديلا" لأنها كانت تسعد بها. كان شعري قصيرًا على عكس شقيقتي. هذا هو كل ما في الأمر.

ابتدعت تقنية خاصة بي في مركز السيارات. أن أصنع من أحد الأسلاك الغليظة دائرة كبيرة، أضعها على رأسي، وأتحرك في إطارها بقدمي. كنت أقص مؤخرة رأسي بماكينة أبي. عندما كانت شقيقتي تراني بعد أن

Twitter: @ketab_n

أنتهي، تضع سبابتها في حلقها، وتعقد وجهها وكأنها على وشك تتقيأ. كنت أفسر ذلك بأنها تساير عصرها. كنت بعيدة عن أمور الموضة، سماعات أذن ضخمة، وسترات بالية، وبنطلونات وردية ضيقة، أو سراويل مزودة بأجراس. أو حتى حلقات الهيبز التي كانت تتأرجح فوق رقاب الفتيات والفتيان في شلة أختي يومًا ما، ثم الشارات الأخرى، وموضة اللون الأسود التي تقول: نحن أفضل منكم. أنتِ حثالة. لكني لست حثالة. كانت شقيقتي على قناعة بأن عليّ أن التحق بأي مؤسسة تضم شباب الطليعة السابقين. لم أرفض الفكرة نكاية فيها لأنها اقترحتها، كما تفعل هي دائمًا في كل مرة أقترح عليها شيئًا. في الواقع أني كنت في حاجة إلى شيء مماثل. كل إنسان يرغب في أن يكون جزءًا من مجموعة. الغناء الجماعي، أذناب الثعالب فوق القبعات، طوطم الهنود الحمر، صداقة حقيقية بين مجموعة من البشر تدوم مدى الحياة. ربما بيت ريفيّ يفي بالغرض تمامًا، لكن زمن الرأسمالية لم يعد فيه وقت لأشياء كهذه، كما أن والدي لا يملكان نقودًا لهذه الأمور. رغم ذلك كان "ستاندا" يسافر مع "ميلادا" إلى البيوت الريفية. يغرقون في شرب الكحول طيلة أيام السبت والأحد. في الواقع أن المتذمرون كانوا يحتقرون البيوت الريفيّة. وبدلًا منها كانوا يسافرون إلى البيوت الريفية الكبيرة المتهدمة، ويحدثون فيها الفوضى. كانت شقيقتي تقول إن البيوت الريفية الصغيرة الموجودة في المستعمرات لا تتسع لكل الناس، ولا فرق الموسيقى، أو براميل البيرة، لذلك فإن البيوت الريفية الموجودة فيها لا طائل منها، وممتلئة بجامعي الفطر والمتطفلين.

Twitter: @ketab_n

ذهبْت ذات مرة إلى أحد بيوت المتذمرين التي يقضون فيها عطلاتهم. كان بيت "كوزاتشك"، أحد زملائي في المدرسة الابتدائية. كان منشغلًا بي إلى حد ما، كما أخبرتني شقيقتي، وإلا لما دعاني إلى لذهاب معهم. كان المشهد حول البيت يشبه صورة على غلاف جبن مطبوخ يُصنّع في جنوب "بوهيميا". كان مشهدًا رائعًا. لكن وجودي في البيت كان لافتًا إلى درجة كبيرة. فغالبية من كانوا هناك يعرفون بعضهم البعض، أو كانوا يجيدون التصرف في مثل تلك المناسبات. رغم أن شقيقتي نصحتني بما يجب أن ألبسه، وعرضت عليّ ملابسها، لكنني رفضت. فلم يكن بها ما يناسبني. لذلك لم يتقدم أحد من وسط حشد السترات الباهتة ليتحدث معي إلا "كوزاتشك"، قبل أن يتعثر في أحد ألواح المطر ويسقط. أسعدني أن شقيقتي على الأقل عثرت عليّ من بين الحشد وأنا ارتدي تي شيرت ملون. لم تفكر في ذلك طوال اليوم إلا في المساء. كانت حشود السكارى تتنقل بلا توقف بين البيت الريفيّ وساحة الحظائر حيث تعزف الموسيقى، وعلا صوت أحدهم يصرخ، ويردد: خنزير! وفي وقت متأخر من المساء ظهر ثلاثة شبان يحومون حول النيران، وفي الصباح جلست هناك إلى جواري فتاة بملابس ملوثة وهي تبكي. كانت "ميلادا". التصقت بي وكأنها كلب صغير وجد مأواه.

أتذكر الكثير من تلك الأحداث. أتذكر شقيقتي وهي تبكي وترفض أن تخبرني عن سبب بكاءها لأني، كما قالت، لن أفهم شيئًا، ويجب ألا أتدخل في حياتها. لكن ما هي تلك الحياة؟ توقفت شقيقتي عن الذهاب إلى مركز التدريب. صارت لا ترغب في سماع كلمات أبي وهو يقول بأنه يُعيلنا، وأنها بدأت تضاجع "ستاندا" بعد أن كانوا أصدقاء. كان يمكنها أن تنتقل للعيش مع أسرة "فيدليتشكا" التي تحبها، والسيدة "ياركا" أيضًا كانت

Twitter: @ketab_n

تحب "ميلادا"، ولا يضرها أن تنام شقيقتي عندهم. لكن "ستاندا" صار شخصًا مهووسًا مثل شقيقتي، ويقضيا أوقاتهما على طريقتهما الخاصة.

كانت "ياركا" تضرب بعصا المطبخ على جهاز التدفئة، وهو ما كان يعني لأمي التي تسكن في الطابق السفلي أنهما سيلتقيان عندنا في الشرفة لمناقشة أمور هذين العابثين. عرض عليهما أبوه أن يقيما في غرفة نومه، وأن ينتقل مع "ياركا" إلى غرفة ستاندا طالما أن الأمور وصلت بهما إلى هذه الدرجة، وصارا مثل "روميو وجولييت". ومن السهل عليهما أن ينفذا الأمر.

قلت لشقيقتي: هل جننتِ! إلى أين ستذهبين؟ كانت مرتبكة، واختلط عليها الأمر فلم تعرف ماذا تفعل.

قالت أمي وقتها إن "ميلادا" شديدة الحساسية، ولا يمكن إقناعها إلا بالحُسنى. لكن شقيقتي رغم ذلك ضجّت من إلحاح أمي اللين، ولم يفلح معها كلام أبي. حاول أبي أن يستوقفها بيده عندما جاءت إلى البيت كي تغسل ملابسها المتسخة. فعقد يديه، ووقف في الباب كي يمنعها من الخروج. راح كل منهما يحملق في الآخر مثل قطة ترمق كلبًا قبل أن ينقض كل منهما على الآخر. كان الأمر ينتهي في كل مرة ببكاء حار من شقيقتي. بعدها يتركها أبي، ثم ينصرف مغمومًا، ويجلس فوق الأريكة. تكرر الموقف بالكامل عندما عادت "ميلادا" لتأخذ الغسيل بعد أن يجفّ. صرنا جميعًا، نحن وعائلة "فيدليتشكا"، عاجزين عن فعل أي شيء. إنه فشل التربية الليبرالية. بدأت "ياركا" تتردد علينا يومًا بعد يوم، وأبي يتبادل الزيارات مع "فيدليتشكا"، أو بالأحرى "إيميل". هكذا كان يناديه أبي، وهو يخاطب أبي باسم "ياردا". كان حوارهم الرئيسي حول الأولاد.

Twitter: @ketab_n

كذلك كانت المرأتان تنتحبان بسببهما، والرجلان يدخنان السجائر في الشرفة بالطابق الأعلى.

ما فشلت سجون الشيوعيين فيه نجح فيه ابني. قالتها "ياركا" لأمي في ساعة متأخرة من الليل بعد بضعة شهور من هروب "ستاندا" و"ميلادا" من البيت. وجاءت سيارة الإسعاف، وحملت السيد "فيدليتشكا" الموجوع إلى المستشفى. وظل الهاتف يرن في بيتنا بعدها لعدة أيام بلا توقف. أبي يتصل بأمي من مكان عمله، وأمي تنقل ما قاله إلى الدور العلوي، رغم أن أبي بالتأكيد قد تكلم مع "ياركا". فالعاملون يمكنهم أن يجروا مكالمات هاتفية مجانية من المستشفى.

لم يهتم أي من المواطنين العاديين بوجود "فيدليتشكا" بالمستشفى. كان الأمر متخلفًا عندما أطلقوا سراحه من السجن في ديسمبر عام تسعة وثمانين. هتف الناس وقتها: فيدليتشكا، مكانك في القصر! سمعنا تلك الهتافات في أخبار التلفزيون في العاصمة. لكن بطولة "فيدليتشكا" لم تستمر سوى بضعة أسابيع. تشاجر بعدها مع "شرامك"، وانسحب من الحياة السياسية في بداية التسعينات. أنا لا أعتبرها مكائد حدثت بينهما. ربما كان رجلًا عنيدًا، ومثاليًا إلى درجة كبيرة. مثلي أنا. قبل أن يأخذوه إلى المستشفى في إحدى ليالي شهر مايو، بقي في البيت لعدة سنوات، يترجم كُتيبات السيارات إلى الانجليزية لصالح شركة "لاترا".

ذهبت لزيارته في المستشفى. وجدته في حجرة بسرير واحد، تَدبّرها له والدي على سبيل التمييز، فوجدت "ستاندا" عنده. سمعت من خلف الأبواب صراخًا. كان كلاهما يصيح في الآخر رغم أن "فيدليتشكا" كان

Twitter: @ketab_n

ممنوعًا عليه الانفعالات. لكنه لم يتّبع بالأوامر. أبي أيضًا وقتها لطم شقيقتي على وجهها.

رأيت فور دخولي إلى البيت ظليهما قادمين من غرفة الاستقبال. كانت تطلب منه مالًا. كانت وقتها تقول إنها تعمل في سوبر ماركت "ماينل"، المتجر الحقيقي الوحيد في "كراكوف". لكني لم أصدقها.

كل ما سمعته وقتها: أنت عميل شيوعي! تبعتها لطمة صغيرة، وأخرى أقوى منها، وكأن شيئًا سقط فوق جهاز التدفئة. أخذت الحذاء بيدي، ولبسته خارج الشقة، في الرواق، ثم انصرفت سريعًا، وذهبت إلى "أنديلا".

كانت كل منا قد جاوزت العشرين، وكانت "أنديلا"، أعز صديقاتي، تقيم وحدها في الشقة. من كان يتوقع أن يحدث ذلك! لكني لست حسودة. كان بإمكاني الذهاب إليها في أي وقت، وكانت تلك ميزة. ازدادت رغبتي في التردد عليها بعد أن تركت شقيقتي البيت. كنت أنصت لما تقوله حتى الساعة الواحدة أو الثانية بعد منتصف الليل. كانت "أنديلا" في حاجة إلى من يسمعها.

قلت لها: ليس لدي صديق. شاب مخلص. لكن أنديلا كانت دائمًا لديها صديق ما. كنت أرى أن صديقها الأخير ثرثارًا، رغم أن الأقاويل الغريبة انتشرت في المدينة منذ فترة. كان الوضع من قبل مختلفًا. لم يكن هناك كثير من الأقاويل، ولم يتبادل الناس أحاديث القيل والقال. كنت أسمع بأذن وألقي بما أسمعه من الأذن الثانية. أقاويل الناس، وثرثرة "أنديلا"،

Twitter: @ketab_n

بأن صديقها الجديد أكثر خبرة في الحب من كل ما رافقتهم قبله، وأنه مُتفاهم.

إنه شيء يشبه الشجرة الوحيدة التي كانت عندنا في الصحراء. أتذكرينها؟ كنتِ دائمًا ترغبين في لعب دور الجوّال الهندي، والسباق على من سيتسلق الشجرة أولًا.

إنه مثل تلك الشجرة. عريض الكتفين، يحملني بيد واحدة. وتبتسم وهي تقول: يقول إني خفيفة كالريشة.

كانت صورة شقيقتي تتراءي أمامي بساقيها النحيفتين. وفي كل مرة تظهر فيها في البيت كانت تبدو أكثر نحافة. وكانت أمي تضع في جيبها حبات الشكولاتة خلسة. واصلت "أنديلا" حديثها: دعاني مرتان على العشاء في لوكاندة "أو هروباشو"، وقبلني بطريقة ساحرة.

ثم قبلتني. شعرت ببقعة مبللة لطيفة على وجهي. انتابتني رغبة جامحة في أن أسألها عن ذلك الشاب. من يكون. لكني ما زلت أتذكر جيدًا أنها في المرة السابقة أجابت بطريقة مستفزة. إنه أمير من بلاد "فارس". قالت وقتها، ثم أغمضت عينيها.

- ما هو عمله؟ إنه سرّ.

حكت لي "أنديلا" عدة مرات عن لقاءاتهم تلك. يُقلها بسيارته إلى مكان ما يقضيان فيه حاجتهما، ثم يأخذها إلى حيث تريد. غالبًا كان يصحبها إلى بيتها، يتوقف بالسيارة أمام المنزل لا يغادرها. أو أحيانًا كانا يسافران

Twitter: @ketab_n

معًا في رحلة عمل، تنتهي في إحدى الموتيلات عند أطراف مدينة "كراكوف"، لا يغادران الفراش طوال أيام عطلة نهاية الأسبوع. ثم يأتي رجل إلى مكتب الاستقبال ينادي: "أنديلا"!، فيصعد عامل الخدمة، ويدق على باب غرفتهما وهو يحمل طبق البيتسا أو شرائح اللحم.

"أنديلا" تحب اللحم، ودائمًا ما تحتفظ في الثلاجة بقطعة منه. رغم ذلك كانت دائمًا نحيفة، ورشيقة مثل الباربي.

- كم عمره؟ خمّني! خمسة وعشرون؟!

تقهقه "أنديلا" كالمخبولة، ثم تصمت، وتسألني عن شقيقتي.

أخبرتها عن تلك اللطمة في حجرة المعيشة. وأن شقيقتي تعيش مع "ستاندا" حاليًا في شقة فارغة في الحي الأسود. وأن شقيقتي تعمل في سوبر ماركت "ماينل"، و "ستاندا" يعمل مُوزّع. يوزع الطرود في أنحاء "كراكوف"، ويوزع الأطعمة لصالح أول مطعم فيتنامي في المدينة. كلاهما يرغب في أن يصبح فنّانًا، لكن والديهما يشكّان بأنهما يتعاطا المخدرات.

- ما رأيك؟ يجب أن أتحقق من الأمر. كيف؟

- سأذهب إلى هناك؟ إلى أين؟

- إلى الحي الأسود.

لم تظهر على "أنديلا" أية بادرة قلق. يبدو أنها اعتقدت أن الأمر مجرد مزحة.

Twitter: @ketab_n

لا أحد يشعر بوجودي في البيت، لا يسمعني ولا يبحث عني عندما أبيت عند "أنديلا". أحيانًا كنت أتصل بوالدي هاتفيًا بعد منتصف الليل. أفهم من كلامه أنهما يجلسان هو وأمي بجوار الأريكة، وقد شربا علبة الحليب، وبعد أن ينهي المكالمة سيذهب لإحضار واحدة أخرى من الثلاجة. كانت شقيقتي بمثابة الشعرة التي قضمت ظهر البعير. فلم يحدث أن توترت أعصابهم إلى ذلك الحد. انتشر القلق بين الناس في كل أنحاء "كراكوف"، وخاف كل منهم على عمله.

عندما تخيلت أن الخوف الأبدي من الفصل من العمل ينتظرني أنا أيضًا، لم أجد في نفسي الرغبة في البحث عن عمل آخر. لم ترتعد فصائلي من الرأسمالية، خوفًا أبديًا من أن يقللوا عدد العاملين، أو يلغوا خط الإنتاج الذي أعمل عليه. لا يمكن أن أتحمل طويلًا أن أستيقظ كل صباح بذلك الخوف. ولو حدث سيكون على والديّ أن يتكفلا بي.

أغلقوا المصانع واحدًا تلو الآخر، وأخذ الناس يهجرون المدينة. أُسَر بأكملها، وعمارات وطوابق عمارات كاملة فَرغَت من سكانها. أمي أيضًا لم تكن واثقة من أنها ستبقى في عملها يومًا أو ساعة واحدة. فحدث أن توقف عندها السيد "هونيات" شخصيًا أكثر من مرة، وأخبرها بعينين حزينتين عن نقص في الأموال. كان من حسن حظ والدي أن "كراكوف" أصيبت بموجة من الأمراض، جعلت العاملين في مجال الصحة في مأمن من الطرد، على الأقل إلى حين.

بدا الأمر وكأنه وباء انتشر في المدينة. في البداية قال أصحاب رؤوس الأموال أن الناس لا ترغب في الذهاب إلى العمل، وأن "كراكروف" التي

Twitter: @ketab_n

أفسدها نظام المدن الجديدة التي تتمتع بوضع خاص عاجزة عن التأقلم مع الأوضاع الجديدة. كانت الناس تتهادى في شوارع المدينة وهي تحمل حقائب متخمة ببضائع الفيتناميين، رغم ذلك لم يكونوا سعداء بتلك المشتريات. فالمعاطف الفيتناميّة لا تدفئهم في الشتاء، والأحذية الرياضيّة لا تُعمّر أكثر من أسبوع. لم يكن هناك سوى عزف على أمنيات بأن الأحوال في المدينة سوف تتحسن. عزف يدعو إلى النوم، عزف لأغنية مبتذلة حول التقشف، تقشف في انتظار القادم الأفضل، في المشمش! كان الأمر يدعو إلى النوم، من الصباح وحتى المساء، خاصة بالنسبة لمواطن مريض، وألا يستيقظ إلا عندما تتحسن الأحوال. عندما يعود المركز الثقافي إلى المدينة، وعندما يفتحون المصانع من جديد، وعندما يكملون بناء المسبح الذي وعدنا به الرفقاء.

فاز "المنتدى الوطني" بأول انتخابات حرة في "كراكوف". شيوعيون آخرون، لكنهم لم يفعلوا شيئًا. لم يعبأ السيد "ستانيك "الذي تصدر قائمة الرفقاء في العهد الجديد في "كراكوف" بحقيقة أن باقي الأحزاب تدعم الشيوعيين بنسب كبيرة على مستوى الجمهورية، ورغم ذلك كان يثني على الناخبين في المدينة، تمامًا كما كان يحدث قبل الثورة المضادة. إنه الرفيق الذي سرق الكثير، لكنه كان صريح على الأقل. على عكس السيد "شرامك" الذي حملته "كراكوف" على الأعناق، فذاع صيته في كل أرجاء الجمهورية، ولم يفعل للمدينة شيئًا. لم يكن "ستانيك" رجلًا محتالًا، ولم يخجل من المدينة التي ينتمي إليها، على عكس "شرامك". قال "شرامك" ذات مرة في تصريح للصحافة الحكومية إنه من مدينة "ترشابيتسا". من "ترشابيتسا"؟!

Twitter: @ketab_n

لم يخجل "ستانيك" من أنه أحد مواطني "كراكوف". كان رجلًا وطنيًا قبل أن نعرف أنا و"أنديلا" معنى الوطنية. لذلك أردت أن أذهب للقائه قبل أن أنخرط أنا و"أنديلا" في العمل الوطنيّ، وننضم إلى الشيوعيين. طبعًا. ومَن غيرهم ننضم إليه؟ مَن غيرهم قادر على أن يبني حائط سد ضد الرأسماليين الذين أصبحوا فجأة سادة العالم، بعد أن كان يقف كل من أراد منهم أن يتاجر في أتفه الأشياء صاغرًا أمام الإدارة. وفجأة صار التجارُ سادة العالم. صاروا يسبونهم فقط لأنه يحسدونهم على ما هم عليه. هراء! لقد أزعجنا سادة العالم بسبب ظلمهم، لا أموالهم. فمن يجتهد في العمل يستحق أن تكون حافظته متخمة بالنقود. وهل كان الأمر كذلك من قبل؟ نعم، أحيانًا. كان مدمني العمل الذين ترتعش أيديهم عند الظهيرة لنقص الكافايين يستحقون أن يجلسوا في سيارات بمقاعد وثيرة، كذلك كان أبي وأمي يحصلون على صندوق من زجاجات النبيذ كمكافأة، ويجلسون أمام التلفزيون في المساء يحتسونها. لكن لم يكن ممكنًا أن تجد مبررًا لأن يتقاضى أحدهم راتبًا عشرة أضعاف راتب شخص آخر. فثمانين ساعة عمل في وردية واحدة لا يتفق مع يوم طوله أربع وعشرون ساعة. إلا إذا كانت ثمان ساعات العمل اليومي أكثر كفاءة بعشرة أضعاف. لكن كيف وعاملات الدهان في مصنع "لاترا" لا تستطعن الذهاب لتناول وجبة خفيفة بسبب ضغط العمل أثناء الوردية؟ سرحوا ثلاثة من كل أربعة عاملات، وصارت الواحدة تقوم بعمل اثنتين. هكذا قاموا بتخفيض التكاليف، والإنتاج أيضًا، وضربوا عصفورين بحجر واحد.

طرقت ذات يوم على باب مركز الشيوعيين في "كراكوف". الله وحده أعلم، لماذا كنت على قناعة بأنهم سوف يسعَدُون بوجود دماء شابة بينهم. كانوا

Twitter: @ketab_n

يلتقون هناك مثل شباب المتذمرين المزيفين في إحدى غرف عربات الأطفال. كتبوا على الجرس بقلم حبر عريض: الحزب الشيوعي لمنطقتي "مورافيا وبوهيميا". عرفت بمواعيد لقاءاتهم، فجئت مباشرة لألتحق بهم. وجدت "ستانيك" وآخرين يجلسون على مقاعد رثة، جاءوا بها من مقر اللجنة المركزية. أمامهم طاولة كبيرة من الفورمايكا. وفي ركن الحجرة مزهرية من الورود الصناعية. بدا كل ما هناك متداعيًا، حتى أرواحهم كانت كذلك. قالوا إني الوحيدة التي دقت بابهم بعد اندلاع الثورة المضادة. فضلًا عن آخرين جاءوا لكي يسبوا الشيوعيين بقسوة، أو أطفال يدقون الباب بغرض السخرية، ثم يختفون في شوارع الحي. لقد انتخبهم الناس بسبب سخطهم على ما يحدث، لكنهم رغبوا عن الجلوس معهم ومشاركتهم الخطط. من ذا الذي يرغب أحد في أن يُضيّع وقت فراغه مع مجموعة من الوجوه المرهقة. هكذا قلت لنفسي فور رؤيتي لهم، لكني لم أتحدث.

كانوا يضعون الخطة الانتخابية: أين سيكون كشك بيع البيرة، وأين ستتحرك عربات اللحم المطبوخ في الشوارع. كيف سيحافظون على البيرة باردة أطول وقت ممكن، وعلى اللحم ساخنًا قدر الإمكان. يا له من أمر جلل! أعتقد أن هناك أمور أخرى جديرة بالمناقشة. انتظرت أن يأتي الدور على تلك الأمور الأخرى. لكن النقاش كله دار حول الطعام والشراب، إضافة إلى الشعارات التي سيكتبونها على الأكشاك، وبما سيكتبونها على وعاء اللحم المستدير بحيث لا تمحوها أيادي ترتدي قفازات بلاستيكية.

Twitter: @ketab_n

عندما ذهبت إلى هناك لأعلن أن العهد الجديد يفكر في منتجاته أكثر من تفكيره في البشر، طأطأ كل من كان حول الطاولة رأسه، لكن أحد منهم لم يقدر على استخلاص أية عواقب لهذا الأمر.

قلت إن قيم الناس تتداعى بسبب ذلك، وصاروا خائفين. من قبل لم يكن هناك ما يخاف منه أي إنسان يؤدي عمله على الوجه الأكمل. لكن في العهد الجديد صار الإذلال أكثر براعة. ازدادت السرقات، وصار الناس لا يطمحون إلا في عمل محترم، وحياة كريمة. لكنهم جعلوا منهم جميعًا أغبياء. لقد عصفت بهم الثورة المضادة بعد أن صفقوا لها عدة مرات. من قبل كان كل من لا يعجبه النظام يمكنه أن يعبر عن غضبه في الحانة. أما اليوم فإن أي ناقد للأوضاع يعتبرونه عميلًا لـ"الكرملين". التبس الأمر على الناس، وراح العارفون ببواطن الأمور يبررون الأمر في محطات التلفزيون بأن الشعب هو المذنب. وأن عليه أن يؤمن بأن القادم سيكون أكثر عدلًا. كان الرفقاء يهزون رؤوسهم، لكني شعرت بأنهم يفعلون ذلك من باب الأدب. وعندما اقترحت عليهم أن نكتب على أوعية اللحم عبارة: الإيمان بأن الغد أكثر عدلًا، أخذوا يراوغون.

لا يليق أن نفعل ذلك. وبدئوا يهمهمون، ويعصرون أيديهم دون أن يجاهروني أحدهم رأيه صراحة.

قال أحدهم: هذا أمر لا طائل منه. أومأ الآخرون برؤوسهم.

همس أحدهم معارضًا الاقتراح، وقال: وماذا لو كتبنا مثلا: الثقة في أوقات انعدام اليقين.

Twitter: @ketab_n

- اللحم؟

والبيرة أيضًا. أضاف آخر بكل ثقة. الناس بالتأكيد سوف يحضرون اجتماعاتنا بسببها. وستغني "فيركا"، وسيحكي لنا "لوديك" شيئًا كالعادة.

أجبته: وعما سيحكي؟ وكان ذلك آخر سؤال أوجهه. بعدها لم يعطوني الكلمة. تحدثوا عن مهندس الصوت، وكم قطعة من الخبز سيشترونها، وهل عليهم أن يشتروا غطاءً جديدًا لكشك البيرة، لأن الغطاء القديم أصبح باليًا، ويمكن أن تتسرب منه المياه. قالوا إن عليهم أن يطبعوا تيشيرتات جديدة لمناصريهم. تحدثوا عن أبعاد هذا وذلك، وعن التفصيلات الرجالي والحريمي، والألوان، الأسود، والأبيض، والأحمر، وعن إمكانية شراءها من الفيتناميين رغم أن جودة بضائعهم مشكوك فيها. لكنهم لم يتحدثوا بكلمة واحدة عما سيطبعونه على تلك التيشيرتات.

غادرت الاجتماع، وتوجهت إلى "أنديلا". بقيت طوال الطريق أتعجب مما سمعته. أسفت على كل ما رأيت. ربما كان الرفقاء أناسًا طيبين، لكنهم بلا جدوى. لقد انتهى وقتهم، تمامًا مثل غطاء الكشك المثقوب.

ومجرد أن وصلت إلى "أنديلا" انطلقت في الحديث عن فتاها الذي أخفت اسمه عني.

أحقًا ليس عندك صديق؟ سألتني. لم أعرف إن كانت فقط تلتقط أنفاسها بالسؤال، أم بالفعل تريد أن تعرف.

- كلا.

Twitter: @ketab_n

- بل لديك صديق. لا تكذبي. لقد رأيتك.

كانت فقط تحاول أن تستفزني. لكن بلا داع. الثقة في أوقات انعدام اليقين سوف أجدها بنفسي، ولا أحتاج إلى أي رجل ليحققها لي. لا يمكن أن تتحمل الحياة بدون أناس من حولك. الإنسان بدون المجتمع يَنْفَق مثل بذرة في الأرض بدون قطرة ماء أو شعاع شمس. لكن "أنديلا" هي شمسي، والماء هم كل من أغسل يدي من أجلهم بالصابون عندما أعود إلى البيت. بدونهم لا وجود للإنسان. بدون اكتشافاتهم، واختراعاتهم، بدون الصرف الصحي وأفران الخبز. كل إنسان في مجتمعنا يحتاج إلى غيره. لكننا نعرف جميعًا هذا الأمر جيدًا. لكن لم يفسر لي أحد حتى الآن بوضوح: لماذا يجلس أحد من الجنس الآخر على الأريكة، ويطلب مني كل يوم شيئًا ما؟

كانت أمي تناقش تلك الأمور مع جيرانها في البيت وفي أمكان أخرى كل يوم. كانت كل منهن تراقب الأخر لتعرف من أُصيبت بمرض جديد، ومن لديها زوج وجد لنفسه مكانًا في النظام الجديد. كان الحالات مختلفة. إما أنه نظّف معطفه القديم بكل مهارة كما فعل الرئيس "ستانيك"، أو انخرط في الأمر كمتذمر من خلال معارفه مثلما فعل "شرامك"، أو تسلق السّلم بنفسه كما فعل "هروبش" الذي فتح مع زوجته مطعمًا، وصالونًا للمداعبة فوق المطعم. لكنني كنت أرى كل ذلك نوعًا من الغيرة والافتراء. إنها زوجته التي حظيت بزوج ناجح. فوزعت ملابسها القديمة بعد أن حصلت على كم وفير من الملابس الجديدة، وراحت تختلق أسماء بلاد أجنبية ستسافر إليها لقضاء العطلات مع نصفها الثاني الناجح.

Twitter: @ketab_n

كان الفضل في كل ذلك يعود إلى "البزنس" الخاص. لكن رجال "كراكوف" انصرفوا عنه. ولجأ فريق منهم إلى معاقرة الخمر، وفريق آخر واصل حياته في النظام الجديد، وتكسب بعضهم من العمل الإضافي. أما أوائل من فقدوا عملهم في نهاية عام اثنين وتسعين فقد أطرقوا رؤوسهم من الخجل. لم يكن أبناء وطنهم معتادين على مثل تلك الأوضاع، فاعتبروهم بكل بساطة عناصر طفيلية. كانت المصطلحات الاشتراكية مازالت مستخدمة في تلك حالات. كانت وجوه النساء المهذبات تحمرّ خجلًا عندما ينخرطن في حديث مع أحد هؤلاء الشباب العاطل. كان والأسوأ من ذلك عندما يدور الحديث عن أحد العاطلين من أسرة إحداهن. قامت أمي بتصنيف أبي شأنها شأن كل امرأة، وفي منتصف التسعينات تم تقسيم أبناء "كراكوف" إلى أهل الصفوة، والقادة، والفقراء الذين لم يتحملوا الأمر.

كان أبي يلوم أمي على أنها قد تغيّرت. كان تؤكد له أنه مخطئ، رغم أن التغيير في كان من سمات العهد الجديد. كانت بالتأكيد حزينة لأننا كنا من الأُسر القليلة التي لم تشتري أجهزة كهربائية جديدة. رغم ذلك كنا من أوائل سكان العمارة الذين امتلكوا ثلاجة، وتلفزيون مُلوّن، وجهاز فيديو. كان الفضل في ذلك يعود إلى "ليبور". لكنها كانت أيام وانتهت. والآن بزغ عصر جديد.

يومًا بعد يوم توقفت السيدات اللواتي كُنّ تمتلكن أجهزة كهربائية قديمة عن دعوة صديقاتهن إلى البيت، وأصرت كل واحدة منهن على أن تقابل صديقاتها في إحدى متاجر الحلويات. أصبحت "ياركا" الوحيدة التي تتردد على بيتنا. لم يكن لدى المتذمرون الحقيقيون المزيد من النقود لشراء أطقم

Twitter: @ketab_n

المطبخ "مولينكس"، فصارت أجهزتهم الكهربائية بالية أكثر من غيرهم لكثرة استخدامها في الأمسيات إبان النظام القديم. لكن تلك الأجهزة الحديثة لم تكن أكثر من كماليات رخيصة. كانت نساء الناجحين من الرجال تصففن شعورهن بطريقة أنيق، وترتدين قبعات تتناغم في اللون مع أحذيتهن. تمتلكن في منازلهن أجهزة "هاي فاي". ورغم ذلك كن تخضن في وحل الشوارع في فصل الشتاء، وتجررن أقدامهن في حرارة الصيف بين العمارات التي تُشع لهيبًا حارقًا في شهر يوليو. حتى هؤلاء النسوة كن عليهن أن تنتبهن إلى الأسلاك الناتئة في الجدران، وتخبئن أعينهن من الرياح المترية بملابسهن الحريرية. حتى هن كنّ مهددات كغيرهن بالأوبئة.

لم تفعل الأموال خيرًا في العلاقات الإنسانية. لذلك كانت العلاقات بين الأسر إبان حكم الشيوعيين أكثر قوة. فنشأ منها جيل قوي، وهو جيل السبعينات الذي أنتمي إليه. لماذا؟ لأن الواقي الذكري نفذ في المخازن؟ كلا. لقد أراد الناس أن يساهموا في المجتمع وقتها بأعضاء جدد، يأخذونهم من أيديهم الصغيرة ليرونهم إنجازات الجمهورية الاشتراكية، يركبوا معًا الترام الجديد المعلّق فوق مرتفعات "شتربسكي بليسوا"* مثلًا. لم يعد في المجتمع الرأسمالي الحالي وقت لمثل هذه الأشياء، ولا حتى فيمتو ثانية. فضلًا عن أن جبال "التاترا" لم تعد ضمن حدودنا. آه يا إلهي! القوا الأموال فجأة في أيادي الأُسر، وجعلوها تعمل مثل ماكينة مليئة بالرمال.

لكن شيء من ذلك لم يُصِب أسرتنا. كانت الحُليّ التافهة التي تتلقاها أمي من "شرامك" من وقت لآخر لا تمثل شيئًا مقارنة بأسرة السيد "ماسال".

---

* أعلى قمة في جبال تاترا التي تقع اليوم في جمهورية سلوفاكيا بعد الانفصال عام 1993 –المترجم.

Twitter: @ketab_n

كانت زوجته تتفاخر أمام أمي بأنه رجل أعمال ناجح. كان يمتلك سيارة "أُوبل" جديدة. قالت لي أمي عندما سألتها عن سبب احمرار عيني زوجته عندما قابلتها في المصعد يومها إنه يظهر في تلك السيارة وبجواره إحدى الفتيات. لم يكن معتادًا أيام الشيوعية أن يستبدل الرجل زوجته الناضجة بفتاة صغيرة.

ما زلت أتذكر زوجات رجال الحزب وهن يلوحن لنا من المقصورة ونحن أطفال، نشارك في مسيرة بشارع "براج" في مدينة "كراكوف". كانت رؤوسهن المخبأة خلف نظارات بإطارات سميكة تبدو كبيرة ومتيقظة مثل رؤوس أزواجهن. كانت المُثل العليا بمثابة رباط يجمع بين الرفقاء والرفيقات الحقيقيات. لم يكن ما يجمعهم كما يفعل الناس اليوم هو السعي لامتلاك أجسام رشيقة، وصدور بلاستيكية، وقصور. بل تقديس القيم التي أحبوها.

صحيح أن "ستانيك" سرق المال العام وهو في اللجنة الوطنية، لكنه على الأقل لم يعرف سوى امرأة واحدة طيلة حياته، وهي زوجته. كان لها شاربًا نبت أسفل أنفها مثل زوجها، ورغم ذلك لم يجرؤ أي منا ونحن أطفال على أن يسخر منها، ولا حتى سرًا. لكن بعد الثورة المضادة بعدة أعوام يُقال إن السيدات في العاصمة لا تسمحن لأنفسهن بشيء كهذا، ولا حتى بشعر فوق سيقانهن، بغض النظر عن القيل والقال وسخرية الآخرين. أما عندنا في "كراكوف" فكان ذلك أمرًا عاديًا، إلى أن انتقلت تلك العادة إلى بلدتنا لاحقًا. كان الحديث يدور دائمًا حول الحرية. لكن الأمر في الواقع كان سمة العصر الجديد الذي لاحق بلا هوادة كل من رفض

Twitter: @ketab_n

الإذعان لقواعده. وسيطر خراب "سدوم وعمورة"* على الأماكن التي كان يجب أن يسود فيها النظام.

امتلأت أحواض الزهور أمام تماثيل الأبطال بالأعشاب الضارة، ولم يتقدم أحد لينظف سنتيمترًا واحدًا حول قبر الجندي المجهول، وطوي النسيان الأبطال القدامى. هجر الناس أماكنهم. ومن بقي منهم لم ينجب أطفالًا خوفًا على مصائرهم في تلك الفترة المضطربة. كانوا يرددون في التلفزيون أن الناس توقفوا عن الإنجاب لأنهم أرادوا أن يستمتعوا بالحياة فترة أطول. لكني لا أثق فيما يردده تلفزيون الدولة الديمقراطية، بل أثق فقط في نفسي. لم تكن حياة من أعرفهم وردية ولا حياتي أنا شخصيًا.

إنها الدائرة الملعونة. أغلقوا بعض صالات الإنتاج في مصنع "لاترا". وترك الناس العمل، فتوقفوا عن عرض الأفلام في صالة السينما، وأغلقوا المركز الثقافي ومدرسة الفنون الشعبية. انصرف كل من كان يعمل هناك. وأخذ الناس يتجمعون في العمارات كي لا يضطروا إلى تدفئة عمارات شبه خاوية، من باب التوفير. ثم حان وقت إغلاق متجر في منطقتنا، كان يوجد بجوار بيوت سوداء خاوية من سكانها وقتها. وهجر المدينة عمال التدفئة والصيانة وغيرهم ممن كانوا يقومون على رعاية البيوت المهجورة. ألغوا مدرستنا الابتدائية. ورحلت غالبية المدرسات بعد أن انصرفت الأسر بأطفالها. لم يبقى سوي عدد قليل منهن يقوم على التدريس في فصل وحيد، تجمع فيه ما تبقى من الأطفال.

---

* سدوم وعمورة بحسب ما جاء في القرآن الكريم والعهد القديم هي مجموعة من القري التي خسفها الله بسبب ما كان يقترفه أهلها من مفاسد – المترجم.

Twitter: @ketab_n

لن أنسى يومًا لقاء العائلة الذي التأم عندنا في غرفة الصالون بداية عام خمسة وتسعين. ربما لأننا لم نجتمع سويًا في يوم من الأيام، وفجأة دعانا أبي للاجتماع. طلب مني ألا أفكر في الذهاب إلى "أنديلا" في ذلك المساء، وألا تلتقي أمي مع "ياركا" في ذلك اليوم. لم تفضي نصائح أمي لـ"ميلادا" إلى شيء. بأن تستمع هي و"ستاندا" إلى نصائح الجيل القديم، وأن تتوقف عن الحياة السيئة في تلك الشقة الخَرِبَة.

اجتمعنا عند الطاولة في غرفة الاستقبال تمامًا كما كنا نفعل من قبل، عندما كان أبي رئيسًا في الشركة، ويفهم أوضاع مدينتنا الغربية بصورة كاملة، وأمي تبحث عن عمل، وتبكي في أحضانه كل مساء وهي تؤنبه. انتظر كل منا إلى ما سيقوله أبي. مرت أعوام طويلة ولم يدعونا أبي للقاء كهذا.

اعتقدت أنهم طردوه من المستشفى، أو أن أحد أفراد الأسرة أصيب بذلك المرض الغامض. كان العاملون في المستشفى يذهبون كل أسبوع لإجراء فحوصات طبية، وكان المرض دائمًا ما يظهر على أحدهم. أخبرنا أبي قبل عدة أسابيع أن عائلة "فيدليتشكا" هي من اكتشف ذلك المرض. كنا نتردد عليه أحيانًا في المستشفى في عطلة نهاية الأسبوع. كانت أمي تتطلع إلى أن تلتقي بشقيقتي عنده مصادفة، وكنت أحب زيارة العمارات الكبيرة التي أصابتها الفوضى. اشتقت وقتها كثيرًا لزيارة صالة تجميع السيارات رغم أنهم طردوني من مصنع "لاترا" من وقت بعيد، بعد أيام من ذهابي إلى هناك لطلب شهادة خبرة، رغم أنهم وعدوني من قبل أن

Twitter: @ketab_n

المتدربين وخاصة المتدربات منهم لن يخسروا عملهم. لم أندهش من تلك الكذبة في ظل الظروف الجديدة.

هل عثر لي أبي على وظيفة في المستشفى؟ فجأة قال أبي وهو يخبط على رأسه: لا أمل لأحد في أن ينجح بهذه المدينة.

انتظرنا ما سيقوله بعدها.

وهنا مد يده في جيب قميصه العلوي، وأخرج منه خطابًا جاءه من "أمريكا". أرسله عمي "ليبور"، يدعونا فيه لزيارته. قال إنه سوف يساعدنا جميعًا في العثور على عمل هناك في الفندق الذي يعمل فيه. قال إنهم فتحوا الأبواب على مصراعيها أمام القادمين من أوروبا الشرقية، وأن الأمر ممكنا في حالتنا، واسترسل في الحديث. كان "ليبور" يمتلك جواز سفر أمريكيًا، ويعمل رئيس كبير السقاة في فندق بولاية "فلوريدا" مخصص لكبار الأغنياء. تعجبت أنا وأمي. ما الذي حدث فجأة! على مدى أعوام لم يكن يرسل لنا سوى تلك الطرود، ومن وقت لآخر بعض الخطابات الساخرة، يسألنا فيها عن أحوالنا في جنة الشيوعيين. مرت أعوام أخرى دون أية رسائل، وفجأة يرسل ذلك الخطاب.

قال أبي: أنتم لم تقرؤوا باقي الخطاب بعد. مررت أنا وأمي بأعيننا على سطور الخطاب التي تعج بالثناء على العمل في وظيفة الساقي، وتفاخر بما سيحدث بعد بضعة سنوات. ربما كان يوفر لشراء "كارافان" ليتجول في أرجاء الولايات طولًا وعرضًا. إلى أن وصلنا إلى بيت القصيد.

Twitter: @ketab_n

جاء في الخطاب أن "ليبور" استمع في الـ "بي بي سي"، وهي محطة إذاعية، إلى برنامج حول المدن التشيكية الاشتراكية الجديدة، وذكروا في البرنامج أشياءً لا تصدق. تخيلت على الفور تلك المذيعة وهي تخطيء، وبدلًا من "التشيك" قالت إنها سافرت بالطائرة إلى "الشيشان"، أو أنها سافرت لإجراء تحقيق أو ما شابه، ثم لفّقت التقرير بالكامل في أحد الموتيلات الذي أقامت فيه مع رئيسها اللطيف مقابل أموال محطة الـ "بي بي سي"، تمامًا كما فعل صديق "أنديلا" عندما ذهب في رحلة عمل في صحبتها، ولم يغادرا السرير طوال إجازة نهاية الأسبوع. جاء في خطاب يبور أن المدن التشيكوسلوفاكية الجديدة مقبلة على كارثة إنسانية، وهي تعد من الأماكن السرية الكبيرة التي تنبئ عن فساد الشيوعيين. استشهد "ليبور" بمُعِدّة التقرير التي قالت إنه لا وجود لأي مدينة جديدة، طبقًا للتصريحات الرسمية التي أخذتها من أحد أعضاء الحكومة التشيكية.

علّق أبي غاضبًا: من المؤكد أن "ليبور" لم يملك نفسه من الضحك وهو يكتب تلك الكلمات

شخصت كل منا ببصرها. يُقال إن الهواء في تلك المدن الجديدة ملوثًا، وأن الناس يعانون من أمراض نتيجة الغازات المنبعثة من مخازن المصانع المهجورة منذ أعوام.

- ماذا تقول؟

أن "كراكوف" من أكثر المناطق التي تتعرض لتلوث المياه المتسربة من المصارف التي تُلقى فيها الفضلات. كما أن أجهزة الصرف تهالكت، وأن

Twitter: @ketab_n

العمال الذين يقومون على صيانتها توقفوا عن العمل نتيجة لضعف رواتبهم. فضلًا عن أن تلك المدن الجديدة تعج بالعمارات السامة من ألواح الحرير الصخريّ المستخدم، ولا يعلم أهل البلدة شيئًا عما يحدث.

الشيء المطمئن في التقرير أن مُعِدّة التقرير لم تذكر سوى مدينتي "دراشدياني" و"دبراتسين". باقي الأخبار التي جمعتها عن المدن الأخرى كانت من مصادر غير مباشرة. فلو كانت ظهرت سيدات أجنبية عندنا، فمن المؤكد أن أحدهم قد رآها. ولوحد حدث لقبضوا عليها وكشفوا تلك الأكاذيب.

كرر عمي في نهاية خطابه عرضه لنا، وأن نبلغه بقرارنا في أقرب وقت، وعن موعد قدومنا.

أعتقد أن المواطن عليه أن يكون وطنيّا، ولا يصدق على الفور كل ما يسمعه من هنا وهناك. هكذا علّقت على الخطاب لأكسر صمت القبور الذي حلّ على الجلسة.

تلوّت أمي في مكانها، وكأنها توافقني الرأي، لكن لا تجد الجمل المناسبة. كانت دائمًا من أكثر المُشهّرين بمدينتنا. لكن الآن، هل ستدافع عنها؟ شعرت برائحة "شرامك"، وأنها لا تريد أن تهجره هكذا فجأة.

بدا أبي منهكًا، رغم أنه بالتأكيد قد قرأ الخطاب أكثر من مرة. حني ظهره وهو يحمل الخطاب في جيب قميصه العلويّ. دمدم قائلًا إنه سوف يتأكد من بعض الأمور حول شقتنا، وكم سيحصل مقابل بيعها، ثم يتدبر الأمر بعدها.

Twitter: @ketab_n

افتتح السيد "ماسال" متجرًا آخر بعد المتجر الذي كان يمتلكه في الطابق الأرضي في بيتنا منذ عدة أعوام. كانت المحلات الجديدة تنتشر في "كراكوف" مثل النار في الهشيم. كان كل متجر منهم يبعث الأمل في استمرار الحياة في المدينة. التقت زوجة السيد "ماسال" بأمي ذات مرة عند الفيتناميين في السوق. كانت هذه السيدة صاحبة متجر، وتشتري البضاعة في السوق بسعر بخس، ثم تبيعها في متجرها بعمارتنا بأسعار عالية. أخبرت أمي أنها ترغب في تأسيس شركة للسياحة مع زوجها. أخبرتها بأنها تحلم بتلك الشركة منذ أعوام. واجهة عرض مكتظة بصور جميلة لسماء زرقاء صافية، وبحر ذو سماء صافية، وشاطئ به أشجار نخيل. لا تقولي لي إننا لا نحتاج إلى شيء كهذا في المدينة!

هزّت أمي رأسها بارتباك. كانت رأسها تعج بقضايا مختلفة تمامًا، شأن غالبية سكان "كراكوف" وقتها، ولا ينقصها أن تتدبر أموال طائلة لقضاء إجازة ما.

كانت زوجة "ماسال" تفكر في أن تزين أرض واجهة العرض بالرمال والقواقع، وتعلق فوق حبل من النايلون قبعة من القش، ومعها نظارة شمسيّة كي تجذب بها أنظار المارة، وتدعوهم للدخول لشراء رحلات منها. أخبرتني أمي بالأمر، وأخذت كل منا تهزّ رأسها، وتسخر من الفكرة.

- ومن سيسافر معهما؟

المرضى والمواطنون الذين يلهثون بحثًا عن العمل، ويحصون كل قطعة خبز؟

Twitter: @ketab_n

انتبهت عائلة "ماسال" للأمر قبل فوات الأوان. فظهر في النهاية شيء آخر تمامًا، في نفس المكان. بغض النظر عما فعلاه، لم يكن إضافة كبيرة بالنسبة لمدينة "كراكوف". بل على العكس. بقيت زوجة ماسال تدير متجرها، وأسس السيد "ماسال" شركة نقل في شارع المتاريس الذي تغير اسمه إلى شارع "أمريكا" لأن الجيش الأمريكي مر من هنا قبل أن تظهر مدينة "كراكوف"، في عام خمسة وأربعين.

ملأ بشركته فراغًا في السوق على حساب مدينة "كراكوف". ورغم أن الناس كان يهجرون المدينة حتى قبل تأسيس شركته، إلا أن أحد لم ينظم لهم أعمال النقل من قبله. كانوا يضطرون إلى استئجار سيارة، وطلب المساعدة من الغير، وتخصيص وقت لكل ذلك. في تلك الأثناء كانوا يعيدون التفكير في الأمر، وبعد تدبّر الأمر يقلعون عن الفكرة. مع ماسال كانت الأمور تتم بكل سهولة، وبدون أيّ عناء جسديّ. كان يكفي أن يتصل أحدهم، ويطلب نقل أغراضه، فتمدّه شركة "ماسال" بالسيارة والعاملين. كانت أنديلا تدير كل تلك الأمور.

بدأت تعمل بالشركة منذ أن افتتحوها، سعيدة بأنها عثرت سريعًا على عمل. كانت زوجة "ماسال" تلتقي أحيانًا بـ"أنديلا" في العمارة. لم تكن "أنديلا" وقتها تمتلك شقة، فاقترَحت عليها الأمر. وأضافت وهي تحكي لأمي: ولماذا لا أساعد هذه الفتاة المسكينة!

كانت "أنديلا" تجلس في مقدمة المتجر في غرفة صغيرة، لا تتسع لأكثر من طاولة ومقعد ليجلس عليه الزبون. وفوق الحائط يوجد مُلصق عليه، صورة بحر ونخلة. على الأقل هذا ما استطاعت زوجة "ماسال" أن تفعله

Twitter: @ketab_n

في المتجر. أو ربما أنها وضعته كنوع من الإغراء للزبائن، بأن الهجرة من "كراكوف" بمثابة سفر لقضاء رحلة عظيمة؟

كان يوجد خلف غرفة الاستقبال مكتب صغير، ومخزن لكتيبات دعائية تخص السيد "ماسال". عرفت ذلك من أمي التي أخبرتها زوجة "ماسال" بالقصة كاملة، ورأيته أيضًا بنفسي عندما دعتني "أنديلا" إلى هناك. رأيت لأول مرة في حياتي مقعدًا مكتبيًا حقيقيًا، يدور حول نفسه بطريقة رائعة، بينما مقعدتي مستقرة عليه بكل راحة. جلست "أنديلا" على المقعد أولًا، ثم تناوبت معها الجلوس وأنا أمد قدميّ عند الحائط ونحو طاولة "أنديلا" المكتظة بالأدراج والملفات. عندما يتصل أحدهم تخاطبه "أنديلا" بنغمة امرأة تعمل في مكتب البريد، ثم تقرأ له بكل ثبات قائمة أسعار الخدمات التي يقدمها المكتب، وتعريفة النقل السريع، ثم تنادي على السائقين والحمّالين، ثم تعود مجددًا إلى الزبون. لم تتلعثم خلال ذلك ولو لمرة واحدة. أعطتني سماعة الهاتف عدة مرات، ووضعتها عند أذني عندما يتصل أحد الزبائن من مدينة غير مدينتنا. كنت أتخيل الأوضاع عندهم لأني لم أبرح "كراكوف" لعدة سنوات.

سمعت لأول مرة عبر الهاتف صوت حفيف قادم من مدينة "أولوموتس" أو "بلزن" أو مدن أخرى كبيرة عندما يضع المتحدث السماعة ويقول: دقيقة، وينصرف لأمر ما.

إنها أماكن لن أراها في حياتي. هكذا كنت أقول لنفسي. ربما تفعل "أنديلا"، لأنها منذ اللحظة الأولى تمكنت من التواصل مع العالم الكبير. كانت لطيفة ورشيقة، ترتدي دائمًا حذاءً بكعب عالٍ.

Twitter: @ketab_n

من الواضح أن زوجة السيد "ماسال" كانت تثق بها. فهي مَن اقترح على السيد ماسال أن يوظّفها عنده بالشركة. كانت "أنديلا" تدين لها بالفضل على ذلك.

لم أرى السيد "ماسال" في المكتب إلا مرة واحدة. جاء إلى هناك للتوقيع على بعض الأوراق. أزالت "أنديلا" غطاء القلم الحبر، وأخذت تتابعه بكل احترام وهو يوقع على الأوراق.

وسرعان ما ظهرا معًا في أماكن كثيرة وهما يركبان السيارة، وزجاج نوافذها مفتوح، وسترته ترفرف في الهواء، بينما جديلة شعر "أنديلا" السميكة تتطاير وسط الرياح. أيضًا رآهما أحدهم في المطعم عند آل "هروبش"، وفي المساء في محل "الصحراء". ومن هناك انتشر الخبر الفاجعة، لأنهم أيديهما كانتا متعانقان. قال "ماسال" إن السبب في ذلك هو ذئب بريّ كان يتحرك في المكان، لذلك أمسك بيد "أنديلا". لم يكن رجال الأعمال يجيدون المراوغة في التسعينات كما فعلوا لاحقًا.

بدأت السيدات تنقلن الأخبار الأكيدة إلى المتجر الليلي لزوجة "ماسال". أين رأوهما معًا، ومن رآهما. أسهم ذلك في زيادة المبيعات، لأنهم كانوا دائمًا ما يبتاعون شيئًا من المتجر كنوع من التضامن مع زوجة "ماسال". لكنها لم تكن بلا قلب. ربما كان غائرًا وسط شحومها، لكن من المؤكد أنه كان يعاني.

شاهدوا الرجل السمين الذي يرتدي سترة بلون النبيذ، وحذاءً من جلد ناعم اشتراه من سوق الفيتناميين مع تلك الفتاة البيضاء من جديد.

Twitter: @ketab_n

أخبرتهم عن ذلك إحدى الزبائن بصورة متكررة. فتوقفت زوجة "ماسال" عن التفكير في المبيعات. وربما زوجها أيضًا.

لم يكن الناس وقتها قادرين على الفصل بين الحياة الخاصة وبين العمل بشكل جيد. لذلك كانت زوجة "ماسال" تظهر في متجرها بوجه باكٍ. وظهرت على وجه "ماسال" من السُّهاد دوائر سوداء وهو يتعامل مع زبائنه. فلم يكن قوتها في سن الشباب كما يقولون. وكانت "أنديلا" تأخذ الكثير من ساعات ليله. تشاجرت زوجة "ماسال" معها عدة مرات في المكتب وهي تتفاوض مع زبائنها. لكنه الحب الذي لا يُأتمر بأمر أحد.

بعد بضعة أشهر طلبت زوجة "ماسال" الطلاق، فاشترى "ماسال" تلك الشقة التي تسكن فيها "أنديلا" ليعيش فيها معها. لكن إجراءات الطلاق طالت، ولم ينتقل "ماسال" ليعيش معها في الشقة يومًا واحدًا.

وكانت الصدمة. لا يمكن أن أصفها إلا بهذا الوصف. يقولون إنك تطارد الذئب، بينما الذئب يصعد درجات السلم أمام البيت، ويدق على باب بيتنا.

في عصر ذلك اليوم كنا نجلس في البيت نتحدث في أمر "ماسال" وزوجته. كان الحي كله يعرف القصّة. كان ذلك في يوم الأحد. السماء معتمة، ودرجة الحرارة فوق الصفر بقليل. ما كنت لأذهب إلى العمل لو كان لي عمل وقتها، أو أخرج من البيت. لكن الجو كان باردًا، وكان الذهاب إلى الفيتناميين في السوق لتناول النبيذ الساخن يُكلّف عشرين كرون. كنت أرثي لحالهم وقتها. جلس أبي مع أمي يشربان النبيذ المعلّب، وأنا أجلس في الشرفة أتطلع إلى كتلة إسمنتية أمام العمارة.

Twitter: @ketab_n

كان الأطفال غالبًا يلعبون هناك عصر كل يوم الأحد. كنت أنا وشقيقتي ونحن أطفال نجري نحو الكتلة الخراسانية، ثم نهرول نحو عمارتنا، ومنها إلى العمارة المقابلة ونحن نرتدي نفس طاقم ملابس البيت. لكنني لا أرى الآن سوى طفلتين صغيرتين، تمسكان مقود الدراجة، وتبحثان عن مكان لعمل بعض الحيل.

يبدو أني رأيت زوجة السيد "شرامك"، رأيتها من خلف زجاج باب الشرفة المُعتِم وهي تتجه نحو العمارة. رأيت عند الكتلة الخراسانية بعض الأشخاص يمرون من وقت لآخر. لم أتمكن من التحقق إن كنت قد رأيتها بالفعل. على أية حال كان من السهل أن تمر دون أن أراها. فهي سيدة متوسطة الجسم، نحيفة، وترتدي نظارة، شعرها مُرْسل، تبدو وكأنها كانت طوال اليوم تقلي رقائق الخبز، تعلّق على كتفها حقيبة ظهر بنيّة اللون. كما أن سترها المترهلة تنم بوضوح عن أنها من المتذمرين.

عادة عندما يدق أحدهم الجرس تكون جارة لنا تحتاج إلى بعض الدقيق الخشن، أو يكون السيد "هروبش" يسأل عن مِسمار لآلة الثقب، أو في الغالب تكون "ياركا" وقد جاءت للدردشة مع أمي. كنت أعرف دقات الجيران اللينة. دقات قصيرة وغير مبالية تختلف تمامًا عن الخبطات العنيفة التي حدثت عصر ذلك اليوم، وترددت في أرجاء الشقة، فأخذ كل منا يتطلع إلى الآخر. هل ينتظر أحدكم زيارة ما؟

دسّ أبي قدميه في الخف أسفل الطاولة بتمهّل، ثم توجّه متثاقلًا نحو الباب. ربما تأخر هناك دقيقة أو خمس دقائق، بينما أخذت فركت في بطة ساقي طوال الوقت. تزايدت أعداد الحشرات في "كراكوف" بسبب توقّف

Twitter: @ketab_n

جزء كبير من المجففات، وظهرت الحشرات الطائرة في البيت حتى في أوقات الشتاء. ما عدا ذلك، ساد الهدوء في غرفة المعيشة. أعتقد أن أمي واصلت تصفح الجرائد بدون اهتمام واضح. كانوا يبحثون عن مُشتري لشقتنا. فأحضر أبي بعض جرائد الإعلانات معه إلى المنزل.

إنها زيارة لكِ! خاطب أبي أمي بصوت بارد وهو عائد. رأينا خلف الباب المفتوح المؤدي إلى غرفة الاستقبال امرأة تقف في دهليز الشقة. خلعت نظارتها، ثم فركت عينيها المسدلتين على طريقة المعلمين. لم تكن بالتأكيد من صديقات أمي. ثم أخرجت منديلًا، وأخذت تنظف نظارتها بحركات دائرية. وهنا طلب أبي من أمي أن تنصرف. أمسكت المرأة بالباب، فخرجت واحدة وراء الأخرى تتهادى دون أن تنبث إحداهما بكلمة واحدة.

هكذا كانت تتم زيارات أمن الدولة لـ "فيدليتشكا" الأب. أخبرتني بذلك شقيقتي عندما حدّثتها عما حدث لاحقًا. كانوا يدقون الجرس، وكان "فيدليتشكا" يعرفهم، فيرافقونه إلى خارج العمارة حتى السيارة التي أحضروها، وينتظر أحدهم بجوارها في الخارج. قالت إن أحدهم لم ينبثّ بكلمة واحدة طوال الوقت. ولم يكن "فيدليتشكا" يعرف متى سيرونه من جديد. لذلك كانِ ابنه "ستاندا" كما قالت شقيقتي مرتعشًا، ومرهف الحسّ. لقد جعلت منه أمن الدولة فنانًا.

ليت أمي عرفت بهذا الأمر! لكنها هي الأخرى لم تكن تعرف أن "شرامك" له زوجة. لكنه في الواقع لم يظهر برفقتها يومًا.

Twitter: @ketab_n

كان من المعروف عن "ياركا" زوجة "فيدليتشكا" أنها مَن صنع كل الرايات الأولى للثورة المضادة، وكانت تشتري كل الأعلام في نوفمبر عام تسعة وثمانين. رأيت المتذمرة السيدة "كوزاتشكوفا" تطهو اللحم في بيتها الريفيّ لعدد غفير من مرتدي السترات البالية. وماذا عن زوجة السيد "شرامك"؟

سمعت وأنا في السرير طقطقة الباب عندما عادت أمي. كانت الساعة والواحدة والنصف بعد منتصف الليل. كان أبي قد غادر الشقة قبل ذلك ببضعة ساعات، وعاد مع ساعات النهار الأولى. لم يتمكن في البداية من وضع المفتاح في فتحة الباب، بعدها ارتمي على الأريكة في غرفة المعيشة.

حتى أبي لم يكن يعرف بالتأكيد أن الرجل الذي يخونه مع زوجته لديه زوجة. أعتقد أن أبي لم يشك في الأمر حتى عصر ذلك اليوم، يوم الأحد.

قذارة فاضت علينا من مرحاض مسدود! في الوقت الذي اعتقدنا فيه أننا نحزم أمتعتنا، ونبدأ حياة جديدة تمامًا في مكان آخر.

انفجرت القذيفة. لم يكن ضروريًا أن يستقر التراب العالق لكي يعرف الإنسان وقتها أن الأمر قد انتهى، وأن النهاية قد حانت وسط ذلك الصمت الباهت.

لقد صنعت أخلاق المتذمرين المنحطة نشاطًا معاديًا للدولة، وخيانة تناغمت مع بعضها بشكل منطقيّ فجّ. كان هناك الكثير والكثير بين المتذمرين من أمثال "شرامك" القديس. الكثير من الشهداء المُدّعين المحاطين بهالة، وعدد كبير من الأطفال غير الشرعيين. ماذا كنا نتوقع؟

Twitter: @ketab_n

معاقرة الخمر، وأخلاق منحلة، وموسيقى صاخبة، وأمسيات داعرة تدويّ عند عائلة "فيدليتشكا"، وفي مختلف المنتجعات الريفيّة. هل كنا نعتقد أن أسرتنا ستتجاوز الأمر، وهي تسير على أطراف أصابعها، بينما ظلت أمي لسنوات تلعب بالنار؟

بالمناسبة، لم تكن العلاقة بين "فيدليتشكا" وزوجته في أحسن أحوالها. ففي الوقت الذي كان هو يخطب إبان النظام القديم، ويعقد اللقاءات في خلية المعارضة، أو قابع في السجن، كانت زوجته تنسخ الكتب الممنوعة، وتنظم الكرنفالات لأطفال المتذمرين، وتجر خارج شقتها أجوالًا من زجاجات النبيذ الفارغة، وتلقيها في حاويات القمامة. كانت الحاوية تقع عند ناصية مجمع العمارات. قطعت خلال تلك السنوات مئات الكيلومترات وهي تحمل تلك الزجاجات. لم تكن تستريح إلا عندما يُسجن زوجها. وقتها. أما الآن فهو مصاب بالمرض الذي أصاب أهل "كراكوف"، ويصدر التوجيهات لـ"باركا" زوجته من فوق سرير المرض. كانا عندما يتشاجران يسمعهما كل من في البيت. كانت شقيقتي تُسمّي شجارهم بالنموذج الإيطالي. كانت تعتقد أنه نموذج أفضل من النموذج السائد عندنا، حيث تفور الأمور تحت الغطاء. لكن زيجات الرفقاء لم تكن كذلك على الإطلاق.

كانت أسرتنا بعيدة تمامًا عن ذلك النموذج الإيطالي، حتى في أكثر الأوقات توترًا. هذه هي حقيقة. حتى في ذلك اليوم، صباح يوم الأحد عندما نهض أبي من فوق الأريكة، وكانت أمي تقف في المطبخ تغلي الماء، سألته إن كان يريد شايًا أو قهوة. لم يحدث أي تكسير لأطباق البورسلين بعد زيارة "ليدا" زوجة "شرامك"، ولا حتى في الأيام التالية للزيارة. لم

Twitter: @ketab_n

تتطاير الأشياء من النافذة كما حدث عند أسرة "ماسال"، عندما ألقت زوجة "ماسال" بالصناديق من النافذة في حالة من اليأس التام. رأينا ونحن في غرفة الاستقبال في شقتنا جهاز التلفزيون وهو يتطاير في الهواء. كان شقة عائلة "ماسال" تعلونا بطابقين. رغم أن ماسال لم يطأ بقدميه الشقة التي اشتراها لـ "أنديلا"، إلا أنها لم تظهر بعدها وهي ترتدي جواربها المثقوبة. على الأقل.

Twitter: @ketab_n

4

شكّلت البيوت السوداء التي هجرها أصحابها حيًّا كاملًا في "كراكوف". وقف فيها المتجر خاويًا بدمى قطع الحلوى البلاستيكية المُتربة في واجهة العرض، وأُغلِقت دار السينما. وفي المساء عمّ الظلام لأن المصابيح في ذلك الحي الأسود توقفت عن الإضاءة. أرادت إدارة المدينة بذلك أن توفر الكهرباء. هاجر من تبقى من السكان إلى مكان آخر. وأعلنت إدارة المدينة عن شروطها: إن قلّ عدد الوحدات المأهولة في أية عمارة عن النصف فإن على من تبقى من السكان أن ينتقل إلى مسكن آخر بديل، اختارته لهم إدارة المدينة. ولا حق لأحد هناك أن يطالب بأي شيء عدى الإقامة. وظهرت ظلال سوداء لأجساد نحيفة تتهادي وسط المقاعد المدمرة. كانت شقيقتي واحدة منهم.

Twitter: @ketab_n

كانت شقق الأدوار السفليّة تُضاء بالشموع. كانوا يفتحون الأبواب عنوة، أو يشقوها بالمنشار، ثم يعلنون عن ملكيتهم للمكان. انتبه أبي إلى ذلك الأمر مبكرًا. إلى أن شقتنا تعتبر في السوق الرأسمالي غير قابلة للبيع، رغم أنها تابعة لجمعية تعاونية حسب النظام الحديث، وهي ملك لنا. وبالتالي كان قرار الرحيل يعني ترك الشقة بلا مقابل.

كان الحيّ الأسود يقع شرق المدينة، أي ما يقرب من ربع ساعة سيرًا على الأقدام من شقتنا. كانت هناك أحداث تدور في تلك البيوت التي هجرها سكانها، واستولى عليها شباب المتذمرين السابقين بصفة خاصة. وكانت أمور كثيرة تجري هناك.

كانت شقيقتي تذهب إلى هناك في البداية أثناء النهار، ثم بدأت تقضي ليلها معهم. وفي النهاية عثرت مع "ستاندا" على شقة هناك. شكّلت بقايا الأثاث التي خلفها السكان ورائهم أساسًا للمعيشة في بضعة شقق في الطابق الأرضي. قاموا بتنظيم حفلات السمر فيها. كان الصراخ ينطلق من العمارات في الحي الأسود حتى في أيام العمل مساءً، وعلت دقات الموسيقى في أرجاء العمارات المجاورة. كان أي إنسان يمر بالقرب من تلك عمارات، حتى في ساعات الظهيرة، يسمع طرقات على الطبول، وأحيانًا صوت النفير أو الجيتار. أحيانًا كنا نسمع صوت صياح، وتهشّم زجاج، وخبط. كانوا يُكسّرون أخشاب الأثاث، ويصنعون منه نيرانًا أمام العمارات. كانت شقيقتي تقول لي إنهم يريدون بذلك أن يجبروا إدارة المدينة على أن تُعيد تيار الكهرباء إلى الحيّ. لكنهم بدلًا من ذلك توقفوا عن رفع القمامة من

Twitter: @ketab_n

الحيّ الأسود. وتوقفت بذلك جميع الخدمات، باستثناء بضعة صنابير للمياه، كانت موجودة في قبو إحدى العمائر.

امتد شارع "براج" لعدة كيلومترات وبدا وكأنه مهبط للطائرات. وكان ينتهي بحاجز يقف عنده حارسان. صرخا فيّ يسألاني عما أفعله هناك. صحت قائلة: جئت فقط للتمشية. نظرا إليّ بغضب وكأنني جئت أقطع سلكًا شائكًا لأهرب إلى ألمانيا الغربية. الواقع أنهم قبل الحيّ الأسود بعشرين مترًا صنعوا منطقة محظورة، فلم أسمع صوت الحراس الآخرين الذين نادوا عليّ. لم يكن مسموحًا أن يدخل المواطنون إلى المنطقة، ربما كي لا يسقط على أحدهم أحد الألواح المنفلتة، وأيضًا من أجل الحفاظ على بقايا المزاج الجيد، وبعض الثقة بالنفس التي كانت المدينة مازالت تحتفظ بها. والأهم من ذلك هو حماية بضائع الفيتناميين الكثيرة، وبعض من لديهم مصالح، ومازالوا يؤمنون بالمعجزات.

لم يستوعبوا سبب ذهابي إلى هناك. كان الطريق في الأصل مُعدًا لعروض الدبابات. تم رصف الطريق بطبقتين من الإسفلت ليتحمل سرب الدبابات المجنزرة. شاهدت بضعة عروض هناك عندما كنت صغيرة، وشاركت أيضًا في مسيرات مايو. أما الآن فقد صار آخر من تبقى في المدينة يعرف بعضهم البعض مثل سكان القرية.

لولا الخجل لألقيت عليهم التحية: المجد للعمل أيها الرفقاء! قلبي معكم. فأمر هذه المدينة يهمنا جميعًا. كانت هناك بعض النسوة اللواتي ترتدين الفساتين، وتتجنبن النظر إليّ. ربما ظنوا أني جاسوسة، وأنهم لا يعلموا بعد عن بداية حقبة جديدة.

Twitter: @ketab_n

كانت الوحشة تنتشر في كل أرجاء "كراكوف". فلا يوجد بها حيّ للبيوت الراقية، ولا مدن صغيرة ظهرت على أطرافها بعد الثورة المضادة. حتى الحطام ظهر أمام عمارتنا. الأسلاك البارزة لا يغطيها سوى وشاح أحمر، يشبه تلك الأوشحة التي تتطاير فوق سيارات النقل التي تحمل أطوال. أحيانًا يعلق بها قميص أحدهم، أو تلمسها يد غير متيقظة. لكن الأمر دائمًا كان يتعلق بأشياء خَطِرة وليس بأفراد كما كان الحال في الحيّ الأسود. وضعوا فوق السلالم الخارجية المؤدية إلى الطابق الأول لبيت الخدمات قراميد أرضيات الحمام، فكانت زلقة جدًا طوال فترة الشتاء. يُقال إنهم وقتها كانوا في عجلة من أمرهم، فلم يعثروا على بلاط غيره. وحتى قنوات الصرف الصحيّ. لن يعرفوا يومًا من سرق أغطية البالوعات، وهل هو السيد "هونيات" أم شخص آخر ملأ جيبه بأموالها. لكني لا أتذكر أني رأيت تلك الفتحات يومًا بأغطية. لكن كان الجميع يعلم عن ظهر قلب أماكن البالوعات ذات الأغطية والبالوعات المكشوفة. حتى السكارى كانوا يتجنبون السقوط فيها.

بعد أن ألقيت نظرة على المكان حول الحاجز أثناء النهار انطلقت إلى الحيّ الأسود على طريقة الهنود الحُمْر في اليوم التالي بعد غروب الشمس. لم أجد حراسًا عند الحاجز أثناء الليل. فكل من أراد الذهاب إلى الحي الأسود كان يفعل ذلك بعد الغروب.

كان البلوك الأول الذي يقع قبل الحاجز بعشرين مترًا مُضاءً بمصابيح خافتة قادمة من الحمامات، وغرف الاستقبال. أما البلوك الذي يليه فقد

Twitter: @ketab_n

كان أسودًا كسواد الليل. تعصف الرياح بنوافذه المُتفسّخة. حتى الطريق الأسفلتي خلف الحاجز كان مختلفًا. كان يكفي بضعة أشهر لتنمو فوقه الحشائش في أماكن لا يتوقع أحد أن تنمو فيها. وامتلأت الحدائق الصغيرة بالأعشاب البرية، وتلوثت الزلاجات الموجودة في أرض الملعب، وخبت لمعتها. وصار كل ما هو قابل للاستخدام منزوعًا من مكانة، أو ملقى مهملًا. يقولون إن من فعل ذلك هم سكان العمارات قبل أن يهجروها لخيبة أملهم في المدينة النموذجية التي فشلت، وأيضًا بسبب الثورة المضادة، وطردهم في جماعات من أعمالهم بعد، امتُصّت دمائهم. فعلى الأقل يودعون بيتهم بقضيب إشارة المرور. فلم يكن من الإنصاف إلقاء كل التهم على الكائنات التي تعيش في الحيّ الآن. لكن بسببهم ترددوا في إصلاح ما فسد، كما أن الناس كانت خائفة منهم.

يبدو أن ذلك الشعور بقي من أيام تحالفنا معًا في الأيام الخوالي ونحن أطفال. ببساطة عرفت على الفور الاتجاه الذي أسلكه لأصل إلى شقيقتي. مررت في البداية بطريق ضيق عليه أضواء المعسكر المُترِبة والملتقي الرئيسي لهم. يبدو أنهم أشعلوا كل أخشاب الأثاث في البيوت التي يسكنوها بعد أن أخذوا منه شيئًا إلى شققهم الخاوية، وأضرموا النار في الباقي. قاموا بسحب الخِزانات من العمارات إلى مسافات بعيدة، ثم أشعلوا النيران فيها وبكل ما فيها من أغراض لم تعجبهم، مثل المفارش المصنوعة من ألياف صناعية، والأنتيكات الملونة، واللوحات الطبيعية بصور الظبي التي لم يتحمل هؤلاء الشواذ رؤيتها. لم تكن النيران تصدر ضوءً أو دفئًا، بل دخان. رغم ذلك ظهر من بينهم من وقف فوق تلك

Twitter: @ketab_n

المفارش البلاستيكية التي تذوب في النار، وأمسك أحدهم بعصا بطرفها قطعة سلامي يطهوها في النار.

كان "ستاندا". سألته مباشرة عن المكان الذي يسكن فيه مع شقيقتي. أعتقِد أنه بذل مجهودًا كبيرًا كي لا يظهر استغرابه من وجودي. في البداية على الأقل. بعدها، وكأنه استفاق، فهرول نحوي، وسألني عن والده. يبدو أنه لم يرغب في الظهور أمامه محطمًا على هذا النحو. أعرف أيضًا أن بينهما نزاعات. كان "ستاندا" يعتقد أن والده "فيدليتشكا" سيكون له شأن كبير بعد الثورة المضادة، وأنه سيحصل على تعويض ما، كما سمعت من زوجته وهي تتلعثم، وتحدث أمي عن تعويض عن كل أعمال البلطجة التي مارسها معه الشيوعيون. لكنه لم يلحق بالقطار، وصار فضلًا عن ذلك مريضًا. يترجم من وقت لآخر بعض الكتيبات المملة إلى الانجليزية لصالح إحدى الشركات. لم تكن سوى حياة بائسة يعيشها. لم يصبح كطائر العنقاء الذي نهض من التراب، وراح يحصي أعداد من آذوه. بل صار رجلًا مُسِنًّا، لا يبرح مكانه، ولا يأبه أحد لندبته.

إنه يلازم في الفراش، ويتناول أقراص الأدوية التي يحضرها له أبي من المستشفى، ويشاهد التلفزيون. هذا ما ذكرته له مما سمعته من أمي عنه في الفترة الأخيرة. شعرت بنظرات كل من وقف حول النار تُحدق فينا. كنت أمسح المصباح بيدي المرتعشة. وأضع على رأسي قبعة العاملين التي كان أبي يلبسها. وارتدي سترة اشتريناها من الفيتناميين، وأنتعل حذاءً من المطاط. لم يكن أحد غيري يلبس ملابس العمل هذه. كان الحضور يلبسون الملابس التي عثروا عليها في الشقق. سترات من النايلون لبائعات كانوا يسخرون منهن،

Twitter: @ketab_n

وسراويل قصيرة كان الرفقاء يرتدونها قديمًا، وأقمصة لامعة فات زمانها. كانوا يلبسون كل ذلك فوق بعضه، ويجلسون حول النار يملئهم الشك تجاهي، ولا ينتظرون من ورائي خيرًا.

ألتهم "ستاندا" قطعة السلامي قبل أن تنضج، ثم توجه نحوي. هدأت بعض الشيء، وزالت مخاوفي من أن يهاجمني أحدهم طالما كان معي. ذهبنا معًا إلى المستوطنة. إنه الاسم الذي أطلقوه على مركز الحي، حيث يعيش غالبية السكان. كانت الأدوار الأرضية في بعض العمارات مكتظة بهم، وكان بعضهم يسكن في الأدوار العليا.

كنت أرى الضوء أمامي وكأنه فكّ حيوان أصفر، يصدر شعاعًا وسط الظلام، أو أرضًا محاطة بالمشاعل، أو عين صفراء ضخمة لنَمِر يتصيّد فريسة. المكان يعج بسكانه هنا وهناك. لم يكن لديهم وقت ولا أعصاب ليهجعوا. يبدو أن ما كانوا يشربونه ويأكلونه يدفعهم للنشاط الدائم.

كانت هناك أطنان من أدوات تنظيف النوافذ التي أفرغها سكان المكان من مخازن البيوت الراقية بعد أن هجرها أصحابها، أطنان من الأسبرين والبارالين، وشراب السعال، ونقط الأنف، كل ما عثروا عليه في الشقق. وأطنان من الأشياء الأخرى. من الشامبو، والصابون، والأحذية، وفتّحات زجاجات البيرة، وإسفنج غسل الأطباق. كلها أشياء بالية، بقايا خلفها سكان الشقق وراءهم.

قامت إدارة المدينة بغلق الحي الأسود على الفور بعد أن بدأ الناس ينتقلون إليه، يأخذون منه كل ما طالته أيديهم. يترددون بين العمارات في

Twitter: @ketab_n

جماعات، يأكلون الأطعمة المحفوظة التي انتهت صلاحيتها، السلامي بالعدس، واللانشون، والخيار المخلل. ويحرقون بكل حماس في غرف الاستقبال مباشرة أشياء كثيرة كانت تصلح للاستخدام في وقت لاحق. انتهت بعض النيران في الطابق العاشر بالعمارات وما علاه نهاية مأساوية. التقطت الرياح في الخارج النيران القادمة من الشقق عبر النوافذ المهشمة بكل سهولة، واضطرت المجموعة إلى النزول من الطابق العلوي عبر الدرج الضيق في جماعات من ثلاث أفراد، وألسنة النيران تطاردهم، وانصهر درابزين السُّلم، وتحول إلى قطع معوجّة. يُقال إن ثلاثة منهم ماتوا حرقًا في المصاعد بعد أن اعتقدوا أن الصندوق المعدني سيقيهم من النيران. فماتوا شويًا.

حكي لي "ستاندا" كل ذلك ونحن في طريقنا إلى شقيقتي وهو يلوح بيديه النحيفتين. دارت برأسي فكرة: أهاتان اليدان النحيفتان المشعرتان هي ما تحبه "ميلادا"! أبهاتين اليدين يمسكها! أبهاتين اليدين يداعبها! أبهاتين اليدين يصفعها عندما تزعجه! برزتا من تحت قميصه نحيفتين كالعصا. يبدو أن القميص كان من قبل ملكًا لأحد الأطفال الكبار. كان "ستاندا" نحيفًا للغاية، قدماه مثل يديه. يتحدث بحماس شديد، ربما شعر أن حديثه يهُمّني. كل ما كنت أعرفه عن ذلك الحي أن أناس متفاخرون يسكنون به، وليست "كراكوف" بحاجة إليهم، وأن النيران تشتعل في العمارات هناك من وقت لآخر. كنا نرى ذلك من الحي الذي نقيم فيه.

أخبرني "ستاندا" أن شلته التي ظهرت حينئذ في غرفة عربات الأطفال كانت من أوائل من ذهب إلى هناك. كانت بالتأكيد أول من ذهب إلى هناك،

Twitter: @ketab_n

وأسس المستعمرة. المكان الذي تُطبّق فيه قواعد محددة، حيث يعيش الناس هناك متجاورين، غير مشتتين في شقق تتنازع حول الغنائم. وأضاف: إن أفضل الملابس أخذها أحد المتاجر التي تأسست فجأة بعد أن أغلقوا الحي الأسود بوقت قصير، وتحول إلى متجر للملابس المستعملة. عرفت على الفور ما يعنيه، وأين يوجد ذلك المتجر. علقوا عليه لافتة تقول: ملابس استيراد، من "سويسرا" و"بريطانيا" العظمى.

أضاف "ستاندا": نحن لسنا من الباحثين عن الذهب. وأشار قبل أن نصل إلى شقتهم إلى مخزن كبير. إلى إحدى العمارات. كل شقة بها مكتظة بمختلف البضائع. غرف ممتلئة بالمقاعد، وأخرى بأدوات المطبخ، وغرف أخرى محشوة بالأغطية والوسائد، وغيرها مُكدّس بالأَسِرة. ألقى "ستاندا" التحية على شاب طويل القامة. اعتقدت أنه ربما يكون حارس المكان. ثم أدلفنا إلى مدخل عمارة ممتلئ بالشموع المضيئة وبقايا الشموع المنصهرة. هناك يعيش مع شقيقتي.

فتحت شقيقتي وهي ترتدي ملابس سوداء، وتضع زينة غريبة، وتبدو كامرأة أجنبية. مرحبًا يا شقيقتي! ألقيت عليها التحية بلا مبالاة. ثم خلعت معطفي، ونسيت أن المصباح مازال يضيء فوق جبيني، ويلقي بخيوط الضوء فوق الحوائط. في البداية لم أتبين الأمر. لكن الرؤية كانت أفضل إلى أن أطفأته شقيقتي. ألتقط أنفاسي.

- هل لديك صديق؟

Twitter: @ketab_n

ضحك "ستاندا" من السؤال الذي وجهته إلىّ شقيقتي، وشعرت بدمي ينتفض في عروقي، وأوشكْت على أن أنفجر فيها.

قالت "ميلادا" دون أن تنتظر إجابة مني: يمكنكِ في البداية أن تسكني معنا. ثم جلست فوق مقعد تقشّر منه الطلاء في خيوط مثل ثعبان غيّر جلده. وضعت ساقًا فوق ساق، ثم أشعلت سيجارة. بدت وكأنها هي الأخت الكبرى ولست أنا، وأن أمور حياتها تسير بكل انتظام وثقة.

أرسل "ليبور" خطابًا يسألنا إن كنا نريد أن نذهب للإقامة معه في "أمريكا". أيضًا زارتنا زوجة السيد "شرامك" الذي كان يضاجع أمنا. وأعتقد أن حياتها مع أبي قد انتهت. أنتِ تعرفين بأمر علاقتها مع "شرامك". أليس كذلك؟!

كنت أتوقع منها أن تدعوني إلى الجلوس، لكنها بدلًا من ذلك أخفت وجهها في كفيها، واحتضنها "ستاندا" من الخلف. تمامًا مثل تمثال الجنود الشجعان الذين خاضوا حربًا. إنه تمثال في مدينة "كراكوف"، انهار قبل عام، ولم يقم أحد بإصلاحه.

فجأة قالت شقيقتي: يمكنك أن تذهبي إلى "أمريكا" تلك إن أردت.

وهنا ثارت ثائرتي. أتعتقدين أني أريد أن أهرب مثلما فعلتِ؟ لقد بحثت عنكِ في متجر "ماينل"، فقالوا لي إنك تركتِ العمل هناك. توقفتِ عن زيارتنا حتى لتغسلي أغراضكِ.

- أبي منعني من ذلك.

Twitter: @ketab_n

- لأنك لا تتحدثين معنا.

مع عميلة أمن الدولة؟ مع عميل أمن الدولة؟ مع الرفيقة المعلمة الباردة؟

توقعت أن شقيقتي تعرف أن أمي كانت ترافق "شرامك".

- ماذا تقصدين بكلمة باردة؟

ومرة أخرى انفجر "ستاندا" و"ميلادا" في الضحك.

قالت "ميلادا": أنتِ، يا شقيقتي، لستِ إنسانة طبيعية!

هي من يقول ذلك! لقد سَئِمَت من كل ما كان طبيعيًا. إنها هي من رفض الانخراط وسط البشر العادية. أما أنا، فكنت دائمًا واحدة منهم. لكن هذا العهد الجديد لا يروقني. إلا أنني لن أذهب بسبب هذا لأعيش في شقة غريبة أضيئها بالشموع. إنها الثورة المضادة التي تسببت كل هذه الفوضى. وهذا بالتحديد ما أرادته شقيقتي، و"ستاندا"، وشلتهم. وبدلًا من أن يبنوا عالمًا جديدًا لهم هروبا إلى الحيّ الأسود، ولا يحملوا لي سوى الكراهية. باردة! إنه عصر الحرية، ولن يُجبِرني أحد على أن أُغيّر من طبيعتي.

يمكنهم أن يعبروا عن آراءهم بحرية، وأن يسافروا هنا وهناك، وأن يتاجروا وينظموا المظاهرات. كل هذا لا يعنيني في شيء. فقد كانت مسيرات المتحمسين والمظاهرات مسوح بها إبان حكم الشيوعيين. لكن شقيقتي تحدثت من قبل عن السفر. مازالت أتذكر هذا. أتذكر أنها قالت إن الحدود ستكون مفتوحة، وأنها ستسافر مع "ستاندا" إلى مكان ما، وكانت عيناها

Twitter: @ketab_n

تلمعان من السعادة. فلتذهب إلى "أمريكا" وحدها طالما كانت ماهرة إلى هذه الدرجة. لن تذهب على أي حال.

في صباح اليوم التالي أدهشتني في البداية حالة الهدوء. لم تكن هناك سيارات ولا حافلات تتحرك في الحي الأسود. لم يكن هناك أطفال تهرول في طريقها إلى المدرسة. بدت الأوراق فوق الأشجار ساكنة. سكون القبور، وبرد شديد دعاني إلى عدم الرغبة في الخروج من وسط كومة الملابس التي نمت عليها. كذلك لم تغادر شقيقتي سريرها. جلست فوق السرير لا تتحرك، ربّعت قدميها ورفعت رأسها، وأغلقت عينيها، وأدارت راحتيها إلى أعلى. ربما كانت تتمرن على اليوجا، أو شيء من هذا القبيل.

أخيرًا وجدت نفسي أقول لها:

- جئت لأطلب منك أن تعودي إلى البيت...

قالت دون أن تلتفت نحوي، أو تتحرك من مكانها.

- لن أعود. أنا سعيدة هنا.

- أنتِ هنا من أجل "ستاندا"؟

- بل من أجل نفسي. لا جدوى من تفسير الأمر لكم.

ثم اهتزّت وكأنها تريد أن تنفض شيئًا عن نفسها، أو ربما شعرت بالبرد مثلي، وجلست فوق السرير. لم تكن ترتدي سوى سروال داخليّ أسود، وحمالة صدر سوداء. تحققت في ضوء النهار الطبيعي من أنها

Twitter: @ketab_n

نحيفة للغاية. ساقاها تشبهان عصا المكنسة، ويداها مثل الخيزران الفيتنامي. مشهد سيء.

- رأيت ما فعلتيه أنتِ و"ستاندا" أثناء الليل.

انفجرت "ميلادا" في الضحك، وهي تقول:

- لماذا تقولي لي هذا؟ لا أعرف.

رأيت بطن شقيقتي الكبيرة. بطن ممتلئة بالنسبة لمقعدة صغيرة تحملها سيقان نحيفة. كانت مؤخرتها تشبه مؤخرتي تمامًا، إلا أنها لم تكن سوى جلد على عظم.

- أنا حامل. لا تنظري إليّ هكذا. يمكنكِ أن تنشري الخبر في كل مكان إن كنتِ ترغبين في عمل سيء.

- سوف أربى طفلك. أنتِ غبية!

وضعت شقيقتي بعض الملابس فوق جسدها فجأة وكأنها في عجلة من أمرها، وبدأت تعبث بسرعة في كومة الملابس التي نمت عليها.

- إلى أين أنتِ ذاهبة؟

- لا شأن لكِ في هذا!

لا أعرف من أين أتت بكل تلك الثقة في النفس. لم تفعل شيئًا مجديًا في حياتها سوى المتاعب. والآن أضافت إليها طفلًا.

Twitter: @ketab_n

- أتتعاطين المخدرات؟

أمسكت شقيقتي صندوقًا بجوار سريرها، واتخذته منه طاولة، وقذفته نحوي.

- أيتها الرفيقة القذرة! لا تعتقدي أني سأعطيك طفلي يومًا؟ أتعرفين لماذا لا يضاجعكِ أحد؟ لأن أحد لا يرغب فيكِ.

أخذت تضحك من جديد، وتلتقط من كومة الملابس قطعة وراء الأخرى وترميني بها. وقفت في ركن الحجرة متجهة نحو الحائط، وغطيت وجهي بكفيّ.

منذ عصر ذلك اليوم الذي دقت فيه زوجة "شرامك" بابنا لم يتحدث أبي عن الهجرة مطلقًا. من الصعب التكهن بجدوى الهجرة، ومن أن الأشياء التي كانت تخيف أبي وأمي وشقيقتي سيخلفونها ورائهم في "كراكوف". يقولون إن تغير المكان يفعل المعجزات. لكني أعتقد أن كل منا كان يحمل مشاكله معه. "ميلادا" على وجه الخصوص. كانت حقيبتها متخمة، وتزيدها حِملًا يومًا بعد يوم. لم يكن مهمًا أن تكون في غرفتنا الصغيرة أو في الحي الأسود.

ظللت أفكر في ذلك الأمر إلى أن سمعت أبي. كان يقف في الخارج متكئًا على جرس الباب، ينتظر أن تأتي أمي وهي مرتدية لباس النوم لتفتح له الباب. كان عندما ينسى مفتاحه يدق على الجرس بإلحاح بدلًا من تسلّق الشرفة. كان غالبًا يفعل ذلك حتى وإن كان المفتاح معه، متكاسلًا بأن يضع يده في جيبه. لم يكن يَهُمّه أنه يوقظ أمي من النوم. كذلك توقف عن

Twitter: @ketab_n

إطفاء المصابيح عند خروجه، ولم يكن يخلع حذاءه إلا بعد أن يصل إلى غرفة المعيشة. كان يبعثر سدادت زجاجات البيرة، وكسرات الخبز، والجوارب في أرجاء الشقة. توقف عن إصلاح الأعطال في الشقة، وحمل القمامة إلى الخارج. كان أمي تعتبر ذلك إهانة لها، وكان يصيح فيها كلما كان ثملًا أن تكف عن الكلام. كان يفتح زجاجة البيرة وهو جالس أمام التلفزيون ويرتدي فانلة رمادية. وبعد منتصف الليل ينقلب على ظهره، ويسحب الغطاء حتى ذقنه.

من المفترض أن تكون أمي سعيدة بأنه عالج الأمر بطريقة متحضرة. فقد كان صراخ عائلة "ماسال" يصل إلى شقتنا كل يوم. كنا نسمع دقات أقدامهم وهم يطاردون بعضهم حول الطاولة، كما أن "أنديلا" تلقت صفعة قوية من أمها لأنها دمرت الأسرة، وخلّفت تلك الصفعة شريطًا أسودًا على عينها لفترة طويلة.

أما بالنسبة لأسرتنا فلم يخرج الأمر إلى الملأ. لم ينتشر بين الناس ما فعلته أمي و"شرامك" كما حدث مع "ماسال" و"أنديلا". ولم يتحدث أحد منا، لا سابقًا ولا لاحقًا، عن زيارة زوجة "شرامك". طوته ألسنتنا عن الأسماع بشكل غرائزي.

فربما لو تحسنت الأمور قد يساعدهم ألا يذكرهما أحد بما حدث ولا حتى بالنظرات.

Twitter: @ketab_n

لكن الأمور لم تكن على ما يرام. الفرق الوحيد أن أبي لم يضرب أمي، ولم يكسّر الأثاث. وواصلت أمي حياتها مثله تمامًا. فلم يكن هناك من عليهما رعايته وترتيب أشياءه. انتشر التراب في الشقة وملأتها الدهون.

لم يكن ذلك يزعجني شخصيّا. فالقذارة لا تلوث الأهداف الكبرى. بل على العكس. كان لديّ مزيد من الوقت لتحقيقها، لكنها لم تنفعني في العثور على وظيفة. لم يرغبوا في توظيف أحد في المستشفى سوى رجال ليحملوا أجساد المرضى الثقيلة المنتفخة، ويرفعونها من الأسرة، ويضعونها في العربات، والعكس يفعلونه كلما أرادوا نقلهم إلى أماكن الكشف بالمستشفى. ما عدا ذلك لم يكن هناك المزيد من العمل.

تحول غالبية من أصيبوا بالمرض إلى مرضى مزمنين أمثال السيد "فيدليتشكا"، لكن بعضهم أيضًا تُوفي. ربما كانت أعدادهم كبيرة بالنسبة للمستشفى، ولمتوسط الأعمار المعروف في الجمهورية. لذلك بدأ أناس غرباء جاءوا إلى المدينة يطوفون حول المستشفى فجأة. أخبرني أبي بذلك وهو عائد ذات يوم من العمل بينما كانت أمي تجلس معنا في المطبخ، رغم ذلك تظاهر بأنه لا يوجه الكلام إليها. لكنها كانت تسترق السمع إلى ما يقوله. لم يأتي إلى المدينة أي رجل باستثناء الفيتناميين منذ اندلاع الثورة المضادة.

وحتى لا تتوقف المآسي فقدت "أنديلا" صديقها. رحت أتردد بين بيتنا وشقتها بلا توقف، فقد كانت تتصل بنا هاتفيًا كل لحظة، وتهدد بأنها ستنتحر. كان لدي نسخة من مفتاح شقتها. فصعدت طابقين، وذهبت إليها. وجدتها تجلس في الفراش، تتطلع إلى حبوب مبعثرة فوق طاولة السرير، وتمسك بعض منها في كفيها وهي تبكي. كانت حرارتها مرتفعة وتنبئ عن

Twitter: @ketab_n

مرض حلّ بها. أخذت تهمهم بكلمات لم أفهمها، وتذكر فيها اسم "ماسال". كان كل همّي أن أثنيها عن تناول الحبوب. كررت ذلك المشهد عدة مرات في الأسبوع، ثم مرة أو مرتين في الشهر. في كل مرة كل أهرول نحوها من باب الاحتياط. كنت خائفة من أن تفعلها وأخسرها إلى الأبد. كانت قبضة يدها بيضاء بسببْ عصرها لها بالحبوب، وترفض أن تفتحها بأي ثمن. لكنها كانت في كل مرة ترخي قبضتها في النهاية، وتتركني آخذ منها الحبوب بعد تصاب بالإعياء من كل ما حدث، ثم تأوي تحت الغطاء هامدة. في المساء أساعدها على ارتداء ملابس النوم. في كل مرة كنت أظل معها حتى الصباح. كانت خفيفة الوزن، ترقد في حوض الاستحمام مثل الدمية، وأحيانًا كانت تطفو فوق سطح الماء الساخن وسط الرغوة.

كان كل من لا يحبني يناديني بالرفيقة المُدرسّة عندما أنهيت مرحلة التعليم الأساسي. كنت أنزعج من ذلك الوصف، لكنه كان صائبًا إلى حدٍ ما. من أكثر الأمور التي أفضلها هو التواجد وسط جماعة. يبدو ذلك غريبًا، خاصة أني لم يكن لي صديقات حميمات سوى "أنديلا". لكنها رغبات دفينة تطفو فوق السطح عندما تحين اللحظة المناسبة. مارست تلك الرغبة مع "أنديلا" في البداية حيث أن الأمور لم تسير كما أتمنى مع أصدقاء "ستانيك".

لم تتمكن "أنديلا" من إيجاد عمل بعد أن تركت وظيفتها عند "ماسال". شأنها شأن كثير من الناس. لكن لم يتحدث أحد معها فيما

Twitter: @ketab_n

فعلته في أسرة "ماسال"، ربما تضامنًا مع الأسرة التي دمرتها. رغم أنه نادرًا ما أعتبر أحدهم أن ما فعله "ماسال" خطيئة.

أنا أيضًا لم أجد عملًا مستقرًا. قضيت فترة أضع فيها البضاعة فوق الأرفف في متجر "ماينل"، وأجلس خلف الخزينة. ربما كان السبب الذي دفعني لذلك هو أن شقيقتي عَمِلت في المتجر بعض الوقت، وتمنيت أن التقي بها هناك. لكن ذلك لم يحدث يومًا. تحولت قطع البيض، وحبّات الطماطم، وعلب اللبن التي كان الناس يبتاعونها إلى بقع بيضاء، وزرقاء، وحمراء، وكأن أحدهم يلوح أمام عيني سريعًا بعلم الجمهورية التشيكية في إحدى المباريات. وهذا لم يحدث في "كراكوف" منذ اندلاع الثورة المضادة. لم يكمل الرفقاء القدامى ولا حتى رفقاء العهد الجديد بناء ملعب كرة القدم.

كان العمل في متجر "ماينل" مضنيًا. أفضل ما فيه كان عندما كنا نأخذ البضائع التي انتهت صلاحيتها إلى البيت. كنا وقتها نمتلك طعامًا في مطبخنا يكفي لعمل وليمة. حدث أن بالغت إحدى عاملات الخزينة في تناول النقانق القديمة، وانتهى بها الحال عند أبي في المستشفى. فانتبهت الشركة من بعدها للأمر. لكن البضائع ظلت تخرج من المتجر، لكن تحت التهديد. كانت دغدغة الخوف هذه تروقني. أمر شبيه بتدريب الهنود الحمر على الشجاعة، أو محاصرة "لينين جراد"، حيث كان الأطعمة متوفرة بشكل كبير، لكنها لم تكن الأطعمة المناسبة. كنت أراعي ضميري في العمل، لكنهم طردوني منه على أية حال. بسبب البطء، ذلك ما أخبرتني به مديرة قسم منتجات الألبان. إنهم يسمون التدقيق في العمل في عصرنا

Twitter: @ketab_n

بالبطء. لاحظ لإنسان لا يتمتع بسرعة تشبه البرق. أنا لست من النوع السريع. وما فعلناه لاحقًا أنا و"أنديلا" لم يتأثر بذلك، بل على العكس.

إن عالم الأطفال هو أبطأ العوالم على الإطلاق. فعقد رباط يستغرق عشر دقائق، ومن أجل حلم ما ينسى الطفل وجبته. رغم أن الفتيات الفيتناميات كن تتحركن بسرعة كبيرة، فلم أكن مضطرة إلى الهرولة ورائهن، وعندما كانت الخزينة في متجر "ماينل" تعلق، وتبدأ الناس في الطابور في التذمر، كنت أنصرف للبحث عن رئيسة الوردية. لم يكن من الضروري أن أهم في مشيتي. ففي النهاية كانوا يستسلمون للأمر. الأهم في الأمر كان التغلب على الخجل الذي يحدث في البداية، وأيضًا تجاوز شكوك الوالدين لأنهم في البداية لم يفهموا ما بيني وبين "أنديلا".

كان البعض في البداية يصاب بالدهشة من طلائع الفيتناميين الذي أسسناها. ماذا تفعل هنا هؤلاء الفتيات الصغيرات؟ من المؤكد أن تساؤلًا كهذا دار فيما بينهم، أو في رؤوسهم، وليس علنًا. لأنه لم يكن هناك ما ينتقدوننا عليه في العلن، ولا أنا شخصيًا رغم أني صاحبة الفكرة التي جاءت بعد تفكير ورويّة.

فقد كنت أجلس هناك كثيرًا منذ أن جاء الفيتناميون. هناك عند السوق حيث الضجيج. أتبادل بعض الكلمات التشيكية مع "فاندا" أو مع "هونزا" بعد مرور بعض الوقت.

- كيف حالك؟ بخير، وأنتِ؟ بخير، وأنتَ؟

Twitter: @ketab_n

أهل "كراكوف" الذين سارت أمورهم وقتها على نحو جيد كانوا يحسبون كل شيء. فضلًا عن أن الرجل التشيكي لن يخبرك لكَ يومًا بأن أموره تسير على ما يرام. كان "ماسال" وزوجته يخافان من الحسد، وهما من التجار القلائل الذين ازدهرت تجارتهم. حتى السيد "هونيات" كان يخاف الحسد وقت أن كانت أعماله ناجحة. كذلك الحال في عائلة "هروبش" ومطعمهم الذي كان "ماسال" و"أنديلا" وبعض الأثرياء يترددون عليه. هم أيضًا كانوا يخشون الحاسدين. لكن الفيتناميين لم يكن عندهم تلك المخاوف. من هذا الذي يرغب في مساعدة السيدات لتجربة معاطف غالبًا لا يشترونها في أيام الصقيع بيد عارية؟ سيدات لا يرغبن سوى في لمس كل شيء بنهم، وتجربة ما لم يلمسه الآخرون. كان هناك الكثير من الأشياء التي يبيعها الفيتناميون لمحلات الملابس المستعملة القادمة من الخارج، فقط لأن كثير من الناس قد جرّبها، ورفضوا شراءها. يتناولون النودل على الغذاء بكل نهم، رغم أن أحد لا يجبرهم على ذلك. فضلًا عن أنهم يتناولونها بعصي خشبية، وهو أمر غريب، فعيدانها تتساقط حولهم في كل مكان. أصبحت الآن أعرف أنني لن أفعل كما يفعلون. كنت أرثي لحال الفيتناميين بسببها قبل أن تعلمني فتيات الطلائع مسك تلك العصي. كنت أقول لنفسي إن بعض العادات أصعب من غيرها، ولا يوجد سبب لتقبلها.

جذبني الأصل الهندي للفيتناميين منذ البداية. فمَن غيرهم كان يجتهد في عمله، ويحافظ على عاداته، ورغم ذلك لا يحبه أحد؟ هم فقط. صحيح أنهم بعد بضعة أعوام كانوا يحضرون ملابسهم وبضائع أخرى إلى أكشاكهم بسيارات نقل "فورد" الصغيرة. لكن هذا لا يغير من الأمر شيئًا. كانوا يعيشون مكدسين في شقق لا يعلم أحد ما يفعلونه فيها.

Twitter: @ketab_n

تعلم "فاندا" و"هونزا" وغيرهم من الموجودين في الكشك ما كانوا يحتاجونه من اللغة التشيكية لقضاء أمورهم خلال بضعة أشهر. وكان أطفال الفيتناميين أسرع من غيرهم في ذلك. لكن لم يشعر أحد نحوهم بحب حقيقيّ، حتى بعد مرور أعوام على إلغاء المدرسة الابتدائية الكبيرة، والتحاق أبناء الفيتناميين مع أطفالنا في صف واحد.

كان الصياح يعلو في عاملي الأكشاك. تمامًا كما كانوا يصرخون في عندما كنت أبدو بطيئة في متجر "ماينل"، وكان الأطفال يتولون الأمر عنهم، عن الكبار.

بدأ ذلك بالدفع خارج حافلة الصباح التي كان مازال بعضها بعمل في "كراكوف"، وينقل عاملي الورديات القليلة، ويُقلّ الأطفال إلى المدرسة. وانتهى في أفضل الحالات بسقوط الفتيات ذوات الشعر الأسود، وتفسخ فانلات أولاد الفيتناميين. يمكن القول بكل ثقة أن هؤلاء الشباب لم يبدأوا نزاعًا مع أحد يومًا ما.

بدأ فريق الطلائع الذي أسسناه بجوار أحد الأكشاك المهجورة الذي كان يقع في مكان منعزل في السوق. بدت "أنديلا" في بداية الأمر باكية ومنزعجة. قالت لي: "أنتِ غبية". لم تكن متحمسة لفكرتي في البداية. أحضرنا إلى الكشك كيسين بهما دمى دُبّ بلاستيكية، وبعض القطارات الصغيرة. طلبت من أبي أن يحضرها من قسم الأطفال عندهم بالمستشفى. بدأت الفتيات الفيتناميات تتجمع حولنا من تلقاء أنفسهم.

Twitter: @ketab_n

جاءوا في البداية على استحياء كما علمهم آباءهم وأمهاتهم بأن يتعاملن بحذر مع كل ما هو غريب. فكان "فاندا" و"هونزا" وغيرهم كثيرًا ما يدعونهم لأن يفرغوا البضائع، أو يسووا ما بعثره أهل "كراكوف". كانوا يحذرونهم من ألا يزعجوننا. وينبهونني أنا و"أنديلا" أن نهتم بهم. هؤلاء الفتيات الصغار كنفي الواقع يعبثن أكثر مما يساعدن. هكذا شكلنا مجموعة صغيرة خلال بضعة أسابيع. أطفال في الثامنة والسادسة والعاشرة من عمرها. وصار "لان" و"فاي" قائدين لفريق الأولاد والبنات.

أخفينا الأمر في البيت خجلًا من أبي وأمي اللذان مازالا يعولاني، ولا أعرف ما سيفعلانه لو علما بالأمر. لكن كل سكان الحيّ كانوا يذهبون إلى السوق للتبضّع، ولم يكن في الإمكان إخفاء الأمر طويلًا. مرت بنا أمي ونحن نجلس في دائرة فوق الحشائش المتآكلة، نلعب لعبة الأسماء.

كانوا يخلطون باستمرار بيني وبين "أنديلا". فكان علينا أن ندربهم. خاطبتني أمي على الفور، وقالت:" ما هذا الذي تفعلينه؟" ربما اعتقدت أني مازالت أتردد على الشركات، وأركع أمامهم كي يوظفونني. لكن فاض بي الكيل بعد كل ذلك التودد للوحش الرأسمالي.

قلت لها بصوت عالٍ: "نحن نعيد تأسيس ملتقي الطليعة". أخبرتها لأول مرة عما نسعى إليه دون أن يهتز صوتي.

ضحكت أمي كما لم تضحك من قبل. رغم أن ملامحها بدت مثل شقيقتي عندما قالت لي إنني إنسانة غير طبيعية. وفعلت ما طلبتها منها خلال أسبوع. فحاكت لنا عشرة قطع من الملابس حسب فستاني الأحمر الذي كنت

Twitter: @ketab_n

أرتديه أيام الطليعة في السابق. كنت أحتفظ به طوال تلك السنوات مطويًا في الخزانة بكل إتقان. حاكت ثمانية للأطفال، وتبقّى فستانان على سبيل الاحتياط. كانت ألوان الفساتين تشبه تمامًا لون الزيّ الأصلي. لكن الأطفال لم تكن معنية بالأمر. فهي على أية حال لا تتذكر تلك الفترة القديمة.

كان أبي هو الآخر مهتمًا بالأمر. لم يكن يتحدث مع أمي، وعلم بشأن الطليعة في الغالب من والديّ "أنديلا".

أجبته عندما سألني: "نحن نلعب ألعابًا، وننشد الأغنيات". كانت تلك هي الحقيقة. كنت أتذكر بصعوبة أغنيات الطليعة. أتذكر شيئًا من هنا أو هناك. كنت سعيدة بأن الفستان على الأقل لم يختفي من بيتنا وسط تلك الفوضى. تذكرت مع "أنديلا" بعض الأبيات الشعرية من أغاني المسيرات. كنا ننتهي في منتصف الأغنية ونترك نهايتها مفتوحة ليكملوها هم. هكذا كان مستقبلنا أيضًا. كنا نفضل أن ننشد شيئًا بدلًا من لا شيء. الأغنيات الحديثة لا تفعل ما تفعله تلك الأناشيد. لا تلمس قلبك، ولا تأخذك إلى أعلى، وتهبط بك إلى أسفل وسط رياح الحماس والعزيمة. هكذا كانت تفعل أغنيات الشيوعيين، والسوفيتية منها على وجه الخصوص.

ألّفت أنا و"أنديلا" بأنفسنا بعض الأغنيات، من بدايتها وحتى نهايتها: مرحى "هانوي" "كراكوف"... هيا إلى التكاتف، وأنشودة "فيتنام" و"التشيك"، ومن أجل الصداقة بين شعوب الشرق. كنا حريصين في البداية على أن نبني نوعًا من الصداقة، بين الأطفال بعضهم البعض، وبيننا وبين

Twitter: @ketab_n

آباءهم، وبيننا بين الجميع. بين الناس الذين يجمعهم أمر مشترك. الثقة هي أساس كل شيء.

كنت أعرف منذ البداية أن طريق طويل ينتظرنا. عمل صعب، وبناء يحتاج إلى وقت. تمامًا مثل وضع سفينة صغيرة من الخشب في زجاجة عصير. لكن سفينتنا كانت سفينة حقيقية. سفينة الروح الجديدة التي ستنتشل "كراكوف" من الوهم.

في تلك الأشهر كنت أنتظر عدة ساعات عبثًا أن يغشاني النوم في بيتنا أو عند "أنديلا" التي كانت تستسلم للنوم. وجهها كوجه الأميرات، مستقر فوق الوسادة كدمية جميلة معلقة في لوحة بالدبابيس، ونحن ننزع عنها كل ما يخزها. كنت أشعر بوخز كثير في داخلي لا ينفع معه إحصاء عدد الطلائع، أو حفظ أسماء جميع العاملين في أكشاك الفيتناميين، أو تذكر أسماء شوارع الحي الأسود.

كانت "كراكوف" تستيقظ، وأنا أحاول تحديد الهدف وسط خصلات شعر أنديلا المنسدلة فوق الوسادة، أو في بيتنا وسط غشاوة التراب الذي كان يتلألأ في غرفتي على ضوء مصابيح الشوارع الليلية فوق الأعمدة. لقد بدأت المدينة التي سقطت منذ الثورة المضادة وسط غمامة ثقيلة تنهض على قدميها. وأخذت وجوه جديدة تظهر هنا وهناك في شوارعها المرهقة الذابلة. وبدأت تنتشر أخبار قادمة من الحي الأسود حول الغجر. لقد أخذتنا حلقة طلائع الفيتناميين إلى أماكن لم نكن لنصل إليها بسهولة.

Twitter: @ketab_n

لأول مرة في ذلك الوقت تظهر بين الناس كلمة اتحاد. وفجأة وبدون مقدمات أخذت أصوات مكبرات الصوت العالقة عند ناصية كل شارع تعلو وتهدر هنا وهناك. ما زلت أتذكر تلك المكبرات من أيام طفولتي وهي تعلو بعزف الفرق النحاسية، تصاحبها تصريحات الرفقاء. إنه أمر يشبه تدفق المياه في الأنابيب بعد أيام من محاولة إصلاحها على يد فريق أبي من السباكين، ثم يَسعل الصنبور لعدة دقائق ليخرج بلغمًا صدئًا من أحشاءه، ثم تسيل منه المياه من جديد. قام أهل "كراكوف" الحزانى يصلون الأسلاك، ويجربون أصوات الآلات.

لقد جاء توجيه ما، من مكان ما، وانتظر الناس إعلانًا هامًا. ولت الأوقات التي كانت فيها "كراكوف" تتخطي القواعد. فقد مرت أعوام هنا دون الالتزام بأية قواعد. ماتت هذه الكلمة مع غيرها من الكلمات التي لفظها العهد الجديد. وها هي الآن تعود إلى "كراكوف" من طريق جانبي. يخطئ من ينتظر أن يسمع من مكبرات الصوت شيئًا عن قواعد جديدة للعمل، أو تأهيل سياسي حول قواعد الديمقراطية، أو بيان ختامي عن اجتماع المكتب السياسي للاتحاد، يود فيه رفقاء العصر الجديد أن يوصلوا أخبارًا لأهل "كراكوف" الذين كادوا ينسوهم تمامًا. إن القواعد التي صدرت من مكبرات الصوت عصر أحد أيام السبت، وبعد أيام من السعال والتجارب، واحد... اثنان... ثلاثة! وتجارب للصوت، كانت عبارة عن أخبار حول الصحة البدنية لأهل المدينة، وعن أحوالها المتدنية، وأسباب وعواقب كل ذلك.

Twitter: @ketab_n

أخيرًا. لم يعد من المناسب الاعتماد على رجال البريد المنهكين المكدودين، ولا على المواطنين الذين كادوا لا يبارحون بيوتهم خوفًا من تعطل المصاعد، أو الصعود إلى الطابق الثالث عشر على أقدامهم. كان إعلانًا معروفًا لمن هم في العمل، أو في الشوارع، أو في الحافلات بفضل مكبرات الصوت الحديثة. صار ما توقعته أسرتي من خطاب "ليبور"، ولم ترغب في تصديقه معروفًا للجميع، وفي آن واحد. صارت الحياة في "كراكوف" ضارة بالصحة، والسبب الرئيسي في ذلك يعود إلى الماء والأمراض التي تنقلها الحشرات المتواجدة في المستنقعات المنتشرة حول المدينة خلال النهار. المستنقعات التي يصب فيها الصرف الصحيّ. وتنتشر في المساء في شوارع المدينة، وتبث سمومها في أجساد الناس الضعيفة.

في نفس اليوم الذي أذاعوا فيه الأخبار قام أبي على الفور بتغطية الشرفة بإحدى الشباك. فعل ما كانت أمي تلح عليه ليفعله على مدى عشرين عامًا، ولم تجد لديه أذنًا صاغية. فكرت في أن السبب وراء تلك السرعة المباغتة قد يكون ضميره السيئ. من غيره كان يعرف ما يحدث بمياه الصرف الصحيّ، وما يتدفق في المواسير؟ لكن أبي تحول بعد فضيحة "شرامك" إلى تمثال، وتحجر وجهه. ولم يجرؤ أحد بعدما حدث له من أمي أن يتهمه بشيء.

يجب أن أعترف بما فعله أبي مع "فيدليتشكا". كان من القلائل الذين ترددوا عليه، والوحيد بعد "ياركا" الذي اهتم به بالفعل. كانا يدخنان معًا في شرفة بيتهم بعد أن عاد "فيدليتشكا" من المستشفى. أعتقد أنهما لم يناقشا أمر "ميلادا" و"ستاندا"، ربما ناقشا أمرًا آخر، وفي الغالب كان لا

Twitter: @ketab_n

شيء. كان أبي يحمل أقراص الدواء لـ "فيدليتشكا" من المستشفى، وربما كان يذهب عنده كي يختفي من أمام أعين أمي أيضًا. يبدو أن "فيدليتشكا" كان قد سئم هو الآخر من زوجته "ياركا". الخادمة الوفيّة التي سئمت منه وسأم منها حسب كم العراك الذي كنا نسمعه.

كان "ستاندا" يعتقد أن أبيه هرب بمرضه من الواقع. لم يعرف كيف يواجه الواقع الذي لم يكن يتخيله على ذلك النحو. هذا ما أخبرتني به شقيقتي عندما اتصلت بي كي أذهب لزيارتهما. كانت مهتمة بطلائع الفيتناميين التي أسسناها، وكذلك "ستاندا" الذي تحدث معي وقتها عبر الهاتف للحظات وسألني عن والده.

كانت تلك أول محادثة تلفونية منها جعلتني أعاود زيارة الحي الأسود مرة أخرى. كنت قد قررت ألا أقحم نفسي في حياتهما. كما أن زيارتي الأولى لم تكن موضع ترحاب، ولم أكن في حاجة إلى أن أستمع إلى شقيقتي. فجأة صارت لطيفة معي عبر الهاتف، حتى أنها أخذت تمازحني. قالت إنها حاولت الاتصال بي من قبل ولم تتمكن. لم تكن تعرف أن رقم هاتفنا القديم قد ألغوها. عادي. لم تكن تصل إليها الجرائد التي تصدر في "كراكوف". ولم تعرف أنهم خفضوا عدد أرقام الهواتف نتيجة لنقص عدد السكان، وألغوا منها الرقمين الأولين. لم تعرف بالأمر إلا عندما أخبرها به رجل انتقل من عندنا إلى الحي الأسود مؤخرًا.

Twitter: @ketab_n

يُقال إن عدد سكان الحي الأسود قد تزايد بأناس من خارج المدينة أيضًا. سمعنا أن سكان الحيّ هناك بدئوا يتحدون مع الغجر القادمين من الحي الثاني في "كراكوف". لكن ذلك لم يسفر عن أي خير. كانت تترد في المدينة أخبار مزعجة وغير محددة، ولم يعرف أحد ماذا يحدث في الحي الأسود على وجه التحديد.

كانت أمي هي من تلقي مكالمة "ميلادا". مر وقت طويل قبلها دون أن تتحدث معها. لاحظت وهي تتكلم معها بأن قدميها لا تقويان على حملها. فدفعت المقعد نحوها سريعًا. لكن شقيقتي كانت تتصل من أجل أن تتحدث معي أنا فقط.

بعد أول زيارة لـ "ميلادا" طلبْت من أمي أن تطمأن، وأخبرتها أنها لا تتعاطى المخدرات. لم يكن لديّ دليل على ذلك. ولم أذكر لها شيئًا بشأن حملها. فأنا لم أرى الطفل، ومن المحتمل أنها كانت تكذب، وحاولت أن تختبرني إن كنت سأنشر الخبر، وتنتقل إليها أخبار ذلك بطريقة ما. لكني احتفظت بالأمر لنفسي، فصارت تثق فيّ. لذلك اتصلت بي وقتها. كانت واثقة من أنه لو صح ما علمته بأنني أسست طليعة فيتنامية مع "أنديلا" فلن يكون أمر عابرًا، بل خطوة جادة.

كنت أعرف كيف أصل إلى هناك. أنتظر غروب الشمس، وأدور حول الحاجز، ثم أنطلق إلى المستوطنة. قاموا بتحريك الحاجز عن مكانه السابق، وكان ذلك أمر متوقع. اتسع الحي الأسود مع نمو شركة

Twitter: @ketab_n

"ماسال" للنقل، وقلّت أعداد أهل "كراكوف" الأصليين. التهم الحي الأسود صفين من العمارات في شارع "براج". وازداد صفين فاقترب من المدينة المنظمة التي كانت تتقلصّ بكل استسلام، وتتراجع إلى درجة لا يمكن أن يتوقعها أحد.

كانوا مازالوا يضرمون النيران أثناء الليل في الحي الأسود. مررت بمجموعة كانت تنظر إليّ بارتياب وكأنهم قرأوا على جبيني مباشرة رأيي فيهم، ولم يكن إيجابيًا بالطبع. ثم مررت بالمتجر المهجور والمخزن الذي ألقى وقتها "ستاندا" التحية على ذلك الشاب. ثم أدلفت إلى عمارة شقيقتي. كانت الحوائط هذه المرة مطليّة، وكان هناك ضجيج أعلى من المرة السابقة. الضوء الوامض المنبعث من الشموع يضيء وجوهًا غريبة ملونة على الحوائط، بقع وخربشات، ولوحات مخيفة تمتد من على الأرضية وحتى سقف الطابق الأرضي. لم أفهم منها شيئًا. كان هناك مزيدًا من الفوضى على خلاف المرة السابقة. كان الدهليز مكتظًا بالزجاجات الفارغة، ومنافض السجائر الفارغة، ورائحة دخان قويّة لا أعرف سببها. من المؤكد أنها آثار دخان المخدرات.

كان باب الشقة مواربًا، حجرة الاستقبال ممتلئة بالناس. اعتقدت أنه بسبب الإضاءة القليلة. لكني أدركت على الفور أنها مجرد أوهام. كان البيت الذي تسكن فيه "ميلادا" و"ستاندا" ممتلئًا بالغجر.

احتميت بالحائط مثل طفل لجأ إلى راحتيه من الخوف، واعتقدت أني عند الحائط سأتّحد مع الألوان الغريبة. لم تكن "ميلادا" ولا "ستاندا" في البيت. هل داهم الجنس الغجري المستعمرة كما تداهم عصابة الغجر

Twitter: @ketab_n

المواطنين في الحافلة؟ ربما كان حيًا أسودًا، لكن سكانه منّا. ربما كان الرجال والنساء الذين اجتمعوا عند مفترق الطرق أعداءً، لكنهم من أبوين يتحدثان مع والديّ بدون تكلّف، وربما أنهما كانوا زملاءً في العمل. فالغجر لا يعملون.

الحيّ الثاني في "كراكوف". إنه الجزء الثاني من مدينتنا الذي لم يكتمل بناءه يومًا، أو لم يبنى بالطريقة التي خطط لها عليها حيّنا. إنه حيهم على ما أتذكر. يُقال إن المدينة لم تتمكن من إكمال بناء الحيّ بسببهم. كانت خطط البناء فيه أعظم من خطط كراكوف نفسها. رغم أني لا أصدق أنهم كانوا ينوون تشييد أكبر عمارة في "تشيكوسلوفاكيا" هناك، حتى بدون الغجر، كما جاء في تلك الخطط، إلا أن وجود الغجر منعهم من ذلك. لم يتم تشغيل أي شيء هناك. جاءوا واحتلوا العمارات التي لم يُكتمل بناءها، جاءوا وطاردوا العمال المكلفين بإنهاء العمل، ولاحقوهم بالعصي مثل الماشية. أو ربما انصرف العمال من تلقاء أنفسهم، وهربوا خوفًا من أن تسحقهم أقدام السود.

كان الغجر يقولون شيئًا آخر عن الرفقاء. بأنهم دعونا للإقامة قبل فصل الشتاء، وتركونا نسكن في عمارات بدون تدفئة، رغم أن كل أسرة كان لديها ثلاثة أطفال على الأقل. تركوا لنا مدينة غير مكتملة لأنهم رأوا أن ذلك كافيًا بالنسبة للسود. أشاعوا أن الغجر يضرمون النار في الأثاث الذي خلّفه أصحابه، وصارت كل أسرة تدافع عن حقوقها بنفسها لأن الشرطة تخلّت عنهم. أشاعوا أيضًا أن الدجاج ينعق عندهم بين العمارات،

Twitter: @ketab_n

وأنهم يربون الخنازير في مرافئ السيارات. لكن أحد لم يعرف حقيقة الأمر على وجه التحديد. أبي كان يعرف. كان يذهب إلى هناك للعمل إبّان النظام القديم، وكان يقول إن الغجر أغبياء. ولم نعرف عنه الكذب. وكان الآخرون يقولون مثله.

كانت رائحة الحافلات التي تقلهم إلينا من الحي الثاني في كراكوف نتنة. كنت عندما أزفر في نافذة الحافلة "كراكوف2– كراكوف – كراكوف2" تظهر أمامي أكثر من مرة عبارة بذيئة كتبها أحدهم قبلي تقول – خنازير بيضاء! كان الغجر يرددون أن تلك العبارات يكتبها المحرّضون. لا أعرف. حتى ذلك الوقت لم ألتق إلا ببضعة مواطنين من الغجر في الحافلة. لم يقف أحدهم بالقرب مني، ولم يكن عددهم بالكَمّ الذي رأيته في شقة شقيقتي.

كان غالبيتهم من الرجال، أو هكذا خُيّل لي على الأقل، لأن بطونهم كانت تملأ المكان. كانت تلك البطون تهتز وهم يضحكون، وكانت صغار الغجر تموج وسطهم. وكانت نساءهم العجائز تقف متكئة على الحائط المقابل، وتنعقن بأصواتهم الهادرة وسط ضباب دخان السجائر. وارتفعت فوق الأرض طبقة كومة من القاذورات. من المؤكد أن الأمسية امتدت لساعات طويلة.

وهناك شعرت بأحدهم يجذبني من كُمّ قميصي. كانت شقيقتي. لم أكد أعرفها. سوداء الشعر، وترتدي سترة مكسوة بالفرو وكأنها دُبّ مُوبر، وجوارب مثقوبة، وتنورة قصيرة ومحبوكة. سحبتني من كُميّ سريعًا، وجذبتي إلى الخارج بعيدًا ذلك الضجيج إلى الدهليز.

Twitter: @ketab_n

قالت دون أن ترحب بي:" ما رأيك؟" شعرت أن وجهها كان مسحوقًا من الخوف.

على الأقل لم أكن وحدي. هدأت أعصابي، فأزلت غطاء معطف المطر من على رأسي.

- هل اتصلتم بالشرطة؟

لوت شقيقتي وجهها ساخرة، وقالت متسائلة:

- الشرطة؟

وبدت فجأة أكثر مني هلعًا.

فهمت الأمر على الفور. لا وجود للشرطة في الحي الأسود. ولو أن أحدهم جاء إلى هنا لكانت شقيقتي و"ستاندا" أول من يتعرض للمشاكل: استيلاء غير قانوني على الأشياء، وتبديد الممتلكات، وإخفاء مخدرات في الوسائد، الخ.

وعنّ لي أمر كان يشغلني منذ أن جئت إلى هنا.

أين "ستاندا"؟ يجب أن نخبره بطريقة ما، وسيجد بعض من يساعده.

رأيت المشهد شاخصًا أمام عيني. سنتراجع على طريقة الهنود الحمر خارج العمارة، وستنطلق كل منا في اتجاه مختلف. ستذهب شقيقتي للبحث عن "ستاندا"، وأنا سأذهب لطلب المدد من كل أراد الانضمام. يمكن أن نطلق إشارة دخان من النيران المنتشرة في الشوارع، ثم نهجم على الغجر مثل أية عصابة هنود حمر مُنظّمة. فليذهبوا لينظموا أمسيات

Twitter: @ketab_n

في حيّهم. لم أفكر يومًا بأني سأقف مع شباب المستعمرة جنبًا إلى جنب، ندافع عن أمر مشترك. فكّرت في الأمر، ووجدت نفسي أقف مع شقيقتي في نفس المركب، أخيرًا يجمعنا هدف مشترك واحد بعد مرور السنوات.

- هل جننتِ؟

لم تفهم ما طلبته منها. ربما لم تكن ترغب في أن تورّط "ستاندا" في الأمر. واضح جدًّا. كانت هي المسئولة عن المسكن، لذلك شعرت بالتقصير لأنها لم تحافظ على المكان. عصفت برأسي أفكار جهنمية، ومن المؤكد أني كنت سأصل إلى حل آخر قبل أن تعترضني بضحكة عابثة.

"أنتِ تمزحين. أليس كذلك؟"

عاودت شقيقتي عبوسها المعهود.

ابتسمت دون أن أعرف سببًا لابتسامتي. وهنا رأيت "ستاندا". كدت أسقط فوق الأرض. وقف "ستاندا" في الدهليز وهو يحمل طفلًا صغيرًا في يده، ويودع شابًا بدينًا. لطم كل منهم يد الآخر، ثم مر بنا ذلك الشاب، ومد يده ليصافح شقيقتي.

همست لي شقيقتي، قالت:" إنه "برونيا". ثم سحبتني إلى داخل الشقة. لوّح لي "ستاندا" بيده، ثم توجه نحونا مع الطفل. وهنا سحبت يدي من يد شقيقتي، وانصرفت مهرولة إلى الخارج.

توقفت خارج العمارة. أنا أخطط للهجوم على الغجر، وهم يفعلون ما فعلوه! انتبهت إلى إحدى الشجيرات، وتغلّب الفضول على الشعور بالخزي.

Twitter: @ketab_n

أنا من أسرة اشتغلت بالوشاية. انتبهت إلى ذلك لأول مرة، وانفجرت في داخلي ضحكات غريبة. أنا أيضًا جاسوسة هنديّة تقتفي الأثر. كان وجود شقة شقيقتي في الطابق الأرضي مناسبًا تمامًا لما سأفعله. اختبأت خلف تلك الشجيرة أسفل نافذة غرفة الاستقبال، ورحت أراقب ما يحدث في الداخل. بدا الأمر حميميًا للغاية. لاحظت وجود عدة جماعات في الداخل. كانوا منخرطين في حديث ودّي مع الغجر، ويقرعون الكؤوس معًا.

براعم الغجر من الفتيات تحملن صواني فوقها كؤوس، ورجل غجري يسحب الكمنجة، ثم ينطلق في العزف المزيف. أخذ الحاضرون يثِبون في الغرفة جميعًا مثل الدببة، وخلعوا جميعًا ستراتهم. دسّ أحدهم رأسه بين ثديي إحدى الفتيات، فانفجرت موجة ضحك مثل سدادة الشمبانيا.

عندما عدت إلى شقتهم مرة ثانية وكانوا قد انصرفوا جميعًا. يبدوا أنهم اختفوا مرة واحدة. فالغجر يتحركون في جماعات. يسري في دمائهم مجتمع القبيلة مثله مثل الكل الرذائل التي كنت أنوي التحدث فيها مع "ميلادا" و"ستاندا". لم أكن لأدخل شقتهم إلا لذلك السبب. وربما أيضًا لأرى الطفل الصغير. أردت أن أسألهما إن كانت شقيقتي هي أم هذا الطفل. لكن الطفل لم يكن هناك. يبدو أنهم وضعوه في السرير لينام.

في النهاية بقيت في الحي الأسود ليوم آخر. أخذت شقيقتي تثرثر مع "ستاندا"، وكانا ودودين معي أكثر من المرة السابقة. كل ذلك كان بسبب

Twitter: @ketab_n

الطلائع الفيتنامية. قال "ستاندا" إنها فكرة رائعة لم يسمع بمثلها من قبل، وكيف أني امتلكت الشجاعة لأفعل شيئًا كهذا.

"أنتِ طَلْقَة!" قال لي وهو يعني بذلك الثناء عليّ. لكني كنت شديدة الحساسية بكل الملاحظات حول مظهري وطبيعتي. سألتني شقيقتي إن كنت ما زلت أقصّ شعري بنفسي أمام المرآة، وأضع حبلًا حول رأسي. أجبتها بالحقيقة بأني ما زلت أفعل. من حسن الحظ أن الحديث عنّي توقف عند هذا الحد. بدأنا نتحدث عن صغار الفيتناميين، بينما ابن شقيقتي يقفز حولنا طوال الظهيرة، وهو يرتدي حافظات مُبللة.

لم تفهم شقيقتي ولا "ستاندا" أي شيء. لم يفهما أهمية أن يقوم "لان" و"واي" بقيادة فريق البنات والفتيان، ومدى أهمية ذلك لنظام الطلائع. خاصة ونحن نخطط مع "أنديلا" لتوسعة قاعدة العضوية. لم يفهما أي شيء، ولا أهمية المسيرات الرياضية، ولا الرداء الأحمر، ولا التحية المُشفّرة، التي يتعانق فيها السبابة مع الأوسط بدلًا من التصافح بالذراع كله.

أخذت شقيقتي تهذي بكلمات حول المجتمع الذي يحب الجميع الفيتناميين، وهو الأمر الذي يستحقه كل شعب عامل ونشيط. أو على الأقل يستحقه منهم من يعيش حياة محترمة. وكانت غالبيتهم كذلك. لكن مجموعة الطلائع التي أسسناها لم تكن تضع هذا الهدف في قائمتها. ولم يكن أمامي سوى أن اشرح الأمر لشقيقتي ورجلها.

Twitter: @ketab_n

أخذت أفسر الأمر: الطلائع هي وحدة تحذير. أساس كل جماعة جديدة مبنية على قواعد التضامن، والتضحية، والعمل من أجل الجماعة. لسنا جماعة لفريق لعبة المراوغة، أو الرسم، أو أحباء "هانوي".

بدأ يحدقان فيّ أخيرًا، في الرفيقة المُدرّسة الباردة.

أخذ "ستاندا" يقول شيئًا عن مجتمع الأغلبية، وعن الفيتناميين الذي يسعون إلى تدعيم حقوقهم. لكن ما علاقة الحي الأسود ومجتمع الأغلبية؟

قال "ستاندا": إن أعدادنا في تزايد مستمر.

للأسف، كانت هذه هي الحقيقة. لكن ما الفائدة. إن المجتمع الحالي لا يمكن تصنيفه بشكل حقيقيّ. كان ذلك ممكنًا في عصور النظام الجماعي التشيكوسلوفاكي. على خلاف مجتمع اليوم الذي يعجّ بالانفراديين الذين لا يراعوا مشاعر الآخرين، ويسعون إلى كنز كل ما يستطيعون. إن التفكير في الأمور الجماعية صار منعدمًا. وهذا ما تسعى مجموعتنا إلى رفضه. إنها حلقة فيتنامية لأن روح الجماعة أكثر تطورًا عند مجموعة الهنود هذه. إنه أمر على كل أهل "كراكوف" أن يتعلموه. ولو لم يتحقق هذا بالحسنى سيتم رغمًا عنهم.

أخذت أكرر هذا الأمر الأخير وأقوله لنفسي فقط. لم أصرح به. فعندما تقول رغمًا عنهم فإن أشخاص مثل شقيقتي و"ستاندا" يصابون بالهلع. لا يفكرون سوى في المعتقلات. وكأنه لا توجد طرق وسطية أخرى صالحة.

Twitter: @ketab_n

سألتهما:" ولماذا أنتما متهمان بهذا الأمر؟" سألتهما وأنا أعرف الإجابة. كانا يرغبان في استمالة الغجر إلى جانبهم، ويرغبان في أن أخبرهم كيف يفعلا ذلك، كما فعلت أنا مع الفيتناميين.

سألتهما بعد أن لزما الصمت:

- لماذا كانت تلك الأمسية؟

- أهل الحيّ الثاني في كراكوف يريدون أن ينضموا إلينا. لذلك كنا نحتفل بهذه المناسبة.

اتضح الأمر.

قالت شقيقتي:

- اعتقدت أنكِ سترغبين في التعرف عليهم. وأنك تتفهمين مواقف الأشخاص المختلفين عنكِ بكل الخبرة التي لديكِ مع الفيتناميين.

توقعت أنها ستنتبه إلى الهراء الذي قالته. لكن يبدو أنها لم تنتبه.

- وفيما سأتحدث معهم؟

انخرط "ستاندا" في الحديث، وقال:

- في كل شيء. إن الغجر لديهم نظرة ثاقبة في الحياة. متمهلون، لا يتعجلون شيئًا.

Twitter: @ketab_n

تظاهر "ستاندا" وكأننا الثلاثة تجري في عروقنا دم واحد. مواطنون يجمعنا التعاطف مع من هم ذوي بشرة مختلفة، وكل ما عداهم لا قيمة لهم. لكن الأمر ليس كذلك. وهنا لُبّ القضية. إن قبيلة الهنود العاملة والمكونة من باعة الأكشاك شيء مختلف تمامًا عن جيش الكسالى الذين يعيشون على إعانة البطالة. تحدثت مع "ستاندا" في ذلك أيضًا.

الفيتناميون ليسوا كالغجر، وعند الحاجة سيذهبون معنًا ضد أبنا الحي الثاني في "كراكوف".

Twitter: @ketab_n

5

لم يأتي سائح واحد إلى "كراكوف" يومًا. أيام النظام القديم كانت الوفود تأتي، أما السياح فلا.

ألغى الرفقاء قبل الثورة المضادة قرارًا يسمح لمن أراد زيارة المدينة الاشتراكية النموذجية بناء على تصريح خاص. فلم يأت من السياح أحد إلى المدينة. في الواقع لم يكن هناك ما يستحق الرؤية. لذلك حدثت الصدمة عندما استوقفتني فتاة غريبة تمامًا في حيّنا بعد أن عُدْت بقليل من عند شقيقتي ومن لقاء الغجر. وسألتني أين يمكن أن تشتري بطاقة بريدية في "كراكوف".

- ماذا؟

Twitter: @ketab_n

أرسلتها إلى مكتب البريد رغم علمي بأنهم لا يملكون شيئًا كهذا هناك. فلم يكن ممكنًا أن أشرح لها الأمر. كانت غريبة عن المدينة، وكان ذلك واضحًا. هكذا أيضًا كانوا ينظرون إلينا عندما ذهبنا في إجازة عائلية قبل الثورة المضادة بقليل، حيث قضاها أبي يقرأ جريدة "رودي برافو"، وانشغلت شقيقتي بكتابة الرسائل لـ "ستاندا". "تشيكوسلوفاك". كنا نتعرف على بعضنا من بينهم. نفس تسريحة الشعر التشيكوسلوفاكية، نفس النظارات والأحذية. جلسنا وقتها في الفندق أثناء الإفطار مع أحد البولنديين. حاول أبي أن يشرح له باللغة الروسية بأننا من مدينة الصداقة "كراكوف". كان الأمر مضحكًا لنا جميعًا، لأن ذلك البولندي كان من مدينة "كراكوف" أيضًا. لكنه لم يسعد بتلك المفارقة. فهو لم يسمع أبدًا عن مدينة "كراكوف" التشيكية. كنا نعتقد أننا مشهورين في كل أرجاء الكتلة الشرقية. لكن ذلك الرجل أدهشنا.

لم يتغير شيء حتى بعد الثورة المضادة. فضّل "التشيك" السفر إلى "كراكوف" البولندية عن السفر إلى مدينتهم. وكانت سيدات "كراكوف" لفترة قصيرة في التسعينات تسافرن إلى "بولندا" كل أول سبت في الشهر للشراء في حافلة كانت تنطلق من عند تمثال رائد الفضاء "ريمكا". كانت الأجمات ترتفع فوق الطريق الجانبي المؤدي إلى مدينتنا، المتفرع من الطريق السريع، يومًا بعد يوم، ويتوارى وسطها. ومن النادر أن يظهر أحدهم فيه ليجاهد من أجل الوصول إلى "بولندا"، العودة منها ما لم يكن يعرف أنه سيعاني. السياحة هي أن تسافر إلى مكان ما بدون هدف محدد. هذه التفاهات لم تكن ذات قيمة لأهل "كراكوف". كما أنهم يعرفون أن أهم شيء في المدن الكبيرة يجذب الناس هي الإثارة، وهي ما لم

Twitter: @ketab_n

نفتقده في مدينتنا. كانت الحياة غريبة إلى أقصى درجة ممكنة. في البداية كانت المدينة تشبه الأماكن الموحشة بكل ما فيها من إهمال، حتى صار أهلها أنفسهم متوحشين.

جاءت تلك الفتاة التي أرادت أن تشتري بطاقة بريدية لمدينة "كراكوف" في رحلة تشبه السفاري. كان لدينا صحراء أيضًا، وأنماط غريبة من البشر تسير في الشوارع بكل حرية، ويلتقطون أيضًا الصور.

بالمناسبة، كان "ستاندا" هو الآخر مهتمًا بالتصوير. كان يصور الحي الأسود بشكل أساسيّ، ويبيع صوره عند الحاجز، أمام أعين رجليّ الشرطة اللذان يحرسان مدخل الحي الأسود. كان يقف عند ناحية الحيّ الأسود، ويمد يد عبر الحاجز بأسطوانة بها صور لكل من أراد. ثم يتفاوض معه على الثمن من وراء الحاجز. كان رجال الشرطة يتغاضون عن تلك الأمور، يقفون منتبهين متيبسين في أماكنهم، كل منهم في ناحية من الحاجز، يبدون مثل الحرّاس أمام قلعة "براج" كما يظهرون في الصور. كان سكان "براج" والبولنديون من أوائل من بدأ يأتي عندنا فور انصراف هؤلاء الذين جاءوا، وداروا حول المستشفى التي يعمل بها والدي. جاءوا لجمع أخبار حول المرض الذي انتشر في "كراكوف". توصلوا إلى أنهم لن يتوصلوا إلى شيء لأن هذه هي طبيعة الأمور في المدينة. فجمعوا أغراضهم وانصرفوا سريعًا كي لا يصيبهم المرض، ويغادرون المدينة في صحبته.

كان هؤلاء هم مفتشو الصحة العامة، وأطباء النظافة الذين أصدروا في نهاية التسعينات أول تقرير عن المدينة في "التشيك". يبدو أن التقرير لم يصدر إلا في جريدة صغيرة لأن عدد السائحين الذين قدموا إلينا كان قليل.

Twitter: @ketab_n

كان كل منهم يأتي بسيارته الفارهة، يلتفت حوله وكأنه قادم من القمر وهبط على كوكب مجهول.

كانت تلك أفضل سيارات يمتلكها السائحون "التشيك". غالبًا ما كان الأطفال يتجمعون حولها، ويدسون أنوفهم من نوافذها، ويحدقون في عدّاد السرعة، وبدون أن يدروا يهشمون زجاجها، أو يثقبون إطاراتها.

كان "ستاندا" يصور السيارات أيضًا. لكنه كان يصور السيارات العتيقة الموجودة في الحيّ الأسود. كانت سيارات لم يُكلّف أهالي "كراكوف" أنفسهم بالتنقل فيها. فهي لا تقوى على السفر خارج "كراكوف" لأكثر من بضعة كيلومترات، بعدها تصبح سُبّة في جيبهم. سيارات مثلها اختفت من على الطرقات في "التشيك" منذ زمن. "ترابنت"، و"لادا"، وأسوأ منهما، وكانت سيارات بأرضية متداعية يستقلها سكان الحيّ الأسود. يجلسون فيها، ويمدون أرجلهم خارج أرضية السيارة التي تآكلت من الصدأ، ثم يندفعون بها من فوق الطريق كالأطفال الصغار في عرباتهم. كانت الحشائش تعلو بكثافة في صفوف حزينة متفرقة أسفل كل سيارة لا يركبها أهل الحيّ.

كانت القطط تتكاثر أسفلها، وأحيانًا يظهر فيها عُشّ لطائر اختلط عليه الأمر.

أخذت أتجول في "كراكوف" في تلك الفترة بطريقة مختلفة تمامًا. في البداية كنت أمشي وسط حشود حزينة تمشي لقضاء حاجاتها مطأطئة رؤوسها، أضع فوق رأسي غطاء الرأس في السترة البلاستيكية حتى

Twitter: @ketab_n

جبيني. بدأت أتحرك مثل الروبوت في خطوط سير محددة بين بيتنا وبيت "أنديلا"، والسوق الفيتنامي، وبعض الأماكن التي أحتاج لقضاء شيء فيها. بدأت أنتبه إلى الوقت.

كنت أترقب لقاء أحد السياح كما حدث معي في اليوم السابق. دائمًا ما حالفني الحظ عدة مرات في الشهر. أصف الطريق لسائح تائه عند نواصي شوارع نزعت أسماؤها من عليها غالبًا، أو صارت باهتة لا تُقرأ.

كانوا في الغالب مهتمين ببعض الأماكن المعروفة. النصب التذكاري لرائد الفضاء "ريمكا"، قبر الجندي المجهول، والنافورة الكبيرة التي لم تظهر فيها المياه يومًا، ورأس "هوزاك" التي كانت تقف على قاعدة من الجرانيت. كانت ذلك التمثال النصفي يقع في الجانب الآخر من المدينة حيث بيت الخدمات، والمركز الثقافي المتداع. كان بعضهم يسأل أحيانًا عن الصحراء. ربما دهشة من أن عندنا شيء كهذا، وبدافع الفضول لرؤيتها.

أخذ أهل "كراكوف" يتبادلون النظرات، ويومئون برؤوسهم هنا وهناك ليخبروا بعضهم بأن أوضاع جديدة قد سادت، وباتت واضحة للعيان.

أخبرتني "أنديلا" بأحدث ما عندها، فأسرعت إليها في شقتها بعد إحدى النزهات. وقفنا ساعة على السلالم قبل أن تدعوني للدخول، تصلّب فيها جسدي. لم تكن المرة الأولى، لكني اعتدت على ذلك. اعتدت على أن العلاقة بينها وبين "ماسال" لم تنتهي حتى بعد خناقة زوجة ماسال معها في البيت. بدأت تلتقي به بعد مرور بضعة أشهر كسابق عهدها. لم

Twitter: @ketab_n

يعرف بذلك إلا عدد قليل من الناس. فقد كان "ماسال" أكثر حذرًا، وكنت أنا بالطبع كتومة إلى أقصى درجة من الكتمان.

لم أتحدث في الأمر حتى مع والديّ. فقد كانت أمي تسوى النزاعات التي لا تنتهي في أسرة "ماسال". ربما أرادت أن تنسى بذلك مشاكلها، أو تنشغل به عنها.

كانت قليلًا ما تتحدث مع أبي. ولم أكن على ثقة، ولا حتى أبي من أنها مازالت تتقابل مع "شرامك". لم يتحدث أحد في ذلك الأمر. لكن السحابة ظلت عالقة، وظللت أشعر أن الشمس لن تأتي عندنا، وتدخل إلى غرفة المعيشة بسبب تلك السحابة. وأيضًا بسبب النوافذ التي لم ينظفها أحد على مدى سنوات. أهملتها أمي كما فعل أبي مع المرحاض الذي ظل طوال عامين بدون خزان ماء، وكنا نصب فيه الماء بالدلو. لكن النوافذ والمرحاض كانت أمور تافهة. لم يكن الجو خانق بسبب الستائر المتسخة، والسجاجيد المتربة، لكن بسبب هذين الزوجين اللذان لم يتشاجرا يومًا.

لهذا السبب كنت أقضي وقتي كله تقريبًا عند "أنديلا". لم أذهب إلى بيتنا إلا لطمأنة أمي وأبي الذي كان من الصعب التكهن بمشاعره. كنت أذهب أيضًا لترتيب الشقة، وتنظيف الصالة والمطبخ، وإزالة بقايا الطعام الملتصقة على خِزانات المطبخ. لم أكن أفعل ذلك إلا عندما تكون الشقة خالية منهما. خاصة من أمي، فقد كانت هذه هي مهمتها. أهمل أبي المرحاض، وبقي التلفزيون لبضعة أشهر مُعطّلًا. لا يمكن أن أتخيل كم الكآبة في تلك الأمسيات عندما كانا يجلسان وحدهما، أمي فوق المقعد، وأبي على الأريكة، وتلفزيون صامت.

Twitter: @ketab_n

كانت أحوالنا عند "أنديلا" جيدة. كانت شقتها صغيرة، لكن بها كل شيء. وكنا نهتم بها معًا. بل أنا أهتم بها أكثر منها. واضح طبعًا. كنت أسكن معها مجانًا، وأعتقد أن ذلك أزعج السيد "ماسال". أزعجه أيضًا أنه لم يكن في استطاعته المجيء وقتما شاء. بل كان في إمكانه، لكن بشرط أن يطردني إلى الدهليز ليضاجعها. وبالتأكيد هذا أمر مزعج لكليهما.

عدت مرة إلى الشقة وهما في الفراش. نسيت "أنديلا" أن تقلب دواسة الباب. وكانت إشارة اتفقنا عليها. فاندفعت إلى الغرفة التي ننام فيها، وجدتهما في قمة النشوة.

تأكدت وقتها أن شيئًا لم يفوتني، ولا يزعجني أني امرأة باردة كما بدأت تنعتني "أنديلا" هي الأخرى وقتها. لا أرغب في أن يتورّد وجهي، ويتسع كوجه أحد هذين الشخصين اللذان التفتا نحوي في هلع. لم تغريني حتى تلك الحركة غير الرشيقة التي توقفوا عليها عندما علا صرير الباب. من ناحية أخرى كان "ماسال" سعيدًا بطبيعتي هذه. ظل فترة يزعج "أنديلا"، ويتهمها بأن هناك علاقة ما بيننا قبل أن يعرف بتلك المعلومة.

الله أعلم بما كان يقصده ذلك المسكين. بالتأكيد لم يكن يقصد ما كان بيننا فعلًا. لم أخبره به حتى عندما جاء وقت أن كانت "أنديلا" خارج البيت.

حدث ذلك مرة واحدة. اعتقدت أنه سينصرف على الفور، لكنه دخل إلى الشقة وكأنها شقته. كان محقًا، لكن ولو! بدلًا من أن يجلس في المطبخ مثل الضيوف، دخل إلى غرفة النوم وأنا هناك أكوي تنورة "أنديلا". وقف

Twitter: @ketab_n

فجأة بجواري ملاصقًا لي. كدت أصفعه بالمكوى بعد أن أمسكني من كتفي بقوة. لكنه رتب عليه فقط.

حذرني من أن أخبر أحدًا بما أعرفه، وأن أخبره أيضًا فورًا عندما ترافق "أنديلا" شخصًا غيره. دسست في جيبي ورقة عليها رقم هاتفه ومعها ثلاث آلاف كرون أرفقها بالورقة، اشتريت بها لطلائع الفيتناميين المحتاجين أحذية بأربطة، لها رقبة عالية ونعل سميك. كانت الأحذية مرتفعة الثمن، وكان عدد الأطفال قد جاوز الثلاثين، حيث بدأ ينضم إلينا الصغار والكبار.

شخص غيري قد لا يأخذ تلك النقود من "ماسال". كانت بمثابة موافقة على التجسس لصالحه. لكنه الوحيد الذي فهم ذلك. كنا في حاجة إلى أموال لتحقيق أهدافنا، وكانت نقود الرأسماليين مفيدة، شأنها شأن البقرة الحلوب. لم يكن لدي الكثير من المعارف. لكني أعرف أن "ماركس" كان ينفق من أموال عمه "انجليس" وهو يكتب رائعته الأدبية. لذلك لم يكن استغلال "ماسال" مخالف للقانون. فضلًا عن آخرين كانوا يفعلون نفس الشيء.

كانت "أنديلا" تفعل نفس الشيء معه بنجاح كبير. على سبيل المثال تلك المفاجأة التي أخبرتني بها عندما خرج "ماسال" من الشقة غارقًا في عرقه، ودخلت معها إلى الشقة. تلك اللعبة التي حصلنا عليها دون مقابل كانت هدية منه. لم أكن مضطرة إلى أنا أسألها لأعرف. كانت تحمل صندوقًا أسودًا في يدها، وعليه غطاء بلاستيكيّ أسود كي لا تتسخ الشاشة من آثار الأيادي. كان الصندوق عبارة عن سماعة استقبال وإرسال لا سلكية مثل جهاز الراديو.

Twitter: @ketab_n

كان هاتفًا محمولًا أطلقت عليه "أنديلا" اسم "كارل" دون سبب واضح. كان تحمل قطعتين منه. كان السبب هو أن أراقب "أنديلا" بصورة أفضل، لكني احتفظت بذلك التفسير لنفسي. رغم ذلك لم يكن هناك داعٍ لما فعله. فقد كانت بالفعل تحب "ماسال"، وكنا في حاجة إليه.

لم يكن في مقدورنا البحث عن عمل حتى لو أردنا. كانت طلائع الفيتناميين بمثابة عمل ثابت مُضاعف. ليس فقط من الناحية النظرية، ولكن من الناحية العملية أيضًا. وقتها لم نكن نجتمع في السوق حول الكشك، لكننا استولينا على مقر تجميع النفايات بفنائه المُغلق الذي هجره أصحابه منذ زمن.

لقد تم تفكيك الشركات التابعة للدولة، وتحولت إلى شركات صغيرة متعددة، ومصانع يمتلكها الرفقاء القدامى والجدد. لكن يبدو أن ذلك البيت الصغير في "كراكوف" وفناءه قد سقط منهم سهوًا، أو أن أحدًا لم يرغب فيه.

كان إصلاح المبنى سيكلفهم موالًا طائلة، كما أن التلاميذ في "كراكوف" قد توقفوا عن جمع الأوراق، وليس هناك من قد يفعلها غيرهم. فاعتبرنا البيت ملكًا لنا. هشّم أحدهم قبلنا بوابة الفناء، وكسر باب البيت، فلم يكن هناك ما نخجل بشأنه. وحتى وإن لم يفعل لم يكن هناك داعٍ لأي خجل. وهل يمكن مقارنة قفل مكسور، أو باب مخلوع من مفصله بما يفعله الغجر أو غيرهم ممن يسرقون بلا هوادة في هذا العهد الجديد؟ إضافة إلا أننا قمنا بطلاء البيت على الأقل إلى المستوى الذي طالته أيدينا من فوق طاولة صغيرة أو مقعد قصير. أشع البيت بالبياض الناصع في كل أرجاءه مع مسحة ظل الثلوج الملوثة. وأخذت أجساد شباب الطلائع تتناوب

Twitter: @ketab_n

حراسة مخيمهم الرئيسيّ ليلًا ونهارًا، وتتحرك هنا وهناك بصورة رائعة عند غروب الشمس، ومن خلفها حوائط البيت البيضاء.

لم يكن هو البيت الوحيد في ذلك الوقت الذي تم طلاؤه من جديد. انخرطت أنا و"أنديلا" والأطفال بكل فخر في عمل سبقنا آخرون إليه في "كراكوف" بشكل جماعيّ.

كنا نعرف أن البرد شديد في عمارات "كراكوف" نتيجة طبقة العزل الضعيفة. هكذا كانت حالة العمارات من الداخل كما كنا نعرفها جميعًا. مصاعد محطمة لا تعمل، ومشمع أرضية تآكل فوق الدرج الإسمنتيّ، أو اختفى من عليه لأن أحدهم سرقه. لكن أردنا على الأقل أن يبدو البيت من الخارج بشكل مقبول. هكذا قرر "ستانيك"، وَحْدَه، نيابة عن الشيوعيين في القيادة. اتخذ خطوة رائدة. طلب من المتذمرة "كوزانشكوفا"، المرأة الهزيلة التي تحمل شهادة في الطب النفسيّ أن تجري بحثًا كلّف المدينة أموالًا طائلة، وأسست شركة لتقديم تلك النصائح. توصلت إلى نتيجة مفادها أن يقوم كل فرد باستكمال العمل بنفسه. وأن الأمراض المنتشرة في "كراكوف" هي من تلك الألوان الباهتة، وأن انتشار الألوان المختلفة سيسهم في علاج المرض. كالعادة لم تكن لدى المدينة أموال، فجاءت فكرة أن يقوم سكان كل عمارة بطلائها بألوان ناصعة مضادة للماء. لم تنفذ الفكرة في كل مكان. طلوا بعض العمارات، وتم طلاء بعضها جزئيًا، وبقيت الغالبية العظمى كما هي. رغم ذلك كانت حركة طلاء البيوت نشطة، واستمر ذلك لبضعة أشهر.

Twitter: @ketab_n

انضم بعض سكان الحيّ الأسود إلى عمال الطلاء الذين استمروا لعدة أسابيع بمقابل زهيد يثرثرون فوق السقالات على رؤوس المارة. كان "ستاندا" واحدًا منهم.

مررت ذات مرة بمجموعة عمارات قريبة من الحيّ الأسود، وفجأة رأيت أحدهم يجلس على ارتفاع بضعة أمتار، كان شابًا له نفس تسريحة شعر "ستاندا"، وبدلًا من أن يطلي الجدران كان يحملق في منظار في يده. كان "ستاندا" يتلصص على والده وهو جالس في الشرفة. هذا ما اعتقدت على الفور. لكن البيت كان بعيدًا عن ذلك المكان، وفي جهة غير الجهة. ثم رأيت أحد عمال الطلاء وهو يلوح لـ "ستاندا" من عمارة أخرى، وآخر من عمارة مجاورة. تصوّرت أنها مؤامرة مستترة من المتذمرين. مراقبة لأرض الأعداء من أعلى العمارات.

كنت مخطئة على غير العادة. كان "ستاندا" يلتقط صورًا وهو يدهن الحوائط. وكانت صورة تطوف في كل أنحاء أوروبا.

.

كنا نعتبر الفتيات الفيتناميات كأنهم مواطنين مثلنا أثناء الاجتماعات. يأكلون معنا مما كنت أنا و"أنديلا" نملأ به جوفنا من خبز، ننام بعدها كي نكون متيقظين في اليوم التالي وقادرين على التفكير. بعد مرور بضعة أشهر صار للطلائع منطقتهم الخاصة: فناء بيت جمع النفايات، وأغان كانوا كلهم يحفظونها، وزيّ موحد، وأحذية بنعل عالٍ، وتشريعاتهم الخاصة. وكانت هذه هي أصعب ما في الأمر. بذلت أنا و"أنديلا" جهدًا كبيرًا في وضعها في

Twitter: @ketab_n

أوقات الفراغ. كان لابد من وضع نظام، فلا يمكن للأمور أن تستقيم بدونه. قال أحد المشاهير يومًا: "يجب أن تحيا وتسمح للآخرين أن يحيوا مثلك". لكننا قمنا بتوصيف هذه القاعدة على شكل نقاط.

كنا دائمًا نضع بجوار السرير كراسة لهذا الغرض كي لا تهرب منا أي فكرة تخطر لنا قبل النوم، أو عندما نستيقظ أثناء الليل هالعين من صوت الضربات التي تأتي من الحي الأسود وكأنها طلقات صاروخية، يهجرنا النوم بعدها. كان سكان الحي الأسود يدمرون شيئًا ما في الليل، أو يحتفلون بشيء ما، أو يقيمون حفلًا ماجنًا طوال الليل كي يعلم المواطنون الصالحون من هو سيد مدينة "كراكوف". كان الجميع يعرف أن الغجر القادمين من الحي الثاني قد انضموا إليهم. فتح الحيّ الأسود لهم ذراعيه، وألتهمهم. أو على العكس، ربما سادت بينهم حالة من انعدام الثقة التي كانت منتشرة بين البيض والسود. أو أن مجموعة من صغار الغجر عليهم أن يقوموا بحراسة السكان المعتلين كي تتحسن بذلك سمعتهم بين الناس. وفي المقابل لن يضطروا إلى إرسال أطفالهم إلى المدارس الخاصة، أو شيء من هذا القبيل. هذا ما يتوقعه المرء من رجل غريب. فالمؤسسات، وليست التعليمية فقط، كانت تقف في صَفّنا. أمر بديهيّ.

على الأقل كان الغجر يعزفون على الكمنجة، ويطهون لحم القطط. وكان رجال الحي يرافقون فتياتهم، كما ينكح الرجال السود سيدات الحيّ الأسود المتورطات في الأعمال القذرة، ومدمنات المخدرات اللواتي تلقين فضلاتهن بين العمارات، وتصنعن من القمامة، والبراميل، والكتل الإسمنتية متاريس في الشوارع. كان ما يفعلونه هناك ضجيج ممقوت.

Twitter: @ketab_n

كما أن أطفال الحيّ الأسود لم تكن تذهب إلى المدرسة تقريبًا. كانت الحياة هناك تعج بهم أثناء الليل في الشوارع وكأننا في إيطاليا. وبدلًا من المكرونة يشوون الحمام في أجهزة نهبوها من الشقق الخاوية، ويلقون في حلوقهم أردأ أنواع الخمر.

بالنسبة لنا كانت الطلائع الفيتنامية تأكل ما يحلو لها، وما يراه كل منهم مناسبًا له. يمكنه أن يصدر ضجيجًا خفيفًا وهو يأكل. لكن سكان الحيّ الأسود مع الغجر كانوا يعتقدون أن لهم الحق حتى في أفكارهم. كانت رؤى جاءتهم من فكرة التعدد الثقافي. أمور صحيحة لكنها ضارة بالمجتمع. كنا بالنسبة لهم سكان تافهين في مدينة "كراكوف"، وعلينا أن نتعلم التفكير الحر، وأن نوسّع أفقنا حسب رؤيتهم. نوافق على كل ما يصدر على أنه إبداع أو اضطهاد. أما النظام فعلينا أن نضعه جانبًا وكأنه نظارة متهشّمة.

طبيعي أن أرى أحد سكان كراكوف يستقل الحافلة، أو أن أهلنا في المدينة مثلًا زاروا مدينة "هودونين" أو "أولوموتس". ليس "كراكوف" فقط هي التي لديها أماكن تستحق المشاهدة. كما أن تبادل الزيارات على مستوى الوفود والأفراد الذين يرغبون في مشاهد القلاع القديمة، أو مصانع البيرة المحلية يساهم في توسيع الأفق، ولا يمكن الوقوف أمام شيء كهذا. أما رقص "المازوركا"* الغجرية فقط لأن الغجر كانوا يومًا ما ينطلقون كالريح فوق الخيول، وكانوا يصلحون الأواني القديمة بالأسلاك،

* رقصة شعبية بولندية ذات إيقاع ثلاثي - المترجم.

Twitter: @ketab_n

ويختلقون الأساطير التي يرددونها الآن حول النيران عن الأرواح المحبة للحرية فهذه أمور لا يقبلها عاقل.

مثل هؤلاء الغجر لم يكن لهم وجود للأسف. وإلا لما انصرفوا مختارين للحياة في الظلام والبرد، وبدون ماء. يُقال إنهم فعلوا من أجل المثل العليا. إنهم هاربون من الحياة الكريمة، يرفضون البحث عن بذرة فخر من العمل لصالح المجتمع، من عرق الجد في المزارع، وماكينات جني الحصاد، وعلى خطوط الإنتاج، أو فوق أرفف المتجر. لم يكن تكن المثل العليا هي الدافع لما حدث من إخاء بين الحيّ الأسود و"كراكوف" اثنين، حتى ولو كانت مُثلًا مشوهة. لقد جمع الغجر أطنان من المساعدات باسم أبناءهم. المساعدات التي كان هؤلاء يستجدونها ببراعة. عليهم أن يدفعوا مقابلًا للصداقة مع البِيض.

لو أنهم ظلوا هناك في الحي الأسود خلف الحاجز، لما انزعج أهل "كراكوف". فلتعش ولتترك غيرك يعيش. بالتأكيد. لكن انضمام الغجر إلى سكان الحيّ الأسود أخذ يهدد المدينة شهرًا تلو الآخر بمزيد من الفوضى في كل أرجاء "كراكوف". كفى! عليهم أن يخطو خطوة خارج الحيّ. لكن الأحجار وكتل اللهب كانت تتطاير من عند هؤلاء الشجعان من خلف الحاجز من وقت لآخر على شارع "براج". وأشعل أحدهم النيران في حقيبة سيدة كانت بها مشتريات، وكانت عائدة أثناء الليل من آخر متجر يفتح إلى وقت متأخر، يقع في شارع "براج" من ناحية الحيّ الأسود. السيدة التي كانت تعمل طوال اليوم، على عكس الغجر وسكان الحي

Twitter: @ketab_n

الأسود، عادت إلى بيتها والدموع تملأ عينيها وهي تحمل قطعًا متفحمة، بدلًا من قطعة خبز تستحقها.

حدث في الحيّ عملية تأديب نتيجة لذلك الأمر تشبه ما حدث قبيل الثورة المضادة، عندما أوسعوا "ياركا فيدليتشكوفا" ضربًا. وكأن عصر يتبادل مع عصر آخر. وعلى عكس ما توقعه الجميع عبثًا إبان الثورة المضادة بالأمس بأن عروش الرفقاء العسكريين سوف تهتزّ، اهتزت الآن المقاعد من تحتنا جميعًا.

من المحتمل جدًا أن العمدة "ستانيك" لم يكف عن محادثة باقي أقاليم الجمهورية التشيكية، يطلب منها المساعدة، وربما أرسل بهذه المناسبة بضعة "إيميلات" للمرة الأولى في حياته. لكنها تهيأت اخترعتها أنا، لأنني لم أرى أية قوات مساعدة شقيقة تدخل المدينة.

على العكس. أخذوا يضعون العراقيل أمام سكان المدينة الذين اعتمدوا على السياح القادمين. فجأة ازدادت أعدادهم، أو ربما أنني و"أنديلا" لاحظنا وجودهم الكثيف فجأة.

الحرص دائمًا مفيد، خاصة عندما تتعرض المدينة لظروف حرجة. وكانت "كراكوف" تعاني بشدة منها. لو كان في المدينة وقتها آلية مناسبة، لأعلنوا عن درجة الاستعداد القصوى وقت الأزمات، وربما أكثر من ذلك.

انتشر السائحون فجأة في كل مكان. كانوا مختلفين هذه المرة. كانوا من قبل يأتون فرادى أو مثنى يلتفتون حولهم، ويتعجبون من حال المدينة. أما الآن فأحيانًا تأتي سيارة مكتظة بالركاب، يخرج منها رجال

Twitter: @ketab_n

"كوماندوز" تعلق الكاميرات في أعناقها، لا يعنيها تمثال رجل الفضاء "ريمكا"، ولا رأس "هوزاك"، بل يسألون فورًا عن الحيّ الأسود، ويتوجهون مباشرة نحو الحاجز.

صاحبت مجموعة مثلهم عدة مرات إلى هناك بنفسي. أعطوني في المقابل بعض النقود، لكنهم لم يرغبوا في الحديث معي. ربما أثناهم عن ذلك زيي الطليعة الذي كنت أرتديه في كل مكان تقريبًا. كانوا محقين عندما أحسوا بأني من طينة غير طينتهم. كانوا من أنصار هؤلاء الكائنات. أنصار صامتون للحي الأسود، جاءوا إلينا ليشاهدونا وكأنهم في السينما، ويتطلعون إلى جزء آخر من المسلسل حول معركة الرؤوس الصلبة المعادية للإنسانية. كانت هذه هي صورة المواطنين "التشيك" في الخارج.

كنا نتولى الحراسة مع أعضاء الطليعة عند الحاجز أثناء النهار، وخاصة في عطلة نهاية الأسبوع، حيث يأتي المزيد من السائحين، ويحدث تزاحم عند الحاجز. كان أهل "كراكوف" يعرفوننا. بعضهم رآنا من قبل مرة واحدة على الأقل ونحن نمشي في مسيرة من صفين وسط الشوارع، ننشد الأغاني، أو نرفع المخلفات من ملاعب الأطفال. فكان الناس يأتون إلينا عند الحاجز، ويربتون على أكتافنا باستحسان. كانوا يعرفون، على خلاف السائحين، أننا هناك من أجل النظام، وأننا أشخاص يمكنهم الاعتماد عليهم.

لم يكن لدى السائحين أدنى فكرة عن هذا الأمر. كثيرًا ما كان أحدهم يشير إلينا، ويقهقه ببلاهة، أو يسألنا إن كان يمكنه أن يلتقط صورة معنا. كنا نسمح له بالطبع. كانت الفتيات الفيتناميات يرحبن بعمل أوضاع في الصور معهم. يضحكون معهم، ويكتبون لهم عناوينهم كي يرسلوا صورهم

Twitter: @ketab_n

إلى هناك. لكن الصور لم تصل يومًا ما. ربما لم يكونوا هم السبب في ذلك، وأن المسئول عن ذلك هي طرقنا البالية. كان الضجر باديًا أيضًا على وجوه السائحين وهم يغادرون سياراتهم. لكنهم سرعان ما ينتفضون، ويخبطون على كاميراتهم، ثم يسحبون من حقائبهم التي يحملونها على ظهورهم أو يجرونها على عجلات أكياس الطعام، والدواء، والملابس القديمة، ويلقون بها عبر الحاجز إلى الجانب الآخر ناحية حشد الأيادي الممتدة. كان الغجر، وساكنو الحيّ يلتقطون الأكياس وهم يرددون شعارات حول التعدد الثقافي، وشعارات مناوئة للمواطنين البسطاء وللدولة التشيكية. مئات الأكياس تتطاير واحد تلو الآخر، وتعلو معها الهتافات لتصل إلى شارع "براج" الذي لم يرى مثل هذا الكم من البشر منذ أيام عروض الدبابات. علت الهتافات عندما اندلع شجار بين الأطفال. أخذ الأطفال يبصقون على بعضهم عبر الحاجز، ويلقون شرائح الطعام على بعضهم البعض. كانت الفتيات الفيتناميات يهددنهم بقبضاتهن التي رأيت فيها بنفسي أحجارًا وعصي معدنية. وتبادل صغار الغجر الضربات فوق الصدور مع باقي أطفال الحيّ وهم يعلنون عن أنفسهم.

ازدهرت تجارة "ستاندا" في تلك الفوضى. وصار عند مصور الحيّ الأسود الكثير من الصور والاسطوانات. لكنه لم يكن يبيع عبر الحاجز سوى القليل منها، ويقف هناك مضطربًا.

مرت بضعة أسابيع ونحن نشرف على الحاجز هناك إلى أن جاء مصورو التلفزيون. كانت جماعة ترتدي ملابس أنيقة وكأنهم ممثلين. لم يتحدثوا اللغة التشيكية، وأرادوا أن يصوروا مع "ستاندا" مباشرة.

Twitter: @ketab_n

وصورونا نحن حراس المكان أيضًا. لكن على عجل. بينما ظل ذلك الفتى الذي ارتدى حلّة ورابطة عنق يتحدث من خلال مترجم مع "ستاندا" نصف ساعة على الأقل. كان وميض الكاميرات يزاحم بشدة. ذلك هو ما كان "ستاندا" يحلم به طوال حياته.

حدث ذلك في تلك الأشهر العاصفة، وعرفت أمي بالأمر من "ياركا". حصلت عائلة "فيدليتشكا" على دعوة للحضور، ولم تتلقى أمي دعوة مثلهم. كان إلقاء اللوم على البريد المتداع مجرد أسطورة ترددها أمي. الرجل العاقل بالطبع لا يدعو صديقاته السابقات لحضور حفل الزفاف، وهذا أمر مفهوم.

كان "ميلان شرامك" يتأهّب للزواج. جاء ذلك في إعلان ورقيّ واضح. أخذت "ياركا" تنتحب، وتنهر نفسها لأنها أبلغت أمي بالخبر، ولم تحتفظ به بينها وبين زوجها. من يدري بما ستفعله أمي؟ كان العلاقة بينهما منتهية. أوليس هذا أمر بديهيّ؟

لم يعرف أحد يومًا ما كان يدور داخل أمي. ولم يجرؤ أحد على أن يسألها. حتى "ياركا" لم ترغب في أن تنبش في الأمر. أعتقد أن امرأة كانت من أكثر المقربين إلى أمي لابد وأنها كانت تعرف بعلاقتها بـ"شرامك". لكنها حديثها مع أمي لمدة طويلة كان حول أبناءهم العاقّين بشكل أساسي، وكونها أخبرت أمي بموضوع الزفاف فهذا يعني من وجهة نظر "ياركا" أن الأمر نهائي، لا رجعة فيه.

Twitter: @ketab_n

كان "شرامك" يخطط لإقامة حفل الزفاف في قلعة "كشيفوكلات" في صيف الألفية الجديدة، في حضور زملاءه من نادي أعضاء البرلمان. لم تكن "ياركا" تعرف عن الزفاف إلا مما تنشره الجرائد. عرفت أن "شرامك" أخفى الأمر طويلًا، وفي النهاية انتصرت الرغبة في بناء أسرة جديدة، وقرر أن يخبر زوجته السابقة بالأمر، وأن يحتفل مع زوجته الجديدة كما ينبغي.

لم يصدر عن أبي أي رد فعل على ذلك الخبر الهام. وكذلك فعلت أمي. كان وجهها باهتًا مثل إعلان الزواج الذي قدمته "ياركا" لها. من المؤكد أن عائلة "فيدليتشكا" كانت سعيدة عندما تذكرهم صديقهم القديم. أما أنا فطلبت منها أن تخبرنا لاحقًا عن طقوس الحفل، وفستان العروس. لم نتحدّث عن الأمر في بيتنا أكثر من ذلك، ولا أقل منه.

كان كل من أعرفهم يتخيل كيف ستكون الألفية. كنت أحسبها مع "أنديلا" منذ أيام المدرسة الابتدائية، كم سيكون عمرنا في عام ألفين، وماذا سيكون عملنا وقتها. كنا نتخيلها حينئذ وكأنها الموت. تخيلنا أيدينا متعبة من حمل المشتريات، وفي أعناقنا طفلان، وسنكون قد تجاوزنا كل ما ينتظره الإنسان من خير في هذه الحياة. هكذا كنا نرى الأمر قبيل الثورة المضادة بقليل. كانت أيام مختلفة.

والديّ من جيل كانوا يتزوجون فيه في سن العشرين، وفي الخامسة والعشرين تكون أولادهم في سن المدرسة تقريبًا، ولديهم وظيفة من المتوقع أن يقضون فيها ما تبقى من حياتهم. لم يكن لديّ أنا و"أنديلا" أي شيء من ذلك. لم تكن هناك قروض زوجية مُيسّرة. فعشنا من أموال

Twitter: @ketab_n

"ماسال"، وصار الزواج في العصر الحديث موضة قديمة حتى عندنا في "كراكوف". كما أن الكثير من الفتيات ظللن بدون رفيق. كانت "إيريكا هروبشوفا" تعمل في مطعم تابع للأسرة، يتردد عليه "ماسال" و"أنديلا"، حيث إجراءات الأمن هناك صارمة.

فكان مطلوبًا على سبيل المثال أن أقف خارج المطعم أراقب الطريق، ولو جاء أحدهم كانت "إيريكا" تصرف "ماسال" و"أنديلا" خارج المطعم من الباب الخلفيّ عبر المطبخ.

كانت "إيريكا" من القلائل الذين يعرفون بأمر "أنديلا". لم تكن هي الأخرى ترافق أحدًا. كانت تعيش مع والديها. كانت مسئولة عن المطبخ، وتغيير أغطية الأسرة، ورعاية الزبائن. كان وجهها يبدو شاحبًا وباهتًا من خلف نوافذ المطبخ الزجاجية المتسخة جرّاء سقوطها في دائرة العمل الخاص.

احتفل "ماسال" مع "أنديلا" عند آل "هروبش" في المطعم بعيد ميلادها الخامس والعشرين. فكّرت أن أذهب إلى "إيريكا"، وأطلب منها أن تتوقف عن العمل هناك لأنه سيدمرها تمامًا. ويمكن أن تنضم إلينا. فكّرت في ذلك وأنا أتوقف عندها في المطبخ بين الحين والحين لنتبادل بعض الكلمات، كي لا أضطر إلى اختلاس نظرات الفضول إلى مغامرات "أنديلا".

يصفون ذلك في الجرائد الحكومية بأنه ظاهرة اجتماعية. بأن أمهاتنا في سن الخمسين يغسلون لنا ملابسنا، ويطهون لنا الطعام، بينما نحن لا نغادر المنزل حتى سن الثلاثين. لكن "إيريكا" كانت مسئولة بشكل كامل عن شركة الأسرة. وبدون التنظيف الذي أقوم به سرًا لسقطت والديّ في

Twitter: @ketab_n

مستنقع من الشحوم. كان والديّ "أنديلا" يحصلان بصورة منتظمة على نصف ما تأخذه من "ماسال" كمصروف جيب. ورغم ذلك لم تكن ابنتهما تراهما إلا نادرًا. كانت الناس كثيرة الكلام حسب علمنا. لذلك أسسنا ملتقى الطلائع كي نُبْعِد نواة الأفكار الجيدة عن الضارة، ونهيئ لها ظروفًا أكثر ملائمة.

كانت ملتقى الطلائع يزداد بشكل جيد. وأصبح الملتقي المخصص للصغار مكانًا يجمع الشباب، وصار بالتدريج وحدة للتحفيز. أخذت فتيات الفيتناميين يستقدمون أشقاءهم الكبار، ثم جاء والديهم من بعدهم. "فاندا" و"هونزا"، كانت سيداتهم الفيتناميات على وجه الخصوص يتركون أكشاكهم، ويأتون إلى الملتقى وهم يحملون قدرًا به خبز مُدخّن بلحم الخنزير، أو يحضروا لكل واحد كوبًا به شِعريّة صينية. كان انطباع أهل "كراكوف" في البداية بأنها مجرد مأدبة طعام. عندما كانوا يزورونا في بيت جمع النفايات لحضور الاجتماعات – فقد كنت أوزع مع "أنديلا" في أرجاء المدينة ملصقات بمواعيد وأماكن عقد الاجتماعات – لم يكن هناك شيء آخر غير بخار يتصاعد من الأطباق التي أمامنا.

كان الفيتناميون في أيام الاحتفالات يطهون الطعام في بيت الطلائع مباشرة على بوتاجاز بفتحتين. فتتصاعد الأبخرة في الداخل مُحمّلة بالشحوم إلى الخارج من خلال النوافذ. كان رفقاء "ماركس" قديمًا لا يرون بعضهما حول الطاولة بسبب دخان السجائر المتصاعد بكثافة، أما نحن بسبب أدخنة الطعام الطيب. إنه ببساطة عصر مختلف. كذلك لم يكن من أهدافنا إصلاح النظام القديم، فلا يمكن عبور النهر الآخر بنفس القدمين، ولن ينجح. كما

Twitter: @ketab_n

أن النظام القديم قد صار بضاعة راكدة. وأصبحت بعض العمارات التي بنوها في بداية التسعينات تتداعى للسقوط. مثل مصنع "هونيات" على سبيل المثال. كانت المياه تتساقط من سقف مقصورة الاستقبال التي كانت أمي تجلس فيها. وصار المبنى كله متسلخًا من الرياح والأمطار. أمر كهذا لم يحدث أيام الشيوعيين. لكن لا. لا يمكن العودة إلى الماضي. يمكن أن نتعلم منه، وهذا ما يجب أن نفعله، لكن غالبية سكان "كراكوف" بدوا وكأنهم لا يجيدون التعلم حتى من العصر الحديث. فما بالك برأس غسلتها الرأسمالية، ولا سبيل إلى أن تعود كما كانت. لكن الأمور ستعود إلى مجراها، فقد كانوا لا يعبئون بالصخب القادم من الحيّ الأسود، وكأنهم يعلمون أنه يمكنهم التخلص من العناصر الهدامة قبل أن تبلغ مداها، وأنهم يقتربون من تلك اللحظة بخطوات متأنية.

لحسن الحظ لم يكونوا جميعًا على نفس الشاكلة. ازداد عدد الراغبين في الانضمام إلينا، وراحوا يطرقون على نوافذ بيت تجميع النفايات، أو يربتون على أكتافنا، نحن أصحاب الزيّ الموحد، ونحن نقف جماعات. ففي كل مرة نسير فيها مصطفين كان في مقدور أي منهم أن يربت على كتف أحدنا. كانوا يعلمون ذلك. كان على الطلائع أن تسير على مهل، فقد كانت رؤوسهم كانت تشتعل. ومن لم يكن كذلك؟ كانت الأحداث تتساقط فوق رؤوسنا، وعلينا أن نحافظ على توازننا مثل نادل يتحلّى بالمسؤولية، يحتضن صفًا عاليًا من الأطباق.

فضلًا عن الأحداث الساخنة انطلقت أيضًا عند الحاجز حلقات النقاش. لم يُديرها أحد، بل الناس أداروها بأنفسهم. جاء أهل "كراكوف" الذين

Twitter: @ketab_n

رغبوا في رؤية مكان الحاجز بأعينهم، جاءوا فرادى أو في صحبة آخرين على سبيل الاحتياط. ووضعوا حقائبهم وسلاتهم فوق الأرض بكل احترام، ثم دخلوا في جدال مع سكان الحيّ الأسود قبل أن تتأجج الأمزجة، ويثب الغجر بأغانيهم حول البيض والخنازير، وبأفعالهم الخشنة. تحول الجدل في ظل تلك الأجواء إلى شجار بين أناس يضرب بعضهم البعض بقبضة يده من وراء الحاجز. وكانت تلك هي اللحظة التي نتدخل فيها، نحن الطلائع، ونعوهم إلى أن يهدئوا.

كان من السهل أن يفتح أحدهم سكينًا يحمله في جيبه جرّاء بعض الكلمات الغبية، ولم يكن لدى سكان الحيّ الأسود من يقودهم للأسف. لكن الحجة بالحجة. فكنا لذلك نأخذ خطوة للوراء قدر الإمكان، ولا نرد القول إلا بالقول. ونصحح آراءهم حسب ما نعتقد. لكن الجدال بالحجة هو جزء من النظام يشبه القيد الذي يحمله الكلب. كانت تأتي لحظات نقاوم فيها أنا و"أنديلا" بكل أوتينا من قوة وإرادة ألا نجعل من ذلك الكلب الكامن في داخلهم حرّا طليقًا.

فعندما كان سكان الحي الأسود يؤكدون لنا أن الغجر جزء من التعدد الثقافي، وعنصر مجدد لشباب المدينة، اعتقدوا أنه بعد عدة أعوام لن يكون في "كراكوف" من يُعِيل عجائزها، وسيتحولون إلى مساكين يعيشون تحت خط الفقر. الفقر الذي يعاني منه نصف سكان الولايات المتحدة، ولا ينشغل به الرأي العام الدولي على الإطلاق. إكسير الشباب، على طريقة الغجر، كان هو اقتراح الحي الأسود للعلاج. فحتى لو نجت "كراكوف" من ضيق أفق أهلها، ومن المستنقعات التي كان يخشى منها بعض سكان

Twitter: @ketab_n

الحيّ الأسود، ويرون أنه حتى لو عادت مجففات المدينة إلى العمل لن تتحسن الأمور. لو نجت "كراكوف" من هذا كله لن تكون يومًا إلا مدينة للعجائز. واصل سكان الحيّ الأسود كلامهم العابث، وقالوا إنه ليس بيننا أولاد مزعجين، كانوا يشيرون إلىّ وإلى "أنديلا". في تلك اللحظة ظهرت شقيقتي بينهم خلف الحاجز، يتعثر بين أقدامها ذلك الصبيّ القذر.

صحيح أن "كراكوف" بُنِيت وسط مرج أخضر. وعندما دعا الرفقاء الناس للإقامة فيها في البداية كانوا مازالوا في سن الشباب. لم يكن مسموحًا للعجائز بالهجرة إلى المدينة. كان ذلك باسم العمل، وكان من المتوقع أن يكون أداء المدينة مثاليًا. لذلك لم يسكن "كراكوف" جيل أكبر من جيل والديّ. الرجل الوحيد الذي رأيته بها، وكان كهلًا، كان ذلك الجنرال الذي عاصر الحرب العالمية الثانية، وكان يحمل أوسمة سوفيتية، وكانت قدماه نحيفتين. جاء لزيارتنا ونحن في المدرسة الابتدائية. فتركت زيارته وقتها في نفسي أثرًا كبيرًا.

لكن الغجر أنفسهم ألقوا بفكرة أن يكونوا إكسير الشباب لمدينتنا عرض الحائط، أو أنهم لم يأخذوها مأخذ الجدّ. وكان الغجر يصرخون من خلف الحاجز بأننا نازيين، الخ. هل كانوا قادرين على مواصلة المناظرة إلى ما هو أبعد من ذلك؟ كلا. أعلنت عن ذلك هناك صراحة. طلبت منهم أن يكف سكان الحيّ الأسود عن الحديث باسم الغجر، وأن يتحدثوا بأنفسهم عن أنفسهم. وعليه ساد صمت القبور، وألقى أحد الغجر حجرًا، فاندلع النزاع. لا أتذكر أكثر من ذلك. سقطت على الأرض، وتخلّفت خطوط الدم الأحمر من على شعري فوق حجر إسمنتي.

Twitter: @ketab_n

أخبرتني "أنديلا" بعدها بأن شجار عنيف قد اندلع، وأخذ سكان "كراكوف" يردون عليهم بالأحجار، فيعاود سكان الحيّ الأسود مع الفجر الكرّة. لم يعرف أحد كيف يُنهي حالة العنف الذي اندلع.

انتهى الأمر كما بدأ. بقذف الحجارة. لكن هذه المرة تطاير حجر من ناحيتنا، وأصاب ابن شقيقتي. بعدها انصرف الناس.

قالت لي بعدها إنه لولا "كارل" لما تنبأ أحد بما سينهي إليه الموقف. كانت أنديلا تحتفظ بكارل في جيبها دائمًا. فاتصلت منه بأبي فورًا، فجاءت الإسعاف خلال خمس دقائق.

أردت أن أقول إنني أثناء الاحتفالات الكبيرة بالألفية الجديدة لم أجد من أقرع معه كأسًا الشمبانيا. مازال هذا الأمر يؤرقني حتى اليوم. كانت الاحتفالات في "كراكوف" ضخمة. لكن لا يمكن أن أقارنها بالمدن الأخرى لأن التلفزيون في شقة والديّ تعطّل منذ سنوات، ولم يشتري لنا "ماسال"، لي ولـ "أنديلا"، جهازًا آخر في الشقة.

أمر العمدة "ستانيك" أن يبنوا للأطفال بجوار السوق الفيتنامي زلاجة جليد عملاقة، ودعا بعض سكان الحيّ الأسود كي ينحتوا من الثلج بعض التماثيل الثلجيّة الضخمة في دعوة منه إلى الهدنة معهم. لكنها ذابت في النهاية، وانتهت معها الفضيحة سريعًا. فسكان الحيّ الأسود لم يلقوا بالًا لليد الممدودة إليهم بالسلام. في نفس الوقت أخذ الفيتناميون يوسعون أنشطتهم. كان لديهم كشك لتوزيع النبيذ الساخن، وتاجروا أيضًا في رقائق الزلابيا رغم أنهم يكرهون بشدة الرقائق المفعمة بالزيت.

Twitter: @ketab_n

وهنا لُبّ القضية. طرف يكره شيئًا، لكنه يتغلّب على نفسه كي يرضي الطرف الآخر. يطلقون على هذا اسم التعاون والتفكير المشترك. كان تلك هي إحدى أهم النقاط في قانون الطلائع الذي وضعناه، ولم يكن سكان الحيّ الأسود قادرين على أن يأتوا بمثله. وبدلًا من أن يصنعوا تماثيل في الميدان يُقدّرها الناس، مثل تمثال العم "مراز"، أو مجموعة من حيوان الرنّة، أو شجرة عيد الميلاد، قاموا بحفر تماثيل في الثلج لأشخاص مَسخ. قالوا بسخرية إنها أكثر واقعية. وعندما كشفوا عنها لم يرغب أحد في النظر إليها، ولم يفهم ما هي الواقعية التي يدّعونها. هل أن أهل "كراكوف" ببشاعة تلك التماثيل؟ كيف وقد أنهكتهم الحياة حتى صار متوسط أعمارهم الذي قدّره الأطباء أخذ يَقلّ بمعدّل ثلاثة أعوام ونصف عن باقي أماكن "التشيك".

كان الفيتناميون يخدمون البيض في الأكْشاك، لكنهم احتفلوا بالألفية الجديدة على طريقتهم. في الشقق التي تعجّ بهم حيث كانت بضعة أسر فيتنامية تسكن معًا. ارتفع عددهم لأن الطلائع ذهبوا إليهم لتناول الحساء والسمك المطبوخ في الصلصة السوداء. تحولت الشقق على مدار بضعة أيام إلى مطابخ مفتوحة. انبعثت رائحة طعام الفيتناميين بين العمارات، وجاء "ستانيك" ليتذوق طعامهم. كان ذلك ذو معنى كبير، لأنه كان يعني أن مجموعتنا صار لها صفة رسمية. وكان على كل من يسخر من الفيتناميين على لغتهم التشيكية أن يغلق فمه على الفور.

ارتفعت أمام الشقق أكوام الأحذية وبلغت أمتارًا. كانت غرف استقبال الفيتناميين قادرة على أن تستوعب الضيوف أي كان عددهم. أطعموا على

Twitter: @ketab_n

مدار عدة أيام المئات منهم. فتيات الفيتناميين كن تساعدن في العمل بالمنزل، ويزينون المدينة بالأوراق الملونة، ويجمعون بقايا الأوراق المتجمدة في المنتزهات.

جاء إلى المدينة بعض السائحين، وانقسموا فورًا إلى مجموعتين صغيرتين. اتجهت كل منهما نحو هدفها.

ذهب جزء منهم إلى الحي الأسود. زحفوا من أسفل الحاجز في جماعات، وجاء الجزء الثاني من السائحين للهو معنا، ومؤازرتنا.

سألوا إن كان مازال معنا بعض شارات الشيوعيّين، أو أشياء للاستعمال اليوميّ، مثل الصابون المحفوظ في شِباك، أو أحذية البنات الرياضيّة. كانوا يلتقطون صورًا لسيدات في عمر والدتي وهُنّ ترتدين أحيانًا أشياء من العهد القديم، رغم أنها قد صارت بالية بعد أن مرّ عليها أكثر من عشرة أعوام.

كانت الأشياء تهمّ هؤلاء أكثر من القيم، لذلك لم تنتظر الحركة منهم دعمًا كبيرًا. لكنهم كانوا أفضل من المغتصبين البولنديين الذين أمسكوا بـ "ستانيك" بعدما أنهى كلمته لعمال المجففات، وسلموه شهادة معيبة. ورقة تشبه تلك المصنوعة من الورق اليدويّ، ومحفوظة في مظروف عليه خاتم أحمر كبير. في الداخل كانت جملة العار. هؤلاء الناس أعدوا للأمر جيدًا، وقرئوا الجملة على الملأ قبل أن يسلموها لعمدة المدينة. ربما خافوا. غادر العمدة المنصة سريعًا وبهدوء، واختفى وراء الكواليس مثل أي شخص وقعت

Twitter: @ketab_n

هذه الفضيحة في يده. ""كراكوف" – أكثر المدن التشيكية كآبة". كتبوها باللغة البولندية بخط جميل مُنمّق.

تعكّر المزاج الصافي، وتساقطت أنفسهم غمًا وأسفًا. أخذ الناس يهمهمون مثل غابة ثائرة، ويبحثون عن أحجار. اختفت تلك الرسالة اللعينة. واستقل الآخرون سياراتهم، وانطلقوا بها مخلفين التراب من ورائهم، ولم يبق سوى أولئك الشيوعيين الذين كانوا يبحثون عن أشياءنا.

أخذت بعض الطلائع تطارد البولنديين بعربات الـ"فورد" لحظات، ثم انصرفوا عنهم عند حدود المدينة.

تحسّن مزاج المواطنين قليلًا بعدها، وعلا مع ازدهار التجارة. كان الناس يترددون على البيوت لجمع الأشياء القديمة. ثم يفترشون الأرض بالأغطية، ويعرضون قطعًا من الأثاث، وزجاجات صناعة المياه الغازية، والقرنفل الصناعيّ المصنوع من ورق اللوحات القديمة، وكل ما كان لديهم من أيام الشيوعيين.

احتفل الحيّ الأسود، بالطبع، على طريقته. جاءهم الكثير من الموالين. وحسب أرقام السيارات جاءوا من كل أنحاء "التشيك". كان يطلقون على بعضهم اسم "سكفوتي". يُقال إنهم ضاقوا بالمدن الكبيرة لأنهم عجزوا عن السكن فيها، فجاء "الاسكفوتيين" بحافلاتهم البالية بغرض البقاء في جنة الحيّ الأسود. حضر أيضًا الغجر "السلوفاك"، وغيرهم من الرعاع. اجتمع مرة واحدة في الحي الأسود ما يعادل باقي سكان كراكوف بأكملها.

Twitter: @ketab_n

كانوا يتصرفون جميعًا بطريقة همجية. كان يوم الجمعة، وكنا وقتها من الدول المرشحة لدول الاتحاد الأوربيّ، وكانت فرصتنا كبيرة في الدخول على حد قولهم. هل كان الغرب يعلم بما يحدث عندنا. أجزم بأنه كان يعلم، لأن مراسلي التلفزيونات الأجنبية كانوا يتناوبون الحضور عندنا. من المؤكد أنهم كانوا في حالة ذهول مما يحدث في "كراكوف". رغم أن التحضر كان، كما يعرف الجميع، من الشروط الأساسية للدخول في اتحاد الدول المتقدمة. لم تكن حلقة الطلائع تلقي بالًا لمثل تلك الأحاديث الأوروبية. لم نحصل على يورو واحدًا من الصندوق الأوروبيّ. حتى لو حدث لم نكن لنقبل أن يسدّوا أفواهنا بالأموال في ذلك النظام الرأسماليّ.

اتخذوا سكان الحيّ الأسود متجر الخدمة الذاتية السابق الكبير مركزًا لاحتفالاتهم بالألفية الجديدة. كان مغلقًا هناك منذ عدة أعوام. أو ربما كانت الاحتفالات ذريعة لإقامة كرنفال له طابع شاذ، وليس احتفال بمناسبة تاريخيّة.

غطوا اسم المتجر "متجر الخدمة الذاتية" بالملصقات. كانت "ميلادا" و"ستاندا" من أوائل المنظمين. قاموا مع آخرين بسحب الأرفف المتربة من هناك، وأتوا بمقاعد أخذوها من الشقق. ووقف صغيرهم الذي كاد يتجمد من البرد والمخاط يتدلى من أنفه عند المدخل وهو يمسك بصندوق لجمع تبرعات عند الدخول. ذهبت إلى هناك مع "أنديلا" مرتدية ملابس عادية، ومعنا بعض أصدقاؤنا متخفيين. لم يكن في الإمكان استكشاف قوة أعدائنا ونحن نرتدي الزي الموحّد.

Twitter: @ketab_n

كان أكثر من يهمني هو رؤية "ميلادا". كانت مازالت نحيفة، وسوتّ شعرها فصارت صلعاء تقريبًا، أصابعها ممتلئة بِحَلِيّ سرقتها من الشقق. كانت تردد إحدى مقولاتها الشهيرة.

الحيّ الأسود هو نموذج عالمي فريد للتعايش بين المجتمع التشيكي والغجر. وكلاهما يرفض الأعراف، والادعاءات التشيكية القميئة. إن تعايشهم معًا في احترام متبادل بمثابة نموذج لثقافة أوربية جديدة وفعّالة. اختلط نشيج الفتي الصغير، ابن شقيقتي، بالصوت القادم من الصالة حيث الحضور، وحيث الهواء الخانق وبالصقيع الذي يدغدغ العظام. عندما انفجر في البكاء حمله اثنان من سكان الحيّ الأسود من قدميه ويديه إلى الخارج بكل قسوة، وكأنه سفّاح مشاغب.

ثم جاء الدور على "ستاندا" الذي لم يكن متواضعًا. فطالما أراد يكون شخصًا ما فلم يكن يرضى بأقل من دور الريادة، وعندما يفعل شيئًا ما، فلم يأخذ الآخرين في اعتباره. وإن تحدّث نيابة عن أحد، فإنه يتحدّث باسم الجميع. يسمون هذا جنون العظمة رغم أنه مظهره متواضع. طلى شعره الهائج باللون الأسود، ووضع على أنفه نظارة بدون إطار. إنه شخص طويل القامة، يرتدي لباس عُمال من قطعتين. يتأرجح من جانب إلى آخر، وهو ما يترك تأثيره على سكان الحيّ الأسود وعلى الزائرين الغرباء على ما يبدو. فأخذوا يصفرون، ويهددون بقبضة أيديهم وهم يهتفون في صوت واحد.

لم أرى في الحي الأسود شخصيات كهذه من قبل. ليس فقط الفنانين منهم الذين التفوا حول "ستاندا" و"ميلادا"، لكن أيضًا الشباب الذي

Twitter: @ketab_n

حمل لافتات "شي جيفارا"، وأعلام "كوبا" التي كان التف بعضها حول أغطية الرأس الغجرية التقليدية أثناء محاضرة ألقتها سيدة عجوز من المتحف المحلي وهي تَصنع لفافة مخدرات.

محاضرات حول قضية الغجر، والتعدد الثقافي، تتخللها عروض فنية عنيفة. قام سكان الحيّ بخلع ملابسهم وهم يرشون الألوان على بعضهم البعض. ثم التحق بهم غجر آخرون ومعهم عربات مليئة بأطفال يرتدون ملابس مزركشة. كان هؤلاء هم الوحيدون الذين أدركوا أنه يجب الاحتفال باللحظة التاريخية وقدوم الألفية الجديدة ليس إلقاء خطب عن أمور أقحموها عن عمد في المناسبة عن التعدد الثقافي.

هتاف أطفال الغجر الذين لم تكن المحاضرات تعنيهم ولا تعني أمهاتهم الغجريات ولا العجائز من السيدات اللواتي قاطعن المتحدثين بالحقيقة داخل متجر الخدمة الذاتية. لكن الغجر أحدثوا جلبة، فمرّ الأمر على أنه تنوّع ثقافي لطيف، يُثري اللقاء.

تاهت الأصوات داخل الصالة بسبب البرد وصراخ الغجر، ولم يكن ممكنًا البقاء أكثر من ذلك داخل الصالة. لذلك هممت أنا و"أنديلا" و"إيريكا" بالانصراف إلى الخارج بملابس المتلصصين الثقيلة التي تشبه ملابس سكان الحيّ الأسود. رافقنا أيضًا "لان" و"فاي" اللذان بقيا بصفتهما قائدين لفريق طلائع البنات والأولاد وأكبرهم سنًا، رغما أنهما لم يتجاوزا الثامنة من عمرهما.

•

Twitter: @ketab_n

أردت أنا و"إيريكا" أن ننصرف خارج الحيّ، لكن "لان" و"واي" اللذان يزوران الحيّ الأسود للمرة الأولى أقنعانا بأن نُمشّط أرض الأعداء قليلًا على سبيل التمرين. فانطلقنا ندور حول العمارات السوداء، وفيما يسمى بالشوارع. تسكعنا ربع ساعة حتى وصلنا إلى منطقة مظلمة، كانت سببًا في أن نجونا بأنفسنا.

كانت ضربة حظّ وصدفة طبية أننا التقينا بمجموعة من شباب الحيّ المجنون. يجتمعون في غرفة التجفيف بإحدى العمارات. عندما مررنا بهم بدأوا يتدافعون إلى الخارج نحو الشرفة.

رآهم "لان" و"واي". إنهم غجر ومعهم أولادهم الصغار يهتفون فوق رؤوسنا وهم يرتدون ملابس برتقالية اللون، بأن العالم سيفنى. تخيلت نفسي أراهم من ورائي وكأن عيونهم قد كساها اللون الأبيض، وأنهم مع دقات الساعة الثانية عشر سيتطايرون فورًا من الشرفة، ويتجهون برؤوسهم إلى أسفل، وأيديهم متشابكة، ويتحولون فوق الرصيف إلى أشلاء.

كان الأمر يتطلب وجود "كارل" مرة أخرى. لم يسمعوا حديثنا أسفل الشرفة، أو ربما لم يرغبوا الاستماع إلينا، فهم متطرفون، لا يهمهم أي شيء. جاءت عربات الإسعاف إلى الحيّ الأسود لأول مرة منذ سنوات، وقاموا بالتقاط كل من قفز من الشرفة فوق شراع بسطوه في أيديهم.

وصار "لان" و"واي" في لحظة أبطالًا في عيون كل أهل "كراكوف". أخبرتهم أنا و"أنديلا" بكل فخر بأنهما أصحاب فكرة التسكع في الحيّ

Twitter: @ketab_n

الأسود، وأنهما أول من رأى هؤلاء المجانين، وبدونهما كانت مجموعة المجانين تلك في عداد الأموات الآن.

حدث ما لم نكن نحلم به، أن تأتي اللحظة المناسبة بهذه السرعة. أحيانًا يكفي القليل. فاض الكيل لدى المواطنين في مدينة "كراكوف". ولم يتحملوا أن يروا حالات الانتحار. بدأت الناس تتجمع في حشود كبيرة. أصبح الحضور بصواني الحلوى بلا معني. وحدث العكس. رأوا ضرورة دعم دورياتنا في الشوارع، ومضاعفة أماكن استقبال الناس ثلاث مرات، وطباعة استمارات الالتحاق من الصباح وحتى المساء. كانت الناس تأتي ليس فقط أُسَرًا، بل سكان عمارات كاملة، وبلوكات بأكملها. جاءوا جميعًا في حالة تأهب. يرتدون أحذيَة بأربطِة لها نعل مرتفع. انقسموا تحت قيادتنا إلى فِرَق. لم ينتظروا منا سوى القيادة. دبّت رياح العزيمة في كل أرجاء "كراكوف"، وارتفعت مثل راية ترفرف في الهواء.

كان بعضهم مازال يرتدي قميص الشيوعيين الأزرق. لبسوه تحت معاطفهم، ارتدوا أيضًا القبعات، وشارات الولاء التي صنعوها على عجل من الورق. انتشرت المسيرات في صفين وأحيانًا خمسة صفوف في الشوارع العريضة. تجمع الكثير من المتحمسين من المناطق المحيطة، وعبروا "كراكوف" في مسيرات على قلب رجل واحد. كان هدير أحذيتهم يهزّ واجهات المتاجر، وأصوات مكبرات الصوت يسمعها سكان الحيّ الأسود. نداءات بأن الأمور لا يمكن تستمر على ما هي.

كان المواطنون يتخطفون مكبرات الصوت من أيادي بعضهم. فجأة بدا أن لكل منهم تجربة شخصية مريرة مع مجانين الحيّ الأسود. تشهير،

Twitter: @ketab_n

وسطو، ومداهمات ليلية، ومضايقات لبناتهم من قبل أوغاد الغجر. كما أن عد كبير من بنات أهل "كراكوف" يتواجد على الجانب الآخر من الحاجز. أعز ما لديهم انحرف عن الطريق. لم يغرق فقط في الظلمات، بل أخذ يحارب أهله. لا ينفي أحد أن الأقارب يعرفون ذويهم كما تعرفهم محطات التلفزيون والصحفيون الذين أخذوا بأيديهم. كثير من سكان الحيّ الأسود ظهروا على صفحات الجرائد. إنه المجد السريع الذي يحلم به كل إنسان. وبقيت الأسر الممزقة تحارب ضد بعضها. وانتشر الخوف من الحماس المتصاعد على كلا الجبهتين. إما أن يفتح أهل "كراكوف" أعينهم بسرعة على الحقيقة، أو تسقط المدينة بأكملها في أتون كراهية عرقية. كلا. كان الفيتناميون يقفون معنا، وكنا نحن مَن شكل جدارًا عازلًا ضد التفكك والسقوط الذي زحف علينا من الحيّ الأسود مثل الفطر الأسود المتعفن.

كانت حركتنا بيتًا ومَرسى، على عكس جماعات الحيّ الأسود المتنافرة. كانت نظامنا المتناسق يتميز بالطاعة.

فليحبوا المدن الأخرى كما يشاءون! فجيوش أوروبا لن تأتِ لمساعدة أحد. ربما جاءت للمساعدة في النزاعات العرقية. لكن ما هو عِرق الغجر؟ مجاذيب برفقة فنانين؟

تصدرت صورة "واي" و"لان" الصفحة الأولى في جريدة "كراكوف" المسائية. كتبوا عنهما وعن باقي الفيتناميين الحقيقة. أنهم كانوا دائمًا يحصلون على أعلى الدرجات في المدرسة الابتدائية. وكانوا منذ صغرهم يعملون في الأكشاك بنشاط. لم يعرف أحد عنهم أنهم كانوا يكذبون. كان من حق والديهما، "فاندا" و"هونزا" أن يتبخترا زهوًا.

Twitter: @ketab_n

من الصعب التكهن إن كان ذلك بسبب صور الصبيين "واي" و"لان" الكبيرة في جريدة "كراكوف" المسائية التي طالعها كل من أراد. أدلى أحد سكان الحي الأسود بمعلومات بغرض تشويه سمعتنا، وانتشرت في المدينة أقوال بأن كثير من الفيتناميين هم في الحقيقة صينيون متخفون، وأن معسكر الطلائع التابع لنا يعيش على أموال من دولة الصين. بدأت تنتشر في المدينة أقول حول الأموال التي نمول بها أنشطتنا، وأزياءنا. أعترف أن مثل تلك الأقاويل أزعجتني أنا و"أنديلا"، وأثارت حفيظتنا. الناس في لحظات الأزمة عليهم أن يتحدوا معًا، لا أن يتحدوا ضدنا، ويدبروا المكائد لنا، نحن حراس الحقوق المدنية. كما أن الأمر يتعلق بالأفكار، ثم تأتي بعدها الأموال التي تساعد تلك الأفكار. كل تلك المهزلة أزعجت "ماسال" بشدة. فجاء لزيارة أنديلا فجأة، وأخذ يزمجر. فقد دفع أموالًا طائلة، وصار التلصص على مصادر أموالهم مصدر خطر له.

فكرت في أن أتجول في "كراكوف" بعد فترة طويلة مما حدث: ماذا بعد؟ لم يكن هناك سوى طريق واحد. لم يكن طبيعيًا أن يعاني أبي وأمي من البكتريا نتيجة عدم النظافة، ولا حتى في أوقات الثورة. فأسرعت الخطى، واشتريت وأنا في طريقي لزيارتهما خرقة جديدة، وإسفنجة لتنظيف الأواني.

توقعت أنهما مازالا في العمل. كنت أعرف بمواعيد وردياتهما. وعندما كانا يحضران قبل أن أنصرف أكون قد فرغت من التنظيف. أعبث في أشيائي في الغرفة من أيام الطفولة، أو أبحث عن شيء تستفيد منه إحدى

Twitter: @ketab_n

الفتيات الفيتناميات على سبيل المثال، أو أشرب الشاي في المطبخ، وأقرأ شيئًا عن حركة العمال. عادي!

لكني توقعت وقتها من كالون الباب أن أحدًا في البيت. تمنيت للحظة ألا تكون أمي مع "شرامك". سأصاب بنوبة قلبية لا أفيق منها إلى الأبد. هُراء! أم أن أبي قد وجد رفيقة له؟

لن أندهش لو فعل، رغم أن هذا ليس طبعه. لم يكن الأمر كذلك رغم فزعي الشديد.

كان أبي مستلقيًا على الأريكة وقد طوي جسمه، وظهره يرتجف بغير انتظام. كان يبكي وهو يضع كفيه فوق وجهه. وصار مسند الأريكة ملطخًا ببقع من دموعه.

مررت يدي عليه.

هدأ، ثم بدأ يتحدث وسط دموعه دون أن ينظر إليّ.

- ماذا لا تردي على الهاتف؟ اتصلت بكِ أكثر من مرة.

قلت له ما حدث بالفعل:" لم أسمع "كارل" وسط المسيرات. وفكّرت أن أتصل بكَ لاحقًا. ماذا حدث؟"

- أُمُك غادرت البيت.

قالها بصوت باهتٍ تمامًا. كان واضحًا أنه خائف من الأسوأ، لكنه لا يعرف ما هو على وجه التحديد. كان ينتفض بشدّة.

Twitter: @ketab_n

قبل الأمس. مر على غيابها يومان. ولا يعرف عنها أحد من زملاءها في العمل أي شيء. فلم تظهر هناك.

- هل تحدّثت مع ياركا؟

هزّ أب رأسه. هي الأخرى لا تعرف شيئًا عنها. ولا حتى "ياركا" وزوجها. وأنا لا أعرف أحدًا غيرهم قد التقى بها.

ثم التفت إليّ، وسألني: "ماذا سنفعل؟".

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

6

حالفني الحظ أن أرى ما حدث. أن أرى الحوار التلفزيونيّ الذي جعل من "ستاندا" واحدًا من المشاهير كما أراد، ومن شقيقتي أيضًا. كنت عندهما في شقتهما عندما عادا. أعطيت لشقيقتي كومة من الملابس لصغيرها. أحذية ثلج، وملابس مُوبِره، وسترات عليها صور. كانت كلها جديدة كي لا يسعل الصغير في أول شتاء في الألفية الجديدة، وكي لا تتجمد أصابع قدميه. فقد كانت أولويات شقيقتي مختلفة، وكنت أنا خالة ذلك الصغير، وهذه حقيقة لا يستطيع أحد أن ينفيها عني.

كان فريق مصوري التلفزيون من "ألمانيا". كنت أعرفهم، مجموعة من الأشخاص الذين أجروا مع ستاندا حوارًا عند الحاجز وقتها.

قال "ستاندا" بعدها بأنه استقبل فريق العمل لأنه لا كرامة لأيّ نبيّ في "التشيك"، ولا يرى الناس هنا أية أهمية لأحد. لكني احتفظت برأيي

Twitter: @ketab_n

لنفسي. ففريق التلفزيون لم يأتِ لمقابلتي. وقد أعربت عن رأيي في "ستاندا" والفنانين من قبل.

تصبب "ستاندا" عرقًا عندما أخبرته المترجمة عن هوية فريق التليفزيون، وعما يريدون منه، وأخذ يدعوهم للجلوس على الصناديق، وفوق المقاعد المتداعية في كل مكان. من المؤكد أن فريق التلفزيون الألماني تعجّب من ذلك العرين الذي ليس به غرفة للصغير. وأهم من ذلك هو أن يكون لدى "ستاندا" غرفة لإعداد الصور، وأن يكون لدى شقيقتي مرْسَم. تظاهروا بأن الأمور طبيعية. وأن هذا أمر مفهوم. فقد عانوا الكثير كي يصلوا إلى هنا عبر الطرق السيئة، واستمعوا إلى مُخرج أخبرهم بأنه سيصوّر فيلمًا عن ذلك الرجل رقيق الطبع. أخذ الألمان يتفحصون الأشياء التي أحضرتها لهم شقيقتي في الحال، بينما "ستاندا" يتحدّث إلى الكاميرا بإسهاب عن طفولته في ظل النظام الشيوعي الديكتاتوري. أحضرت لهم اسطوانات عليها صورهم، ولوحاتها، وملصقات، وكل ما كان لديهما. فوضعت أمامهم جبالًا منها. لا يمكن تزييف كل هذا الكم من اللوحات. هذا صحيح. لكن إنزال عربة فحم، أو مرافقة حركة الحقيقة الدولية في "كراكوف" هو الآخر ليس عملًا سهلًا. ولم يكتب أحد حتى ذلك الوقت أية مقالة تستحقّ الثناء عما فعلناه.

وقف "ستاندا" بجوار النافذة. كان نصف وجهه غارقًا في ظل أسود، ولا يظهر منه سوى النصف الأخر. وأصابع طويلة ونحيفة يعبث بها في شعره من وقت لآخر، ويسعل كل عدة دقائق وكأنه قد أصيب في معسكر

Twitter: @ketab_n

الشيوعيين بالسُّل. كان عليه أن يعرف كيف يؤثّر في المشاهدين أمام شاشات التلفزيون.

ظهر بالصورة التي أرادوها. نحيفًا، وبدوائر سوداء حول عينيه. بمثل تلك الهيئة يعتقد الآخرون أنكم تأخذون الأمر مأخذ الجِدّ، رغم أنه قد يعني أيضًا أنكم تعيشون الحياة بطريقة سيئة، وتشربون الكثير من الخمر الرديء منذ أيام السترات المتهرئة في مدرسة "كراكوف" الابتدائية، حيث كنا نعرف شلة "ستاندا" من على بعد من ملابسهم، وتسريحات شعرهم الغريبة. ثم في فترة المراهقة حيث راح نجم "ستاندا" يعلو، ويعلو، ويعلو. لو أن المهم في الأمور هو ما يملكه الإنسان في داخله، كما كان المتذمرون يرددون، ويصفون الناس العاملة بأوصاف سيئة، فإن محاولة "ستاندا" وشقيقتي الظهور على نحو مختلف لجديرة بالازدراء. لكن "ستاندا" كان يجيد إقناع الناس.

سحب على الفور كتابًا منسوخًا، كان ينسخه مع والديه وهو صغير. فقام الألمان بتصويره بكل حماس. ثم قدّم لهم صورة كبيرة لـ "فيدليتشكا" الأب، بينما المترجمة تنقل كل ما يقوله.

صاح "ستاندا" بحماس: بدأ الناس ينسون كيف كانت الحياة قبل خمس عشرة عامًا. وانظروا إلى شكل الحياة اليوم في "كراكوف".

صوّبت شقيقتي نظرها نحوي، وأنا أضع الطفل الصغير المتيقّظ فوق قدميّ، لكنه كان هادئًا تمامًا وهو معي.

Twitter: @ketab_n

أُجزم لو أن "فيدليتشكا" الأب كان في الحزب، ولو أن "ياركا" عملت موظفة في اتحاد المرأة لما كانت لصور "ستاندا" أية أهمية عند الألمان. لكن "ستاندا" كان بمثابة بندقية قديمة للمتذمرين، وكان لديه دلائل على ذلك. صورة من سجلات أمن الدولة مع مجموعة ضخمة من الصور في موقع الأحداث، حيث كان الأب "فيدليتشكا" في أوج نشاطه، وكانت "ياركا" قادرة على حمل برميل من البيرة وحدها لتذهب به إلى الأمسية التي نظمها المتذمرون.

لم يقل ذلك صراحة، بل بطريقة يتضح منها أن أبيه لم يجد له مكانًا في العهد الجديد، ليس عن عجز منه، بل قناعة بالعدالة. فرفض ركوب قطار الوظيفة في العهد الجديد عن عمد، تمامًا كما رفض من قبل بطاقة العضوية في الحزب، كذلك فعل هو و"ميلادا". ببساطة عزفوا جميعًا عن الأمر.

كنت أهتزّ في مكاني مع الصغير فوق المقعد. كانت يدي تدعوني إلى رفعها لقول كلمة الحقّ، لكن فريق التلفزيون هذا لم يكن ليعطيني الكلمة. يكفي أني أفسدت عليهم الصورة. كانت شقيقتي تقف أمامي على الدوام، وتدفعني إلى الخلف بمؤخرتها، وكنت أنتقل من مكاني شيئًا فشيئًا إلى أن انتهيت في أحد الأركان. لم ترغب في أن أظهر معهم في الصورة. فظهوري الضئيل قد يفسد عليهم صورتهم الجميلة في التلفزيون.

أتوقع أن "ستاندا" هو من أشار إليها أن تفعل ذلك. ورغم نجاحها الكبير، واعتبارها فنها بالأهمية الكبيرة مثله تمامًا. لكن، على العكس منهم، لم يظهر البقّ في بيتنا يومًا، وهو ما يعني أن فتاة من أسرة سيئة السمعة لم يمنعها طفل صغير من مواصلة عملها. لا أعرف. كانت شقيقتي تحجبني، و"ستاندا" يثرثر، وأنا لا أفهم ما يقوله الألمان.

Twitter: @ketab_n

بقيت هناك حتى النهاية. وعندما سأل الألمان "ستاندا" عن الشيء الذي لا يمكنه التنازل عنه في حياته بأي ثمن. قال:" الحياة في الحقيقة". في الوقت الذي يقف ابنه خلف ظهره متكأً علىّ. لم يذكر لهم طوال الوقت كلمة واحدة عن ابنه.

لو كنت من النوع الحسّاس لذهبتَ في ذلك الصباح إلى الحمام لأتقيأ. لكني بقيت جالسة هناك. أهزّ قدميّ، وأدعو الله أن يمنحني القوّة، رغم أني لا أؤمن بوجوده. لكن شيء من هذا القبيل كنت أتمنى بقوة أن أفعله.

تدهورت الأوضاع بشكل مفاجئ. لم ننم تقريبًا. تزايدت أعداد الميليشيات الشعبية من "كراكوف" التي كنت أهتم أنا و"أنديلا" بهم. كان من الضروري تنظيم صفوف المواطنين الذين أخذوا ينضموا إلينا كل يوم، وتقسيمهم إلى وحدات مقاتلة صغيرة مع تحديد قيادة لهم. كنا نختار رؤساء المجموعات بأنفسنا بعد التشاور مع "لان" و"واي" وأعضاء قدامى آخرين في الطلائع. كنا نضع ثقتنا في الرفاق الذين تشاركوا معنا منذ البداية، في السراء والضراء، بغض النظر عن كونهم بالغين، أم غير بالغين.

سقط في تلك الأيام الحاجز الذي كان يفصلنا عن الحيّ الأسود. قام الناس بشطره إلى نصفين، وسحق أحجاره، وأخذوا يرقصون وهم يمسكون بقطع الأخشاب في أيديهم رقصتنا الهندية التي ترقصها قبيلة "هوكاما". ولم يبق مكان الحاجز إلا قطعة من الأرض لا يملكها أحد، شطرت الجمع إلى فريقين متنازعين. وصارت المسألة بضعة أيام تالية، أسبوع على الأكثر ليتحدد مصير المدينة، ومن سيسيطر عليها.

Twitter: @ketab_n

دخلت الأسلحة لأول مرة في النزاع. وتطايرت الطلقات في الهواء على كلتا الجبهتين. بدأها الغجر في الحيّ الأسود بطلقات صوت يصاحبها ابتهاج وكأننا في أحد الموالد. وكأنهم لم ينتبهوا إلى خطورة الأمر بعد.

كانت مراقبة الأمر تتطلب سعيًا دائمًا بين وحدات "كراكوف"، كي لا يخرج برميل التراب من جانبنا عن السيطرة، وإعطاء تعليمات بالابتعاد عن التهور وإراقة الدماء، وتوزيع الأزياء، وتسجيل الأعضاء الجدد، والدعوة إلى ضبط النفس. كنا نكرر ذلك في اليوم عدة مرات من خلال كل مكبرات الصوت في "كراكوف"، كي لا ينسى الناس، ولا يفقدوا صوابهم وسط كل تلك الفوضى.

لن أخفي أنه في "كراكوف" نفسها كان هناك من يختلف معنا. لكن بأمانة، لم يكن عددهم كبير. كان أحد هؤلاء القلائل "توماش"، شقيق "إيريكا" الذي يزعجني بعزفه على البوق منذ صغري، وكان صوته يصل إلينا من الطابق الذي يسكنه. كانت الحوائط النحيلة تهتزّ وكأنها أسنان تضطرب. بدا "توماش" مضطربًا أيضًا عندما التقيت به بعد يوم من سقوط حاجز الحيّ الأسود، عندما التقيت به في الشارع.

في البداية لم يعرفني بسبب الزيّ الجديد الذي كنت أرتديه. كانت أكتافي غالبًا منكمشة. كما أنه لم يراني من قبل وأنا أمشي بخطوات واسعة في شوارع مسدودة، وأوجه الحشود. لكنه تعرّف عليّ لاحقًا. تقدم مني، وطلب مني أن أتوقف عما أفعله قبل فوات الأوان. كثير من الناس كانوا ينضمون إلينا عن حماقة منهم. فلم يكونوا على علم بأي شيء. لم يذهبوا إلى أي مكان، وغير قادرين على أن يسألوا الكبار عما ارتكبه النظام القديم

Twitter: @ketab_n

من أهوال. لم يدعوني أكمل ثلاث جمل عن الرعب الذي سببته الرأسمالية، كذلك فعل كل من هم حولي، والقريبون مني. لم سمحوا لي بذلك، وكان "توماش" على رأسهم.

لم أكتفي بذلك، بل رحت أتردد في تلك الأيام على أبي مرة في اليوم على الأقل كي لا يرتكب أية حماقة. فلو أن بندقية وقعت في يده وقتها، فلن يصوبها إلى ناقد متطفل، بل سيوجهها نحو رأسه هو شخصيًا.

كنت أعتقد أنه لم يعش مع أمي كزوج منذ وقت طويل. كانا مجرد مواطنين مجبرين إلى أن يتشاركا نفس الشقة. لكني أعترف بكل صراحة أني لم أفهم يومًا أمور القلب والجسد.

كان "ماسال" يظهر في الشقة عندنا أنا و"أنديلا" في تلك الفترة كل دقيقة. وبدلًا من أن أستريح قليلًا كنت أنتظر فوق الدرج طويلًا حتى يفرغا مما يفعلاه. يقولون إن الأمور الجسدية تُدلل بشكل كبير على حالة الحرب. ابتسمت "أنديلا"، وقالت لو استمرت لبعض الوقت لأنفصل "ماسال" عن زوجته، ولزاد عدد أهل "كراكوف" واحدًا. لو لم يجتمع الناس في الشوارع، لأنجبوا الكثير من الأطفال في بيوتهم، وفي أروقة العمارات.

انطلقت "أنديلا" بهذه الكلمات وهي تخرج من الشقة التي غادرها ماسال قبلها بقليل. كانت في غاية الإرهاق. وأنا أقف عند الباب أتابع على عجل تطور الأحداث قبل أن تنصرف أنديلا لأداء مهامها، وأذهب أنا لأغفل عدة دقائق، لا أكثر.

Twitter: @ketab_n

اشترى "ماسال" مصنع "هونيات"، وظل يدعمنا بلا توقف. بسبب ذلك الدعم حصل كل رئيس فريق في الطلائع على جهز كمبيوتر صينيّ. استطاعوا أن يرسلوا التعليمات من خلال رسائل البريد الاليكتروني، أو يتبادلوا عناوين الصفحات التي تتحدث عنا. كانوا يعرفون بما نفعله، ليس فقط في الجمهورية التشيكيّة. وكما يقولون: كانت أنظار أوروبا المتحضرة مصوّبة نحونا.

بسبب "ماسال" كان لدينا أيضًا ما نأكله. توقفت مصانع كراكوف عن العمل، وتوقفت معها الرواتب. وكان غالبية الطعام يأتي إلينا من عند الفلاحين ومن القرى البعيدة خارج كراكوف على عربات ماسال التي يستخدمها في نقل الأثاث. كان يتم ذلك بالقوة أو مقابل أموال بسيطة.

تداعى الناس علينا كسيل من الأحجار. ولم أندهش عندما دق جرس الباب عندنا ذات يوم، ورأيت شقيقتي تقف خلفه ومعها "ستاندا" وطفلهما الصغير. وكأنه حلمًا. لم أندهش لدعوتهم لي لحضور معرضهما. قام المحتالون في العاصمة بتنظيم معرضًا لأعمالهما، بينما "كراكوف" تعجّ بما فيها.

شعرت على الفور بالفخ الذي ينصبونه لي. طبعًا. لكنها ربما كانت المرة الأولى التي تطلب مني شقيقتي شيئًا ما. وأخذت تقسم بأغلظ الأيمان بأنها ليس لها أية أغراض خبيثة من وراء الدعوة.

لم يكن هناك مجال للتفكير. أشرت إلى الصبيّ، وقلت لها:

- اقسمي بهذا الصبيّ!

Twitter: @ketab_n

اندهشت شقيقتي، ونظرت إلى ستاندا الذي هزّ لها رأسه.

- أقسم لكِ بحياة ابني!

فتصافحنا بعدها.

وكان القسم. جاء وقت كان فيه نقص في كل شيء. نقص في المؤن، وعجز في جميع وسائل النقل بسبب تنقل الوحدات المستمر، وضرورة نقل الطعام والأشياء الأخرى الضرورية. تصيّد ستاندا وميلادا حافلة قديمة. حافلة اتخذها سكان الحيّ الأسود من قبل بالتأكيد مأوىً لهم. ليسوا وحدهم، لأن مقاعدها كانت تعجّ برائحة القطط النتنة. استغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى استطاع السائق إدارة محركها. وفي النهاية انطلق.

جاء معنا كل معارفنا القدامى من الحيّ، ما عدا ياركا التي ذهبت قبل يومين لحضور حفل زفاف شرامك بصحبة فيدليتشكا الأب. تحسّنت صحته بصورة فجأة منذ أن اختفت أمي، وتوقف أبي عن التردد عليه.

قالت شقيقتي التي جاءت على الفور لتجلس بجواري في الحافلة إنها تحسّنت لأن أبي، عميلُ أمن الدولة العجوز، نسي أن يعطيه حبّات الدواء المخدّرة وهو غارق في الحزن على أمي. كانت تقهقه بطريقة مقيتة طوال حديثها. جلس في الحافلة أيضًا على مسافة بعيدة قليلًا ماسال وزوجته. وكان يُرسل إليّ بإيماءات وهو جالس في الصفّ الأمامي. وعندما تحركت الحافلة أخذ يرسل رسائل قصيرة لـ أنديلا، واحدة تلو الأخرى. وخلف ماسال جلست عائلة هروبش. كان مطعمهم في تلك الأيام خاليًا من الزبائن تقريبًا.

Twitter: @ketab_n

كانت معارفنا كلها في الحافلة، إضافة إلى عصابة الحيّ الأسود. جلس الصبيّ على المقعد طوال الوقت بجوار أبيه. كان الوقت كافيًا أن يتقرّب منه بصورة كبيرة قبل أن نصل إلى براغ.

انتقلت قيادة كراكوف إلى أنديلا، وواي، ولان. كان على أنديلا أن تحافظ على مواقعنا حتى نعود. وتولى واي تأمين المؤن، ولان التنسيق بين القيادات الرئيسية.

يجب أن أعترف أن السفر عبر الأراضي التشيكية كان تجربة فريدة لم أرى مثلها من قبل. كانت رأسي ملتصقة بالنافذة طوال الوقت، مبهورة مما أراه. كنا مضطرين إلى مغادرة الحافلة أكثر من مرة بسبب الحفر على الطريق، فلم تكن الحافلة قادرة على تجاوزها. لكن بمجرد أن تجاوزنا طرق مدينة كراكوف أصبح الطريق رائعًا.

كانت المروج خضراء، على خلاف الصحراء عندنا التي لم تنبت فيها الحشائش يومًا. بيوت تشع بأسقفها الوردية، وتضيء بألوانها الزاهية، وجماعات أطفال سعيدة تقف عند أعتاب تجمعات الفيلات، ومقاعد متينة تعلوها أفرع أشجار الكستناء البراقة، ونوافذ بلاستيكية جديدة. كله يمتد على جانبي طريق مستوي، خالي من الحفر والأخاديد. شيء رائع.

يمكن أن نتعلم شيئًا من الرأسمالية بعد أن تستقيم الأمور في كراكوف، شيئًا عن النظافة والسعادة.

Twitter: @ketab_n

أخذت أقول لنفسي: ربما صارت الأمور على هذا النحو في منطقة رائد الفضاء ريمكا لو أن العاملين حصلوا على حياة آمنة، ونالت العناصر الهدامة الحد الأدنى من المسكن اللائق.

طالبتنا شقيقتي أن نتوقف عند قرية لوتشا. لكنه لم يكن رأيًا سديدًا.

لم يكن هناك سوى بركة كبيرة. منطقة ضخمة موحلة وقذرة، غطت أحد المناجم المهجورة. إنه المكان الذي ولدت فيه أمي، وأنا وشقيقتي. لم يغادر الحافة إلا شقيقتي. أخذنا نقضم الخبز المدهون، ونتابع شقيقتي من خلف النوافذ المتربة. نراها وهي تأخذ حجرًا صغيرًا من عند البحيرة وتدسه في جيبها. وأبي طوال الوقت يهمس في أذن الصبيّ. كان عليه أن يخبرنا نحن بما يهمس له به. كيف كان الأمر. فأنا لا أعرف شيء عما حدث. هل أراد أن يغادر لوتشا، أم كان مضطرًا إلى ذلك؟

وفجأة ظهرت مدينة براج الكبيرة. في البداية هياكل مخازن قصيرة ومستطيلة. كانت هي الأخرى نظيفة، لكنها لم تبدو مناسبة للعمال. مصانع على شكل قِباب، وواجهات زجاجية تمتد لكيلومترات ممتلئة بالسيارات، ومستلزمات الحدائق، وطعام يكفي جيوش من البشر، تحمله صفوف من المواطنين في عربات التسوق.

ثم ظهرت عربات الترام. تشابكات المحطات النهائية حيث يقف عند الأكشاك أناس في هيئة غير مهندمة، ويشربون من أكواب بلاستيكية.

لم يخطئ من قال إن العواصم تجذب أناس من كل الأنواع. فدائمًا ما جذبتني براج مثل شقيقتي.

Twitter: @ketab_n

كان واضحًا أنها قلقة تمامًا من افتتاح ذلك المعرض. جاوزنا أطراف براج، واتجهنا ببطء شديد نحو صالة معارض ضخمة على شكل مُكعّب، تسمى (مانِس). لم يظهر أحد وسط حارات الطرق. السيارات تسير في صفّ واحد وكأنها عربات قطار متصلة. كان واضحًا أن أحد من الشعب المسكين لا يعبأ بقضية ضيق المكان. ثم رأينا القلعة، وكاتدرائية (فيتا)، نسيت معها كل شيء في ذلك الصباح. إنه جمال يخطف الأنظار.

يبدو أن ذلك كان حال الباقين من أهل كراكوف. فعندما تطلعت حولي في الحافلة، رأيت الجميع ينظرون في نفس الاتجاه، وأفواههم مشدوهة.

بدا المبنى الذي أقيم فيه المعرض بصورة جيدة هو الآخر. وقف سرادق المعارض الأبيض بجوار برج أسود تابع لمحطة مياه قديمة وكأنه رجل تشيكي حق، يقف بجوار أحد حثالة الغجر. كان ذلك البرج جميلًا رغم سواده الذي كان مجرد لون.

كنت أفكّر وستاندا يدعونا إلى مغادرة الحافلة فيما قد افعله في هذه المدينة لو عشت مع أنديلا في قلعة براج. كل ما سنفعله هو إصدار التعليمات. لكن كراكوف تكفينا. ومن يدري إلى متى. وقفت الحافلة في المرفأ الذي يطل على منظر خلاب لنهر "ڤلتاڤا".

لا أعرف الكثير عن معرض شقيقتي وستاندا للصور واللوحات القبيحة لأن الأحداث لم تسمح لي بذلك. بعد أن غادرنا الحافلة بدقائق جاءتنا أخبار براج عن طريق العاملين في صالة المعارض. أصيب شرامك بطلق ناري أثناء حفل الزفاف. وهرب الشخص الذي أطلق عليه النار.

Twitter: @ketab_n

ذلك الشخص هو امرأة كبيرة في السن، وضئيلة الجسد. أمي. حدث هرج ومرج بين راكبي الحافلة. شعر الجميع فجأة بأنهم أبناء بلدة واحدة، والتحمنا ببعضنا. لم يكن سكان الحيّ الأسود، لحسن الحظ، على دراية بما يحدث، وراحوا يفكرون في الفاعل.

كانت صالة المعرض ممتلئة بالزوار. يبدو أنهم كانوا في انتظارنا. أردت أن أسألهم عن التفاصيل، لكن بمجرد أن جاء شاب تبدو عليه سمات العلماء، يرتدي سترة ما، وأخذ يلقي كلمات افتتاحية حول معرض استثنائي له أهمية قومية سمعت صوت كارل. أخذ الهاتف يرن بلا توقف كالمجنون. كانت كلمات الشاب تصل إلى مسامعي وهو يتحدث عن ضرورة طي صفحة الماضي. كلمات كنا نقرأها جميعًا في الجرائد منذ زمن. فأخذ أبي وغيره يتثاءب بصورة لافتة.

لم أسمع أكثر من ذلك لأن كارل واصل الرنين، مما اضطرني إلى الانصراف من القاعة.

اتصلت بي "أنديلا". لم أسمعها جيدًا بسبب الضجيج وصوت الطلقات حولها. قالت إن الحاويات التي تحمل أشياءً قادمة من الصين قد وصلت، لكن يبدو أنها وصلت متأخرة، كما أن الدعم لم يصل من مدينة "دبراتسين" ولا من مدينة "خاركوفا". بعدها يبد أن أحدهم يسحب كارل من يدها، لأني سمعت صراخًا، وأنديلا هي الأخرى تصيح. وعلا للحظات صوت بكاء أحدهم، ثم صمت هاتف "أنديلا" تمامًا.

صمت. وخلف الحائط الزجاجي مازال الشاب يثرثر بكلام حول الفن، وفتاة هناك تحمل كؤوس الشمبانيا فوق عربة بها عجلات. صمت.

Twitter: @ketab_n

جلست على الرصيف.

اتصلت بعد دقائق كل من لان وواي. كانوا يتحصّنون في قبو بيتنا. لكني لم أفهم أيًا مما قالاه. انفجر كلاهما في البكاء وهم يتناوبون الهاتف بينهم. لم أسع منهما أي شيء مفيد. أرادوا النصيحة من رئيستهم فيما سيفعلونه. لكنهما كانا يعرفان تمامًا ما عليهما أن القيام به. فالحل الأخير دائمًا لا بديل له، وكل الطلائع كانوا يعرفون به.

يعرف الجميع ما آلت إليه الأمور في كراكوف. كراكوف التي تجاهلتها الجمهورية القاسية على مدار سنوات وصارت عنوانًا ورمزًا لكل حاضر التشيك. لذلك لن أكرر كل ما كُتِب وقِيل عن كراكوف في محطات التليفزيون. فهو لا يعد ولا يحصى. تحدّثوا عنها كثيرًا في وسائل الإعلام، قيل عنها الكثير والكثير.

أضيف فقط أن قَسَم ميلادا بأن الذهاب إلى براج لا ينطوي على أيّ خدعة لم يكن صادقًا تمامًا.

على الأقل من ناحيتي. لقد كلفني كل شيء، وكلف هؤلاء المحامين، وعلى رأسهم "ماسال". لكنها خطوة جريئة تستحق التجربة. كان يكفي وصف البيئة التي ترعرع فيها ذلك الصبي حسب الواقع كي يعرفوا فورًا أنه ابنه.

ينتظرني الآن في ذلك البيت كلاهما. الاثنان، كل ما تبقى لي.

وأول شيء سيحصل عليه (ڤويتا) بعد أن يطلقوا سراحي هو زي الطلائع. سنبدأ من جديد. في مكان آخر. لن يثنينا أحد عن هدفنا.

Twitter: @ketab_n

#كتب_مختلفة #التشيك

حدث ما لم نكن نحلم به، أن تأتي اللحظة المناسبة بهذه السرعة. أحيانًا يكفي القليل. فاض الكيل لدى المواطنين في مدينة "كراكوف". ولم يتحملوا أن يروا حالات الانتحار. بدأت الناس تتجمع في حشود كبيرة. أصبح الحضور بصواني الحلوى بلا معني. وحدث العكس. رأوا ضرورة دعم دورياتنا في الشوارع، ومضاعفة أماكن استقبال الناس ثلاث مرات، وطباعة استمارات الالتحاق من الصباح وحتى المساء. كانت الناس تأتي أسرًا، بل سكان عمارات كاملة، وبلوكات بأكملها. جاءوا جميعًا في حالة تأهب. يرتدون أحذية بأربطة ذات نعل مرتفع. انقسموا تحت قيادتنا إلى فِرَق. لم ينتظروا منا سوى القيادة. دبّت رياح العزيمة في كل أرجاء "كراكوف"، وارتفعت مثل راية ترفرف في الهواء. كان بعضهم مازال يرتدي قميص الشيوعيين الأزرق. لبسوه تحت معاطفهم، ارتدوا أيضًا القبعات، وشارات الولاء التي صنعوها من ورق على عجل. انتشرت المسيرات في صفين وأحيانًا خمسة صفوف في الشوارع العريضة. تجمع الكثير من المتحمسين من المناطق المحيطة. وراحوا يجوبون "كراكوف" في مسيرات على قلب رجل واحد. هدير أحذيتهم يهزّ واجهات المتاجر، وأصوات مكبرات الصوت يسمعها سكان الحيّ الأسود. نداءات تقول بأن الأمور لا يمكن أن تستمر على ما هي عليه.

بيترا هولوفا

أديبة تشيكية من مواليد براغ 1979. تخرجت في جامعة تشالز بمدينة براغ. ذاعت شهرتها الأدبية مع رواية (مذكرات جدتي- 2002) التي اعتبرت من أهم الأعمال الأدبية التشيكية في القرن الواحد والعشرين والأكثر مبيعًا.

ثم أصدرت روايتها التالية "عبر زجاج كامد 2004"، وتلتها أعمال، منها رواية (حماة الصالح العام 2010) والتي نقدمها للقارئ العربي تحت عنوان "حدث في كراكوف". آخر أعمالها رواية (زوجة الأب – 2014).

حصلت بيترا على العديد من الجوائز الأدبية، وترجمت معظم أعمالها إلى أكثر من عشرين لغة أجنبية.

تصميم الغلاف: محمد سيد

ISBN 978-977-319-214-3

9 789773 192143 >

العربي للنشر والتوزيع

60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg